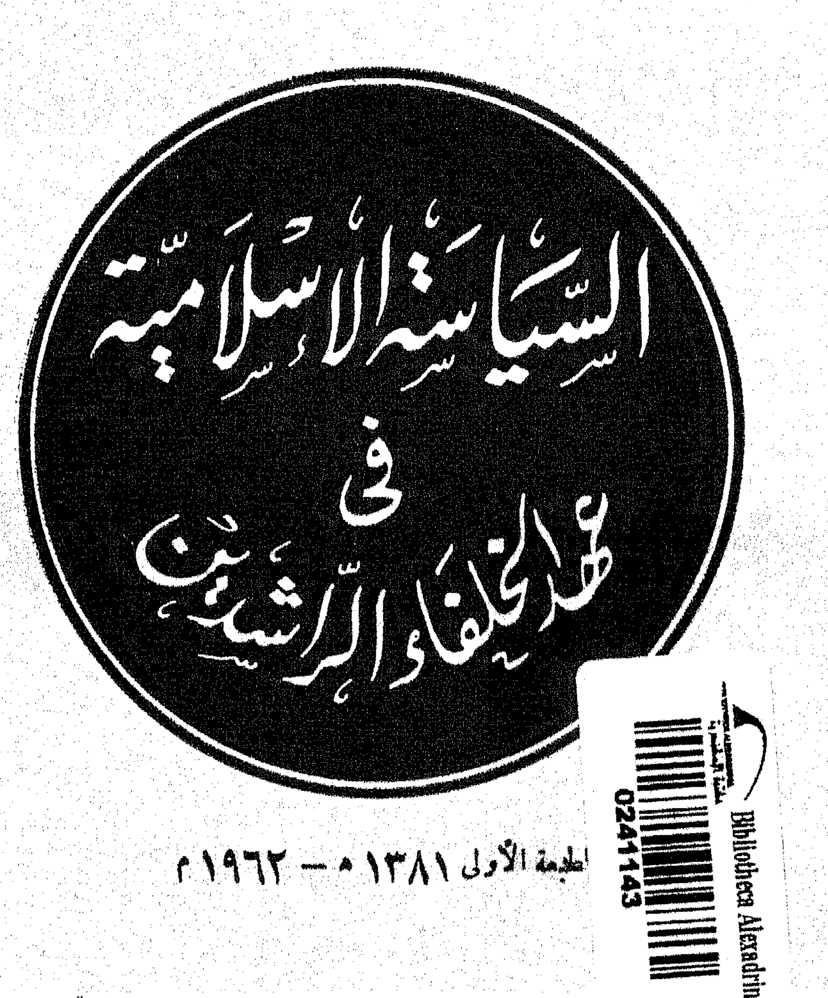
عبد المتعال الصعيدي



الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

ملتز[illegible] نشر
دار الفكر العربي



عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية
من كليات الجامع الأزهر

السياسة الإسلامية
فى عهد الخلفاء الراشدين

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

[قرآن كريم]

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

دار الثقافة العربية للطباعة

شارع قولة - الدربالشة عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الخلق ورعى مصالحهم ، ولم يتركهم سدى يجرون على أهوائهم ، بل سنّ لهم سنناً تكفل لهم هذه المصالح ، وتسوسهم سياسة تستقيم بها أحوالهم ، رحمة منه بعباده ، وكرماً يليق بكمال ذاته .

والصلاة والسلام على النبىّ العربىّ الذى بعث بأكمل رسالة ، وجاء بأوفى شريعة لتحقيق هذه المصالح للخلق كافّة ، لأنها تسلك فى ذلك سياسة يستقيم بها أمر الدنيا والدين ، وتجمع بينهما على خير الناس فى دنياهم وأخراهم ، لأن الدين يقوم فيها حارساً على ضمائر الساسة ، ويقاوم الأهواء فى نفوس القائمين بهذه المصالح ، ويؤدى فى هذا وظيفة الحارس الأمين الذى لا يأخذ على حراسته أجراً ، ولا يغفل عن عمله فيها أدنى لحظة .

وقد جرت السياسة الإسلامية على هذا الأساس الصالح فى عهد النبوّة على ما جاء فى كتابى — السياسة الإسلامية فى عهد النبوة — وها أنذا الآن أفى بعهدى فيه أن أتبعه بكتاب ثانٍ يجرى على نسقه فى عَرْض سيرة الخلفاء الراشدين عرضاً سياسياً كعرض السيرة النبوية ، فلا يُعنى فيه بسرد الحوادث على نمط ما تسرد فى علم التاريخ ، وإنما يكون المقام الأول فيه لشرح هذه السياسة ، ويقتصر فيه على الحوادث التى تلزم لهذا الشرح السياسى . ليكون خالصاً لهذا الأسلوب الجديد الذى سلكته فى عرض السيرة النبوية ، ويتمّ به العمل الذى أردت القيام به فى هذين العهدين

الكريمين ، لأنهما كما ذكرته في كتابي — السياسة الإسلامية في عهد النبوة — العهدان اللذان يحسبان على الإســـلام ، ويهمنا بيان نزاهة السياسة الإسلامية فيهما ، وتخليصها من الشوائب التي يريد خصوم الإسلام أن يشوّهوها بها ، أو يقع فيها بعض أبنائه باجتهاد منحرف عن الصواب ، أو بتقليد لأولئك الخصوم ، ليقع الحق في نصابه ، ويصير الاجتهاد في طريقه القويم ، لا يتأثر بنزغة من النزغات ، ولا ينحرف في هذه السياسة هنا أو هناك ، بما يكون له أسوأ الأثر — لو تركناه — في نفوس النشء ويجعلهم يفهمون هذه السياسة على غير وجهها الصحيح ، ويلحقونها ظلماً بالسياسة المنحرفة التي لا يستقيم بها الحكم ، ولا تنتظم بها أحوال الخلق ، ولا تندرج في السياسة التي سنها العلم الصحيح لما يرضاه من الحكومات.

وهذا هو كتابي الثاني — السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين — وهو العهد الذي كان أشبه شيء بعهد النبوة ، لأنه كان يحذو حذوها ويجعلها مثاله ، ويعمل على إقامة حكم صالح يضرب به مثلا للناس كافّة ، فلا يقتصر خيره على المسلمين وحدهم ، بل يعم الناس جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، ويكون قدوة لمن يريد الاقتداء به من الشعوب ، لأنها جميعاً في نظره سواء ، كما جاء في قوله تعالى في الآية — ١٣ — من سورة الحجرات.

(يأيها الناس إنا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكُم عند الله أتقاكُم إنّ الله عليمٌ خبيرٌ) .

والله أسأل أنّ يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يوفّقني لما أردت من ذلك الغرض العظيم ؟

٣ من شعبان سنة ١٣٨٠ هـ
١٩ من يناير سنة ١٩٦١ م

نظام الحكم فى الإسلام

إيثار وضع قواعد عامة للحكم :

عنى الإسلام فى التشريع للحكم بوضع قواعد عامة صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا هو شأنه فى غالب ما جاء به من التشريعات ، حتى يجد الناس فيها متسعاً للاجتهاد والتطبيق ، ولا يضيقوا بها فى أى زمن من الأزمان ، وهذا هو الذى جعلها خاتمة لما قبلها من الشرائع ، لأننا لا نحتاج بعدها إلى غيرها بعد هذا الاتساع فيها ، وبعد صلاحيتها به لكل زمان ومكان.

وهذه القواعد العامة التى وضعها الإسلام للحكم تتلخص فيما يأتى :

١ — أن يكون للناس ولى أمر يلى أمورهم العامة ، لأن كلا منهم ينصرف فى حياته إلى شؤونه الخاصة ، فلا بد لهم من شخص يقوم لهم بشؤونهم العامة ، مما لا غنى لهم عنها فى حياتهم ، وهؤلاء هم أولوا الأمر الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، كما جاء فى قوله تعالى فى الآية — ٨٣ — من سورة النساء (ولو ردوه إلى الرسول وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وليس كل شخص صالحاً للقيام بهذه الولاية ، بل لا بد له من شروط تجعله صالحاً لها ، من العلم والأمانة ونحوهما مما يجعله صالحاً لها ، وكل المسلمين سواء فى هذه الشروط ، فلا فرق فيها بين شخص وشخص ، ولا بين شعب وشعب ، لأنه لا فضل فى الإسلام لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى

إلا بالتقوى ، فالناس يتفاضلون فيه بأعمالهم لا بأنسابهم ، وتفاضلهم بالعمل لا يجعل لأحدهم حق الاستعلاء به على غيره ، بل يجب عليه أن يرعى حقوقه ، وأن ينظر إليه على أنه مثله ، ويجب على الدولة أن ترعى له حقوقه أيضاً كما ترعاها لمن هو أفضل منه فى العمل ، حتى لا يكون فى الإسلام نظام طبقات ، ويكون للناس جميعاً حقوقهم فيه على سواء .

٢ — أن يقوم ولى الأمر فيهم برضاهم ، فلا ينتصب والياً عليهم إلا بعد رضاهم به ، ولا بد من دوام رضاهم عنه ، فإذا حصل منه ما يستوجب عدم رضاهم انقطع حكمه ، كائناً ما كان شكل هذا الحكم ، وقد جاء القرآن الكريم بهذا فى قوله تعالى فى الآية — ٣٨ — من سورة الشورى (وأمرهمْ شورَى بينهمْ) لأن الشورى لا تكون إلا مع الرضا ، فلا بد من تحققه فى الابتداء والدوام ، لأن الآية ذكرت حالهم فى الشورى غير مقيد بزمان .

٣ — أن يكون الحكم بالعدل بين الناس جميعاً ، ليستووا فيه بلا فرق بين أديانهم وأجناسهم ، وقد أمر الله تعالى بهذا فى الآية — ٥٨ — من سورة النساء (إن الله يأمركمْ أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلهاَ وإذا حكمتمْ بين الناسِ أنْ تحكموُا بالعدلِ) وفى الآية — ٩٠ — من سورة النحل (إن الله يأمر بالعدلِ والإحسانِ)

بل أمر الله تعالى بالعدل مع أعداء الإسلام ، لأن الإسلام يسمو فى عدله إلى أن يأمر به مع عدوِّه ، ولو لم يأمر به مع عدوه لكان عدله ناقصاً ، ولم يكن دين الرحمة للناس جميعاً ، وقد جاء الأمر بهذا فى الآية — ٨ — من سورة المائدة (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله

شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) .

ولاشك أن الإسلام بأخذه عدوه بالعدل يكسب ولايخسر ، لأن عدوه إذا رأى أنه يأخذه بالعدل كما يأخذ من لايعاديه ، وكما يأخذ من يدين به ، تنجذب نفسه إليه ولا تنفر منه ، وكثيراً ما يحمله هذا على الإيمان به ، وهذا هو السر فى سرعة انتشار الإسلام حين كان المسلمون فى بدء أمرهم يأخذون الناس جميعاً بالعدل ، فكانوا يدخلون به فى دين الله طوعاً ، ويرون أن أخذه بالعدل إلى هذا الحد يدل على أنه دينه حقاً ، لأن هذا العدل الكامل لايكون إلا ممن خلقهم بالعدل ، ووسعتهم رحمته بالعدل ، وشملهم رزقه بالعدل ، وجعل دنياه لهم بالعدل .

وبهذا كان أخذ الإسلام للناس بالعدل ولو كانوا أعداءه سياسة حكيمة وتدبيراً رشيداً ، ونهجاً مستقيماً ، ومثلا عالياً ، ضربه للعالم فى علاقاته العامة مع الأديان والأجناس المخالفة له ، حتى تجتمع كلمة الشعوب كلها على العدل ، ولايطمع بعضهم فى بعض بالظلم ، وبهذا يسود السلام فى العالم ، وتنقطع الخصومات بين الشعوب ، فلا يطمع قوىّ فى ضعيف ليسلبه أرضه وماله ، بل يأخذ بيده حتى ينقذه من ضعفه ، ولا يعمل على حرمانه من خيرات بلاده .

٤ ــ أن يكون الحكم بالشورى ، لأنها أساس الحكم الصالح ، فالرأى الواحد قد يميل مع هوى صاحبه ، والآراء الكثيرة إنما تجتمع على المصلحة العامة ، وبهذا يكون فى الشورى صيانة لولىّ الأمر عن إيثاره لمصلحته ، وصيانة للأمة عما يصيبها من الضرر بإيثاره لهذه المصلحة ،

وهذه الشورى تدخل أيضاً فيما جاء فى الآية السابقة (وأمرهم شورى) بينهم ، وهى التى أمر الله تعالى بها فى الآية — ١٥٩ — من سورة آل عمران (وشاورهم فى الأمر) والأمر بها فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان قد أمر بها وهو يتلقى الوحى عن الله تعالى ، فإن غيره ممن لا يتلقى الوحى أولى بهذا الأمر .

وقد أمر الله تعالى بهذه الشورى مطلقة من غير أن يقيدها بشكل مخصوص ، لتجرى على كل شكل يراه النـــاس فى كل زمان ومكان ، ولا تتقيد بشكل مخصوص قد يصلح لزمان دون زمان ، أو لمكان دون مكان ، والإسلام يجرى فى هذا على ما سبق فى تشريعاته ، من جعلها فى الغالب عامة قابلة للاجتهاد ، ليتسع أمرها بالاجتهاد على الناس ، ولا تضيق عليهم فى حال من الأحوال .

دفع اعتراض على ترك تعيين شكل الحكم :

وقد ظهر فى عصرنا الحديث من يرى أنه لم يكن يصح الاكتفاء بهذه القواعد العامة فى نظام الحكم فى الإسلام ، ومنهم المستشرق الإنجليزى عبد الله فلبى ، وكان يشغل وظيفة الوزير المفوض للحكومة الإنجليزية فى المملكة السعودية ، ثم أظهر الإسلام واشتغل بالدراسات العربية والإسلامية ، ومما ألفه فى ذلك كتاب — هارون الرشيد — وهو الذى نقله الأستاذ عبد الفتاح السرجاوى من الإنجليزية إلى العربية .

فرأى فيه أنه كان على النبى صلى الله عليه وسلم أن يعين شكل الحكم بعده تعييناً لا يجعل موضعاً للاختلاف فيه ، ولو أنه فعل هذا لم يختلف

المسلمون بعده فى شكل الحكم ، ولم يصر الخلاف بينهم فيه إلى ما صاروا إليه من التفرق الذى أدى أخيراً إلى ضعفهم ، فإن العامل الأكبر فى تفرقهم لم يأت من ناحية الدين ، وإنما أتى من ناحية السياسة ، ومن ناحية اختلافهم فى هذا الحكم ، وكان لهذا أثره فيما تبعه من الخلاف والتفرق فى بعض المسائل الدينية ، لأنهم لم يختلفوا فيها إلا بعد أن فرق بينهم الخلاف على السياسة .

وعجيب من أمر هذا المستشرق الإنجليزى أن يأخذ هذا مع إسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو فى هذا يقلب الحقائق ، و يعدّ ما هو من محاسن الإسلام مأخذاً يؤخذ عليه ، ونقصاً أدى فى رأيه إلى ما أدى إليه من تفرق المسلمين وضعفهم ، ولو تأمل هذا المستشرق قليلا لعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم لو بين شكل الحكم بعده على التعيين لراعى ظروف المكان الذى يقوم فيه هذا الحكم ، وظروف الزمان الذى يظهر فيه هذا الحكم ، وظروف الشعب الذى ينشأ بينه هذا الحكم ، فيجيء تشريعاً خاصاً بظروف هذا المكان ، وبظروف هذا الزمان ، وبظروف هذا الشعب ، ولاشك أنه كثيراً ما يصلح حكم لمكان بمقتضى ظروفه ولا يصلح لمكان آخر له ظروف مخالفة لها ، وكذلك الأمر فى ظروف الزمان ، وفى ظروف الشعوب ، والإسلام دين عام لكل الأمكنة ، ولكل الأزمنة ، ولكل الشعوب ، فلا يصح أن يراعى فى تشريعه ظرف خاص ، وإنما يجب أن يراعى فى تشريعه ما يجعله صالحاً لكل مكان ، ولكل زمان ، ولكل شعب ، ولا يكون هذا إلا بالاكتفاء بالقواعد السابقة ، وإلا بترك التطبيق عليها للظروف المختلفة ، وهى

مرونة تشريعية تحسب للإسلام ولا تحسب عليه ، وتجعله بحق دين الإنسانية كلها ، لا دين شعب واحد من شعوبها .

وأما الذى ذكره من خلاف المسلمين وتفرقهم فالحقيقة أنه لم يحصل بهذه القواعد العامة فى الحكم لنقص يزعم فيها ، وإنما حصل بالخروج عليها وتعدّى حدودها ، فقد وقف الصحابة الأولون عند هذه الحدود لرسوخ الإسلام فى نفوسهم ، ولفهمهم لرسالته على وجهها الصحيح ، فجمعت بينهم ولم تفرقهم ، وكان خلافهم فى حدود الشورى التى ينتهى الخلاف فيها إلى وفاق ، وإلى الرضا بالرأى الذى تجتمع عليه الكلمة بعد تبادل الآراء ، ومثل هذا الخلاف لا ضرر فيه أصلا ، بل لابد منه لصلاح الحكم ، ولابد منه لتحقيق حرية الرأى ، ليبدى كل شخص رأيه فى حرية تامة أصاب أو أخطأ ، فإن أصاب فهو مأجور ، وإن أخطأ فهو معذور ، ومادامت هناك حرية رأى بين الأمة فإنها تقف سداً منيعاً دون الاستبداد فيها ، ولا تمكن طاغية من فرض سلطانه عليها ، وتحكيم رأيه وحده فيها ، وكفى بهذا فضلا لذلك الخلاف الذى تقتضيه طبيعة الشورى ، وتستلزمه حرية الرأى .

وقد مضى الخلفاء الراشدون على الوقوف عند حدود هذه القواعد إلى أن ذهبوا واحداً إثر واحد ، فخلا الجو لمن لم يكن لهم مثل سابقتهم فى الإسلام ، ولمن لم يكن له مثل فهمهم لرسالته على وجهها الصحيح ، فخرجوا على هذه القواعد ، وشقوا عصا الجماعة بالخروج عليها بالسيف ؛ فضاعت به الشورى التى لا يكون الحكم فيها لقوة السيف

قوة الرأى . وضاعت به حرية الرأى التى لا تجتمع هى والسيف فى قراب واحد .

وكان أول من خرج على هذه القواعد ناشئة من الأعراب وشذاذ الأمصار التى دخلت حديثاً فى الإسلام ، فخرجوا على الخليفة الثالث بسيوفهم ، ثم خرجوا بعده بها على الخليفة الرابع ، فمهدوا الطريق لبنى أمية فى الوصول إلى الحكم بقوة السيف ، ومكنوها من القضاء على عهد الشورى الذى وقف عند حدوده الخلفاء الراشدون .

بدء الخلاف فى شكل الحكم

إيثار الأعراب للنظام القبلى :

كان النظام القبلى هو النظام السائد فى بلاد العرب قبل الإسلام ، لقلة الأمصار فيها ، وغلبة البادية على أرضها ، فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم كان النظام القبلى لايزال له آثاره فى بلاد العرب ، فأرادت كل قبيلة أن تحتفظ بوحدتها ، وأن يكون لها رئيس ينفرد بها عن غيرها من القبائل ، وقد كان لدى كل قبيلة عامل من قبل النبي صلى الله عليه وسلم يجمع ما عليها من الزكاة ، فيصرف ما يصرفه منها فى شؤونها الخاصة ، ثم يرسل ما يفيض من شؤونها إلى المدينة ليصرفه النبي صلى الله عليه وسلم فى الشؤون العامة ، فظنوا أن هذا كان خاصاً بعهد النبوة ، وأنه كان يؤخذ من أموالهم لتنالهم بركة النبي صلى الله عليه وسلم فى أنفسهم وأموالهم ، ولعلهم فهموا هذا خطأ من قوله تعالى فى الآية — ١٠٣ — من سورة التوبة (خذْ منْ أموالهم صدقةً تطهرُهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهمْ إن صلاتكَ سكن لهمْ والله سميع عليم) والحقيقة أن هذه الزكاة هى ضريبة الدولة فى الإسلام ، وهى التى تجمع بينهم على مراعاة مصالحهم العامة قبل مصالحهم الخاصة ، لتجعل منهم أمة واحدة تجمع بينها هذه المصالح العامة ، وتقضى على ذلك النظام القبلى الذى فرق

كلمتهم ، وبدد شملهم ، ولم يجعل منهم أمة واحدة متحابة متآلفة ، ولا يراد من تطهيرها لهم إلا تطهيرها لنفوسهم من البخل بالإنفاق على هذه المصالح ، حتى لا يعيش كل واحد منهم لنفسه أو لقبيلته فقط ، بل يعيش لوطنه ودينه ، فلا يبخل عليهما بمال ، بل يؤثرهما على نفسه وقبيلته ، لينسى هذا النظام القبلي ، ويعيش فرداً فى الأمة الكبيرة ، لا فرداً فى قبيلته الصغيرة ، وكذلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بعد أخذ الزكاة منهم ليست إلا ثناء لهم على بذلها ، ودعاء لهم بأن يعوضهم الله تعالى خيراً منها ؛ فإذا مات النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله الذى أراد لهم هذا الدين وفرض عليهم هذه الزكاة حى لا يموت ، وثناؤه عليهم أبقى لهم ، وأنفع لهم فى دنياهم وأخراهم ، وكان هذا هو حال من اكتفى منهم بمنع الزكاة ، وقد جاوز أكثر القبائل هذا إلى الارتداد عن الإسلام ، ليعودوا إلى ما كانوا عليه من جاهلية فى الدين وغيره .

وكان عليهم حين رأوا هذا أن يجعلوه شورى بينهم وبين أولى الأمر فى المدينة ، ليقضى فيه بحكم الشورى الذى شرعه الإسلام ، وجعله أصلا من أصول الحكم ، ولكنهم لم يسلكوا فيه سبيل الشورى ، بل استبدوا به وأرادوا فرضه على أولى الأمر بقوة السيف إذا لم يوافقوهم عليه ، وكان ممن رأى هذا مالك بن نويرة التميمى اليربوعى ، وكان عاملا للنبي صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه ، فلما بلغه موته اضطرب فيها فلم يحمد أمره ، وفرق ما فى يده من إبل الصدقة ، فنصحه الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد أن يتأنى فى أمره ، وقالا له : إن لهذا الأمر قائماً وطالباً ، فلا تعجل بتفرقة ما فى يدك . فقال لهما :

أرانى الله بالنعم المندّى ببرقة رحرحان وقد أرانى
تمشى يا ابن عوذة فى تميم وصاحبك الأقيرع تلحيانى

يعنى بعوذة أم القعقاع ، وهى معاذة بنت ضرار بن عمرو ، ويعنى بالأقيرع الأقرع بن حابس .

ثم قال فى تأييد ما يراه من انقطاع الأمر بينه وبين المدينة بعد وفاة النبي صلى النبي صلى الله عليه وسلم :

وقلت:خذوا أموالكم غيرخائف ولا ناظر فيما يجىء من الغدِ
فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا : الدين دين محمد

وقد بقى من هؤلاء الأعراب كثير على ولائهم للقائمين بالأمر فى المدينة ، لأنهم فهموا رسالة الإسلام على حقيقتها ، وأنها رسالة جامعة لا مفرقة ، وأن العرب إذا لم ينضووا جميعاً تحت راية الإسلام ، فإن رسالته فيهم لا تكون لها فائدة ، وأنهم سيعودون إلى ما كانوا عليه قبله من تفرق وانقسام ، وأن ضعفهم بهذا التفرق سيؤدى إلى ضعف هذا الدين .

وكان حال الأمصار العربية — المدينة ومكة والطائف — على خلاف حال أولئك الأعراب فى بواديهم ، مع أن كلا من أهل مكة والطائف كانوا حديثى عهد بالإسلام . وقد بدا لبعض أهل مكة أن يرتدوا عن الإسلام ، وكان العامل عليها عتّاب بن أسيد بن أبى العاص ابن أمية ، فاستخفى حين بلغه خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتج

أهل مكة وكادوا يفتتنون ، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح فاجتمعوا إليه ، فقال .

« يا أهل مكة ، لا تكونوا آخر من أسلم ، وأول من ارتد ، والله ليتمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد رأيته قائماً مقامى هذا وحده وهو يقول « قولوا معى لا إله إلا الله تدين لكم العرب ، وتؤدى إليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ، فمن بين مستهزىء ومصدق ، فكان ما رأيتم ، والله ليكونن الباقى » .

فسمع أهل مكة لكلامه ، وامتنعوا من الردة .

أما أعراب البادية فكانوا على ثلاثة أقسام :

١ — قسم وفى للإسلام وثبت عليه ، ورأى أن وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أمر عارض لا يصح أن يؤثر شيئاً فى أمر الدعوة الإسلامية ، ولا فى غايتها من جمع كلمة العرب عليها ، ليقوموا بحمايتها وتبليغها لمن لم تبلغه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يظهر الإسلام فى الأرض كما وعد الله تعالى فى كتابه ، وبشر به نبيه صلى الله عليه وسلم .

٢ — وقسم رأى ما سبق من البقاء على الإسلام مع الامتناع من دفع الزكاة لمن يقوم بالأمر فى المدينة ، لأنه رأى أنها كانت فريضة للنبى صلى الله عليه وسلم بخصوصه ، وقد ذكرنا من هؤلاء مالك بن نويرة التميمى اليربوعى ، ونذكر منهم هنا قُرّة بن هبيرة العامرى ، وكان النبى

صلى الله عليه وسلم أرسل عمرو بن العاص إلى جيفر بن الجلندى ملك عُمان منصرفه من حجة الوداع ، فمات وعمرو بعمان ، فخرج منها حتى وصل إلى بلاد بنى عامر ، فنزل على قرة بن هبيرة وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ومعه عساكر من بنى عامر ، فذبح له وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال : يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم . وكان قرة فيمن أسر فى حروب الردة ومنع الزكاة ، فلما قدم على أبى بكر استشهد بعمرو على إسلامه ، فاحضر أبو بكر عمراً فسأله فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة . فقال قرة : مهلا يا عمرو . فقال عمرو : كلا ، والله لأخبرنه بجميعه . فعفا عنه أبو بكر مع هذا وقبل إسلامه .

٣ — وقسم ارتد عن الإسلام حينما رأى المسلمين بالمدينة ماضين فى جمع كلمة العرب تحت سلطة واحدة ودين واحد ، لتكون منهم أمة لا يفرق بينها اختلاف السلطة ، ولا تعدد الرؤساء ، فظن أنهم اتخذوا الإسلام وسيلة لهذه السلطة ليستأثروا وحدهم بمزاياها ، ويستأثروا بما يأخذونه من أموالهم لأنفسهم ، ولم يفهم أن الإسلام لا يبيح مثل هذا لأولياء الأمر فيه ، وإنما يجعلهم خدام الرعية وأجراءها ، ويحرم عليهم أن يستأثروا بشيء دونها .

رأى الأنصار أنهم أولى بالحكم :

ورأى الأنصار من أهل المدينة أنهم أولى بالحكم بعد وفاة النبى

صلى الله عليه وسلم ، لأن الإسلام إنما ظهر فى بلدهم ، والحكم إنما يقوم فيها فيكونون أولى به ، وكانوا ينقسمون إلى فريقين كبيرين : فريق الأوس وفريق الخزرج ، وكان بينهما قبل الإسلام حروب ومنازعات على الإمارة فى المدينة ونحوها ، وقد أتى النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبىّ بن سلول الخزرجى العوفى ، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع ، هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفىّ . وكان يقال له الراهب . لأنه كان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح على نحو الحنفاء الذين كانوا يأخذون بدين إبراهيم قبل الإسلام.

وكان أهل المدينة قد نظموا الخرز لعبد الله بن أبى ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فلما ظهر الإسلام فيهم انصرفوا عنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فضغن عليه ورأى أنه قد استلب منه ملكا . ولكنه حين رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً على نفاق وضغن .

فلما مات النبى صلى الله عليه وسلم رأوا أن يعودوا إلى مثل ما كانوا عليه قبل الإسلام ، ليتوجوا عليهم رجلا يكون ملكا عليهم ، وبادروا قبل أن يدفن النبى صلى الله عليه وسلم إلى الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة ، ليبايعوا سعد بن عبادة من الخزرج . ولعلهم أسرعوا بهذا ليسبقوا المهاجرين به ، وليجعلوهم أمام أمر واقع ، ولكنهم دلوا بهذا على أنهم أقل فهماً لرسالة الإسلام من المهاجرين ، لأن مثل هذا لا يصح أن يتم برأيهم وحدهم ، بل لا بد أن يكون شورى بين المهاجرين والأنصار .

ولا بد أن يكون برضا المسلمين جميعاً ، وكانت وفودهم قد اجتمعت بالمدينة لهذا الحدث الكبير ، وللنظر فيما يكون عليه أمر المسلمين بعده . ولهذا رأى المهاجرون أن يؤجلوا النظر فيه حتى ينتهوا من دفن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم يكون الأمر شورى بين المسلمين جميعاً .

رأى المهاجرين أنهم أولى بالحكم :

وكان رأى المهاجرين على خلاف رأى الأنصار . فرأوا أنهم أولى بالحكم منهم ، ولكنهم لم يبادروا إلى السعى فيه كما بادر الأنصار ، لأنهم رأوا أنه لا يصح النظر فيه قبل أن ينتهوا من دفن النبي صلى الله عليه وسلم . فإذا انتهوا من دفنه جمعوا الناس ونظروا فيه ، حتى لا يستبدوا بالنظر فيه وحدهم كما استبد الأنصار . ليقنعوا الناس برأيهم فى حرية تامة ، كما هو الواجب فى أخذ الناس بالشورى .

ولكن الأنصار استعجلوهم فبادروا إلى اجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة قبل أن يصلوا فيه إلى أمر مع غيرهم من طوائف المسلمين ، لأن مثل هذا الأمر لا يصح أن يستبد بالنظر فيه فريق دون فريق ، بل لا بد أن يتم باختيار المسلمين جميعاً . فلا يصح أن يتركوا الأنصار ليوقعوا المسلمين فى حرج باختيارهم واحداً منهم ، لأن المسلمين سيرون أنهم تآمروا بهذا عليهم ، فلا يخضعون لرأيهم . وقد يترتب على هذا من الفتن ما يفرق كلمة المسلمين . ويؤدى إلى إضعاف هذا الدين .

تشاور الفريقين واختيارهم أبا بكر خليفة :

فلما علم عمر بن الخطاب باجتماع الأنصار أتى منزل النبي صلى عليه وسلم وأبو بكر فيه . فأرسل إليه : أن أخرج إلى . فأرسل إليه : إنى

مشتغل . يعنى اشتغاله بما يلزم لدفن النبى صلى الله عليه وسلم . فأرسل إليه : قد حدث أمر لا بد لك من حضوره . فخرج إليه فأعلمه الخبر . فمضيا مسرعين نحو الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ومعهما أبو عبيدة عامر بن الجراح ، حتى يدركوهم قبل أن يقطعوا أمراً فيما اجتمعوا له ، فلا يتم إلا بعد تشاور ينتهى باتفاق الكلمة على من يختارونه ليلى أمورهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، فيبدى كل من الفريقين رأيه ، ويؤيده بما يراه فى حرية تامة ، لأن هذا هو السبيل الوحيد لاتفاق الكلمة .

وكان سعد بن عبادة الخزرجى قد قام خطيباً فى الأنصار حين اجتمعوا فقال :

« يامعشر الأنصار . لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم ، فما آمن به إلا القليل ، ما كانوا يقدرون على منعه ، ولا على إعزاز دينه . ولا على دفع ضيم . حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه . حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرها . وأعطى البعيد المقادة صاغراً ، فدانت لرسوله بأسيافكم العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين . استبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دونهم » .

فجعل الأمر بهذا استبداد لا شورى .

فلما حضر أبو بكر قام فيهم خطيباً فقال :

« يا معشر الأنصار ، إن الله قد بعث فينا رسولا شهيداً على أمته ،

ليعبدوه ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، من حجر وخشب ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم إياه ، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشنف(١) الناس لهم ، فهم أول من عبدالله في هذه الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، لا ينازعهم إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم في الإسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تفاوتون بمشورة . ولا تقضى دونكم الأمور » .

فقام الحباب بن المنذر من الأنصار فقال :

« يا معشر الأنصار . املكوا أمركم ، فإن الناس في ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم . ولا يصدروا إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز ، وأولو العدد والمنعة ، وذوو البأس ، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم . أبى هؤلاء — يعني المهاجرين — إلا ما سمعتم . فمنا أمير ومنكم أمير » .

فقام عمر بن الخطاب فقال :

« هيهات ، لا يجتمع اثنان ، والله لاترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ، ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، ولنا

---

(١) الشنف : البغض .

بذلك الحجة الظاهرة ، من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته؟» .

فقام الحباب بن المنذر فقال :

« يامعشر الأنصار ، أملكوا على أيديكم ، ولاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم فاجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين ، أنا جذيلها المحكك (١) وعذيقها المرجب (٢) والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة » .

فقال عمر : إذن ليقتلك الله .

فقال الحباب : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار ، إنكم أول من نصر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير .

فقام بشير بن سعد من الخزرج فقال :

« يامعشر الأنصار ، إنا والله وإن كنا أولى فضله فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ، ما أردنا بهذا إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ، ولانبتغى به الدنيا ، ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أولى به ، وايم الله لايرانى الله أنازعهم هذا الأمر ، فاتقوا الله ولاتخالفوهم .

فانتهز أبو بكر هذا وقال : هذا عمر وأبو عبيدة فإن شئتم فبايعوا .

---

(١) مثل لمن يلتجأ اليه ويستشفى برأيه ، والجذيل تصغير الجذل وهو عود ينصب للابل الجربى لتحتك به .

(٢) العذيق : تصغير العذق وهو الذكى اللبق ، والمرجب : المهيب المعظم .

فقالا : والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، وأنت أفضل المهاجرين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، وهى أفضل دين المسلمين ، أبسط يدك نبايعك .

فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه ، ولما رأت الأوس ماصنعه وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض : والله لئن وليتها الخزرج مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر . فبايعوه بعد بشير وعمر وأبى عبيدة ، وأقبل الناس من كل جانب يبايعونه ، فلما رأت الخزرج ذلك بايعوه أيضاً ، ولم يتخلف منهم عن البيعة له إلا سعد ابن عبادة .

دفع اعتراض على اجتماع السقيفة :

وقد يعترض على اجتماع السقيفة التى تم فيه اختيار أبى بكر خليفة من ثلاثة وجوه :

أولها أنه عقد فى غير وقته المناسب له ، لأنه عقد والمسلمون مشتغلون بتجهيز النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان من الواجب تأخيره إلى أن ينتهوا من تجهيزه ، لينظروا فى هذا الشأن الكبير وهم متفرغون له .

وثانيها أنه عقد فى خلسة من المسلمين ، ومثل هذا الأمر يجب أن يكون فى اجتماع علنى ، حتى لا يؤخذ فى غفلة من الناس ، ولا تكون الشورى ناقصة غير كاملة ، لأنها لا تكون كاملة إلا باجتماع علنى يكون الناس على علم به ، ليشتركوا فيه ويبدى كل واحد رأيه .

وثالثها أنه لم يحضره من المسلمين إلا فريق الأنصار وثلاثة من

المهاجرين ، فيكون اجتماعا ناقصاً غير كامل ، لأن هذا الشأن من حق الناس جميعاً ، فلا يصح أن يستأثر بالرأى فيه بعض دون بعض ، بل يجب أن يكون الرأى فيه للناس كلهم .

والجواب عن هذا كله بتسليم هذه المآخذ كلها على اجتماع السقيفة ، ولكن تعجيل الأنصار به ومحاولتهم الاستئثار بالأمر دون غيرهم جعلها حالة ضرورة ، فلابد من سرعة البت فيها اتقاء للفتنة ، ودفعاً لما يحدث من الحرج والضرر إذا لم يبت فيها بسرعة . ولهذا قال عمر بن الخطاب فى شأن هذا الاجتماع : إنا والله ماوجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبى بكر ، خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نتابعهم على مالا نرضى به ، وإما أن نخالفهم فيكون فساداً .

أى يكون الخلاف فساداً بين المسلمين وتفريقاً لأمرهم .

على أن ماتم فى هذا الاجتماع من اختيار أبى بكر كان فى الواقع مشروطاً بموافقة جمهور المسلمين عليه ، فكان ذلك بدءاً لمبايعته لانهاية لها ، ليكون لمن لم يحضر هذا الاجتماع حق الموافقة عليها أو الامتناع منها . ولهذا استمرت مبايعة أبى بكر بعده حين فرغ الناس من تجهيز النبى صلى الله عليه وسلم ، فوافق عليها من وافق فى حرية تامة ، ولم يكن لهذا الاجتماع أثر فى موافقته عليها ، وامتنع منها من امتنع فى حرية تامة أيضاً ، لأن كل فرد له حقه فى ذلك يستعمله كيف شاء ، ولو خالف فيه الناس جميعاً ، ولو أن جمهور المهاجرين وغيرهم ممن لم يحضر هذا الاجتماع لم يوافقوا على بيعة أبى بكر لبطل ماتم فيه من اختياره خليفة ، ولشرعوا فى اختيار آخر غيره . ولكن الذى امتنع من مبايعته بعد هذا الاجتماع كان

قلة لاتذكر بين الجمهور الذى وافق عليها ، وأقر ماتم فى هذا الاجتماع الذى لم يحضره ، وهذا إلى أن أبا بكر استقالهم من بيعته ثلاثة أيام فلم يقيلوه .

رجوع الحكم لرأى الأمة لا لحق فيه أو عصبية :

وقد فهم جمهورنا من احتجاج بعض المهاجرين بأنهم من قريش أن الحكم حق لكل قرشى دون غيره من طوائف المسلمين ، مع أن هذا لم يذكر إلا حين احتدم النقاش بين المهاجرين والأنصار ، وإلا حين اعتز الأنصار بطائفتهم فاعتز بعض المهاجرين بطائفتهم أيضاً . مع أنه لاطائفية فى الإسلام ولاعصبية ، ولهذا يجب أن يكون الحكم فى الإسلام من حق الناس جميعاً ، حتى لايكون هناك فرق فيه بين قرشى وغير قرشى . ولا بين عربى وغير عربى .

والحقيقة أن المهاجرين اعتمدوا فى ذلك أولا على سابق إسلامهم وهجرتهم ، فجعلوه للمهاجرين الأولين منهم ، لا لقريش عموماً ولا للمهاجرين عموماً . ولم يجعلوه لهم جزاء على سابق إسلامهم وهجرتهم لأنهم كانوا يبتغون بهما وجه الله تعالى ، وإنما رأوا أن أسبقيتهم فى ذلك تجعلهم أقدر على فهم رسالة الإسلام من غيرهم ، فإذا قاموا بالأمر بعد النبى صلى الله عليه وسلم ساروا به فى طريقه ، ولم ينحرفوا به عن وجهته ،

وإذا كانوا قد ذكروا أنهم من قريش بعد ذلك فلم يذكروه على أنه حق لهم يستأثرون به على غيرهم ، وإنما ذكروه على أن العرب فى ذلك الوقت لم تكن ترضى أن تدين إلا لهم ، وحينئذ يكون المرجع فيه لاختيار العرب أيضاً ، وبهذا يكون لهم الحق فى اختيار غيرهم ، ولايكون لقريش حق فى هذا بمقتضى قرشيتهم أو عصبيتهم ، لأن الإسلام

إنما جاء لإبطال العصبية والطائفية ، فلا يصح أن يكون لها تأثير فى قيام الحكم فيه .

وقد ذهب ابن خلدون إلى أن قريشاً كان لهم الحق فى هذا بمقتضى عصبيتهم ، فلم يجعله حقاً لهم مطلقاً كما ذهب إليه الجمهور ، وإنما جعله حقاً لهم ما بقيت عصبيتهم ، فإذا ذهبت عصبيتهم ذهب معها هذا الحق ، وانتقل إلى من تكون له العصبية بعدهم من العرب أو غيرهم .

والحق أن العرب أذعنت لقريش تديناً لا عصبية ، وأنها لم تذعن لهم على العموم بل على الخصوص ، فإنها لم تذعن إلا لأبى بكر وأمثال أبى بكر ممن كانت لهم سابقة فى الإسلام والهجرة ، وممن كان يقدمهم النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته . لما كان لهم من ذلك الفضل ، ولما كان لهم من كامل العقل ، وراجح الرأى ، والوقوف على رسالة الإسلام من نشأتها إلى نهايتها ، وهذه أمور بعيدة عن النسب والعصبية ، وإنما ترجع إلى ميزات شخصية امتازوا بها على غيرهم .

على أن هنا أمراً لم يتفطن له جمهورنا أيضاً ، وهو أن المهاجرين والأنصار حينما اختلفوا فى ذلك كان كل منهم يذهب إلى أنه أولى به ، أو أحق به ، وهذه صيغة تفضيل تقتضى ثبوت الحق فيه لجميعهم ، وإنما هى أرجحية وأولوية ، وإنما هو اجتهاد فيمن هو الأولى والأرجح ، ومثل هذا لا يتعدى أن يكون مندوبا لا واجباً . ولهذا ذهب الفقهاء إلى أنه يجوز تولية المفضول مع وجود الأفضل ، وحينئذ تكون تولية الأفضل مندوبة لا واجبة ، وحينئذ يكون الحكم قد آل إلى من آل إليه من قريش فى ذلك الوقت على سبيل الندب لا على سبيل

الوجوب ، وهذا لا يجعل لهم حقاً واجباً فيه على الأبد كما ذهب إليه الجمهور ، بل لا يجعله لهم أبداً ولو على سبيل الندب ، لأن من تولى ذلك منهم تولاه لأمور ترجع إلى شخصه كما سبق ، ولا ترجع إلى كونه من قريش أو غير قريش ، ولا إلى كونه من العرب أو غير العرب .

محاولة وصم الخلافة بنظرية الحق الإلهى :

وبهذا تم اختيار أول خليفة فى الإسلام على أن الحق فى اختياره للأمة ، وعلى أنه نائب عنها فى تدبير شؤونها ، وعلى أن لها الحق فى عزله إذا لم يحسن التصرف فى هذه الشؤون ، وهذا أبعد ما يكون عن نظرية الحق الإلهى فى الحكم ، وهى النظرية التى كانت سائدة فى حكم ملوك الفرس والروم وغيرهم من الملوك الأقدمين إلى ظهور الإسلام ، ثم استمرت فى حكم ملوك أوربا إلى القرون الحديثة ، حين ثار عليها فلاسفة أوربا فى عصر النهضة ، وكانوا متأثرين بالإسلام وفلسفته فيما تأثروا به ، ولا سيما فلسفة ابن رشد التى كان لها أثر كبير فى نهضتهم .

وهذا هو القرآن الكريم ينكر هذه النظرية التى وصلت بأولئك الملوك إلى دعوى الألوهية ، وانتحل بها رؤساء الأديان لأنفسهم صفة العصمة ، حتى ادعوا أن ما يربطونه فى الأرض يربط فى السماء ، ونظروا إلى أنفسهم كأرباب للرعية ، وأنهم هم الوسطاء بينها وبين الله تعالى . فكانوا يغفرون لها الذنوب ، وكانت ذنوبها لا تمحى عنها إلا إذا اعترفت بها لهم ، وكان نصيب كل واحد من أفرادها فى الجنة بأيديهم ، يمنحونه لمن يشاءون ممن يشتريه بالمال منهم ، ويحرمون منه من يشاءون ممن يبخل عليهم بماله ، فأنكر القرآن الكريم هذا كله حين أنكر

على بعض الملوك دعوى الألوهية، كما قال فرعون فى الآية — ٢٤ — من سورة النازعات (أنا ربكم الأعلى) وحين أنكر على أهل الكتاب اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا ، فقال فى الآية — ٣١ — من سورة المائدة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) .

وقد كانت نظرة أول خليفة من الخلفاء الراشدين فى الحكم أنه نائب فيه عن الأمة ، وأنه فى حاجة إلى معونتها وإرشادها ومشورتها ، وهذا حين انتهوا من تجهيز النبى صلى الله عليه وسلم، فذهب أبو بكر إلى المسجد فجلس على المنبر ليبايعه الناس بيعة عامة بعد تلك البيعة الخاصه فى سقيفة بنى ساعدة لأنها كانت ترشيحا لهذة البيعة، فلما انتهى الناس من بيعته خطب فيهم فقال :

«أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى ، لايدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لايدعه قوم إلاضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »

وكذلك كان نظر الخلفاء الراشدين بعد الخليفة الأول ، وليس بصحيح ما حاول الأستاذ طه حسين فى كتابه — الفتنة الكبرى : عثمان — إلصاقه بالخليفة الثالث عثمان بن عفان ، من أنه لم يكن يرى فيما يظن أن للمسلمين الحق فى أن يراقبوه فضلا عن أن يعاقبوه ، فهو قد أعطى العهد الذى أعطاه وهو مسئول عن هذا العهد أمام الله لا أمام

الناس ، يدل على ذلك اقتناعه بأن الذين طلبوا إليه أن يخلع نفسه قد طلبوا إليه شيئاً عظيما ، وقوله لهؤلاء ولغيرهم « ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه الله عز وجل » وقوله أيضاً : « لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أنزع سربالا سربلنيه الله عز وجل » وهذا هو المذهب الذى عرضه زياد فى خطبته المشهورة حين قال « أيها الناس ، إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم زادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا » وإذا كان هذا رأى عثمان فى الخلافة وفيما تتيح له من سلطان ، فليس غريباً أن يضيق بالذين يجادلونه فى سلطانه ، ويحاولون أن يكفوه عن بعض تصرفه فى الإدارة والسياسة أو المال ، فهو ليس مسئولا أمام الناس ، وإنما هو مسئول أمام الله وحده .

ولا شك أن هذا من الأستاذ طه حسين فيه تجنٍّ كثيرٌ على تاريخ عثمان ، وإن حاول أن يخفف منه بقوله — فيما يظن — مع أن مسائل العلم لا يكفى فيها هذا الظن ، فإنه لما أتى الثائرون عليه يشكون له ظلم الولاة سمع أولا لشكواهم ، مع أنه لم يخف عليه شيء من طويتهم ، ولكنه أراد أن يقطع عذرهم ، فعقد لذلك مجلساً قرر أن يرسل بعض الرجال الموثوق بهم إلى البصرة والكوفة ودمشق ومصر ، ليطلعوا على أحوالها ، ويعرفوا مصدر تلك الظلامات ، وما عليه من حق وباطل ، فاختار عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وعمار بن ياسر ، فذهب كل واحد منهم إلى مصر من هذه الأمصار ، وبحثوا عن أحوال الولاة فيها ، وقد رجع منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة . فأخبروا بأن هذه الظلامات كاذبة ، وبأن الولاة يرعون ولا يتهم

حق رعايتها . ولم يتخلف منهم إلا عمار بن ياسر ، وكان قد ذهب إلى مصر وفى نفسه شىء من عثمان ، لأنه نفذ فيه حكم الله حين تقاذف هو والعباس ابن عتبة ابن أبى لهب ، فاجتمع فى مصر بخصوم عثمان وواليه عليها ، فلم يزالوا به حتى ضموه إليهم فى الثورة على عثمان ، فلم يرجع المدينة كما رجع إخوانه الثلاثة ، وكان عليه أن يرجع إليها ويخبر بما سمعه من خصوم عثمان وواليه على مصر ، ليرى عثمان فيه رأيه إن ظهر أنه حق .

ولم يكتف عثمان بهذا بل أرسل إلى الناس فى الأمصار يخبرهم أنه سيجمع الولاة بالمدينة فى موسم الحج القادم ، فمن كانت له ظلامة فليرفعها إليه فى هذا الموسم ، فلما حضر الولاة لم يتقدم أحد بالظلامة منهم ، فعقد عثمان مجلساً جمع بينهم لتقليب وجوه الرأى فى هذه الثورة التى ظهر كذب أصحابها ، فأدلى كل وال برأيه ، ولما انتهوا من الإدلاء برأيهم قال لهم :

« قد سمعت كل ما أشرتم به ، ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن ، فنكفكفه باللين إلا فى حدود الله ، فإن فتح فلا يكونن لأحد علىَّ حجة ، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيراً[1] إن رحى الفتنة دائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا » .

فهذا عثمان على حقيقته فى تصرفه على أنه محاسب أمام الناس ، لا على ما يذهب إليه الأستاذ طه حسين بغير حق ، من أنه كان يرى فيما يظن

---

(١) أى لم أقصر فى الخير لهم .

أنه لم يكن محاسباً أمامهم ، ليلحقه بأولئك الملوك الذين كانوا يرون أنهم أصحاب الحق المقدس ، وأنهم ظل الله فى الأرض ، ولم يكن لعثمان ولا لغيره أن يجترىء على هذا والإسلام لا يزال غضاً طرياً ، ولا يزال أصحاب السبق فى الإسلام يقومون بتبليغ رسالته ، ويقفون دون إدخال مثل هذه البدعة فيه .

فأما قول عثمان : « ما كنت لأخلع قميصا قمصنيه الله عز وجل » وقوله « لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أنزع سربالا سربلنيه الله عز وجل » فليس سبيلهما ماذهب إليه الأستاذ طه حسين من حملهما على نظرية الحق الإلهى أو الحق المقدس ، وإنما هو على أسلوب القرآن من نسبة كل شيء إليه تعالى وإن كان للخلق كسب فيه ، لأن كل شيء بقدره فى قديم علمه وإرادته وقدرته ، وحينئذ لا يمنع هذا أنه يرى أنه أخذ الخلافة باختيار الناس له ، وأنهم أصحاب الحق فيها ، يعطونها باختيارهم لمن يشاءون ، ويصرفونها باختيارهم عمن يشاءون .

وإنما امتنع أن يجيب أولئك الثائرين إلى ماطلبوه من عزل نفسه عن الخلافة ، لأنهم كانوا أولا متجنين عليه وعلى ولاته ، كما ثبت من شهادة من بعثهم لتحقيق شكاويهم ، ولأنهم كانوا ثانياً قلة لاتذكر بين جمهور المسلمين ، ولأنهم كانوا ثالثاً من ذيول النـاس الذين لا يصح التعويل عليهم ، ولأنهم كانوا رابعاً يريدون إكراه النـاس بالقوة على عزله ، وعزل الخليفة لا بد أن يتم بالشورى كما قام بها ، ولابد أن تكون هـــذه الشورى من أهلها الذين يملكون تولية الخليفة وعزله .

الخليفة الأول

أبو بكر الصديق

أبو بكر وخلافته

التعريف بأبي بكر :

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر التيمي ، وكان يسمى قبل الإسلام عبد الكعبة ، فلما أسلم سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وكان يلقب عتيقاً لبياض لونه ، أو لأن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إليه يوماً فقال « هذا عتيق الله من النار » ولعله استحق هذا لكثرة من أعتق من الموالى الذين أسلموا ، وكان أولياؤهم من المشركين يعذبونهم على إسلامهم ، فكان أبو بكر يفتديهم منهم بماله ويعتقهم .

وتيم التي ينتسب إليها أبو بكر هي تيم قريش ، لأن جدها الأعلى تيم بن مرة بن كعب ، فهو يلتقي في النسب النبوي بهذا الجد الأعلى . والتيم في اللغة العبد ، وهو يطلق على قبائل في العرب غير تيم قريش ، كتيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، وهم من جديلة طيء ، وإليها ينسب المعلى التيمي الذى نزل به امرؤ القيس الشاعر حين طلبه المنذر بن ماء السماء فأجاره ، فقال فيه :

كأني إذ نزلت على المعلّى   نزلت على البواذخِ من شمام
أقرحشا امرىء القيس بن حُجرٍ   بنو تيم مصابيح الظلام

ومنها تيم بن قيس بن ثعلبة بن عكابة ، وتيم الله فى النمر بن قاسط ، وتيم بن غالب بن فهر من أجداده صلى الله عليه وسلم ، وفى بكر تيم بن

شيبان بن ثعلبة ، وفى ضبّة تيم اللات ، وتيم بن ضبة ، وفى الخزرج تيم اللات ، فهؤلاء كلهم فى قبائل العرب يقال لهم تيم .

وقد عمل أبو بكر حين بلغ فى التجارة ، وكان بزازاً يبيع الثياب . فربح فى تجارته ربحاً عظيما ، وكان لقومه بنى تيم فى قريش أمر الديات والمغارم ، فآل فى الجاهلية إلى أبى بكر حين نبه أمره فى تجارته ، ومن يلى هذا فى قريش كان إذا احتمل منه شيئاً فسألهم صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإذا احتمل غيره خذلوه ، وقد آل هذا إلى أبى بكر فى حياة أبيه أبى قحافة ، مما يدل على أنه لم يصل إلى هذا فى صدر شبابه إلا بصفات عظيمة امتاز بها على غيره ، وجعلت قومه يؤثرونه بذلك على أبيه .

ويذكر المؤرخون من صفاته أنه كان أبيض اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، عارى الأشاجع ، إلى غير هذا من صفاته الجسمية .

كما يذكرون من صفاته النفسية أنه كان رضىّ الخلق ، رقيق الطبع . ذا عقل رزين . لا يغلبه الهوى . ولا تملكه الشهوة . وكان لرزانته وحسن رأيه ورجاحة عقله لا يشارك قومه فى كثير من عقائدهم وعاداتهم . فكان لا يشرب الخمر كما كانوا يشربون ، وكما كانوا يدمنون شربها ، وكان مع هذا نسابة ، حسن الحديث ، لطيف المعاشرة ، مألفاً لقومه ، محبباً سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته .

وكان بلوغ أبي بكر هذا المبلغ فى صدر شبابه مما جعله يعجل بالزواج فيه . فتزوج فيه قتيلة بنت عبد العزّى ، فولدت له عبد الله وأسماء ، وتزوج بعدها أم رومان بنت عامر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة ، وكان هذا قبل إسلامه ، فلما أسلم وهاجر إلى المدينة تزوج حبيبة بنت خارجة فولدت له أم كلثوم ، وتزوج بعدها أسماء بنت عُميس ، فولدت له محمداً .

وما إن ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته حتى كان أسبق رجال قومه إليها ، لأنه أدرك صدقها لأول ظهورها براجح عقله ، وحسن استقامته ، فعاشرها من نشأتها إلى نهايتها ، وكان أحسن الصحابة فهماً لرسالتها ، وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم له هذا الفضل ، فكان يقدمه فى أموره ، ويعرف له حسن رأيه ، مع أنه كان أصغر منه بنحو ثلاث سنين ، ثم زاد فيما بينهما من الرابطة زواجه بابنته عائشة بعد الهجرة إلى المدينة ، لأنها كانت خير نسائه على صغر سنها فهماً وعلماً وفضلا .

فإذا كان بعد هذا كله قد وقع اختيار المسلمين عليه ليكون خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، فإنه كان جديراً بهذه الخلافة ، لسنه ، ورجاحة عقله ، وسابقته فى الإسلام ، وحسن فهمه لرسالته .

دولة الخلافة والدول القديمة والحديثة :

اختار المسلمون اسم الخليفة لأبي بكر دون غيره من الأسماء التى كانت تطلق على رؤساء الدول ، كاسم الملك ونحوه من الأسماء ، لأنهم

أرادوا بذلك نظاماً فريداً بين دول العالم ، نظاماً يشعر من قام فيهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن أمره إنما هو خلافة عنه باختيارهم ، وليس ملكا يستبدّ به دونهم ، كما كان الشأن في دول العالم المعاصرة لهم ، لأنهم أصحاب الشأن في خلافته ، وهم مصدر السلطة فيها ، وهم الذين يختارون الخليفة ، وهم الرقباء عليه بعد اختياره ، فلا يتصرف في أمرهم إلا بمشورتهم وبما فيه مصلحتهم ، وإذا انحرف عن هذا فلهم من الحق في عزله مثل ما لهم من الحق في اختياره ، لأن من يملك حق اختيار الخليفة يملك حق عزله .

فهذا ما فهمه المسلمون من اختيار اسم الخليفة لأبي بكر ، وهذا هو ما فهمه أبو بكر منه حين اختاروه له ، وحين خطب فيهم بعد بيعته به فقال : « إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

ثم أتبع القول بالفعل . فسار بين المسلمين كما كان قبل الخلافة وكأنه واحد من عامتهم . وليس خليفة عليهم ، وكان منزله بالسنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة على مسافة من المدينة . فأقام فيه ستة أشهر بعد ما بويع له ، وكان يغدو على رجليه إلى المدينة بنفسه . وربما ركب فرسه ، فيصلي بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى السنح وحده كما غدا إلى

المدينة ، فإذا غاب لعذر صلى عمر بن الخطاب بالناس إلى أن يحضر .

وكان يغدو كل يوم إلى السوق بعد أن يصلى الصبح بالناس ، فيبيع ويبتاع كما كان يفعل هذا قبل الخلافة ، وكان له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما رعيت له ، وكان يحلب للحى بالسنح أغنامهم قبل الخلافة ، فلما بويع بها قالت جارية منهم : الآن لا يحلب لنا منائح دارنا (١) . فسمعها فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرّ بى ما دخلت فيـــه فيه . فكان يحلب لهم بعد خلافته كما كان يحلب لهم قبلها ، ولم يكن يفعل هذا وحده لهم ، بل كان يقوم بخدمة من يحتاج للخدمة منهم ، حتى روى أبو صالح الغفارى أن عمر كان يتعهد امرأة عمياء فى المدينة بالليل ، فيقوم بأمرها ويقدم لها ما تحتاج إليه ، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ، ففعل ما أرادت ، وقضى لها حاجتها ، فرصده يوماً فإذا هو أبو بكر كان يأتيها ويقضى أشغالها سراً وهو خليفة ، فقال عمر له : أنت هو لعمرى .

وقد رأى بعد تلك المدة التى أقامها بالسنح أن يتحول إلى المدينة ليكون بين أهلها ، ويرعى أمورهم قريباً منهم ، ولا يضيع وقت من زمنه فى ذهابه إليهم ورجوعه إلى منزله بالسنح ، ثم قال حين تحول إلى المدينة : ما تصلح أمور الناس مع التجارة ، وما يصلح إلا التفرغ لهم ، والنظر فى شأنهم . فوافقه الناس على ما أراد من ترك التجارة ، وفرضوا له فى نظير تفرغه لشأنهم ستة آلاف درهم فى كل سنة ، وهى

---

(١) منائح : جمع منوح وهى الناقة التى تدر فى الشتاء بعدما تذهب ألبان الإبل

تساوى الآن عشرين ومائة جنيه مصرى ، وقيـــل إنهم فرضوا له ما يكفيه ولم يقدروا له شيئاً .

فكان يأكل مثل ما يأكل الناس من جريش الطعام [1] ، ويلبس مثل ما يلبس الناس من خشن الثياب ، حتى روى أن زوجتـه اشتهت حلواً ، فقال لهـا : ليس لنا ما نشتريه به . فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا عدة أيام ما نشـتريه به . فقال لهـا : إفعلى . ففعلت ذلك حتى اجتمع لها فى أيام كثيرة شىء يسير ، فلما عرفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فردّه إلى بيت المال ، وقال : هذا يفضـل عن قوتنا . ثم أسقط من نفقته ونفقة أهله بمقدار ما نقصت كل يوم ، وغرمه لبيت المال من مال كان له . بل قيل : إنه أمر حين حضرته الوفاة أن يرد جميع ما أخذ من بيت المـال لنفقته بعد وفاته ، وكان قد مكث فى الخـــلافة سنتين وثلاثة أشهر .

وكان أبو بكر يفعل هذا كله بنفسه وأهله وبيت المال معه فى داره ، وكان يتولاه له أبو عبيدة بن الجرّاح ، فلمـا كان مقيما بالسنح خارج المدينة خافوا على بيت المـال فى داره ، فقيـل له : ألا تجعل عليه من يحرسه ؟ فقال : لا . لأنه كان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى فيه شىء ، ولمـا انتقل إلى المدينـة نقل بيت المـال فى داره بهـا ، وكان يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسـلام ، وبين الحر والعبد ، وبين الذكر والأنثى ، فقيل له : ليتقدم أهل السبق على منازلهم . فقال : إنما أسلموا لله ، ووجب أجرهم عليـه ، يوفّيهم ذلك

---

(١) جريش الطعام : خشنه .

فى الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ . وكان يشترى الأكسية ويفرقها على الأرامل فى الشتاء ، حتى إنه لما توفى وقام عمر بعده جمع الأمناء على بيت المال وفتحه ، فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار سقط من غرارة [1] ، فترحموا عليه .

وروى أنه لما حضرته الوفاة حضرته عائشة ابنته وهو يعالج الموت . فتمثلت :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان ثم قال : ليس كذلك ، ولكن [2] (جاءت سكرة الموتِ بالحقّ ذلك ما كنتَ منه تحيد) إنى قد نحلتك حائط كذا [3] وفى نفسى منه شىء فرديه على الميراث . فأسرعت فردته ، فقال : إنما هما أخواك وأختاك . فقالت : من الثانية ؟ إنما هى أسماء . فقال : ذات بطن خارجة — زوجته — وكانت حاملا فولدت له أم كلثوم بعد موته ، ثم قال لها : أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهما ، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم [4] ولبسنا من خشن ثيابهم ، وليس عندنا من فىء المسلمين إلا هذا العبد ، وهذا البعير ، وهذه القطيفة ، فإذا مت فابعثى الجميع إلى عمر .

---

(١) الغرارة : العدل من صوف أو غيره نحو ما يعرف الآن بالزكيبة .
(٢) ق ١٩ س ٥٠
(٣) الحائط : البستان
(٤) جريش طعامهم : خشنه

فلما مات بعث الثلاثة إلى عمر كما أوصى ، فلما رآهم عمر بكى حتى سالت دموعه إلى الأرض ، وجعل يقول : رحم الله أبا بكر ، لقد أتعب من بعده ، وجعل يكرر قوله . ثم أمر برفعهم إلى بيت المال ، فقال عبد الرحمن بن عوف : سبحان الله ! تسلب عيال أبى بكر عبداً وناضحاً وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم ؟ فلو أمرت بردها عليهم . فقال عمر : لا ، والذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لا يكون هذا فى ولايتى ، ولا يخرج أبو بكر منه وأتقلده أنا .

فهذا كان حال أبى بكر فى خلافته وذات نفسه وأهله من أولها إلى نهايتها ، ولا عجب بعد هذا أن يتولاها فيقول أبو عبيدة بن الجرّاح له : أنا أكفيك المال . ويقول عمر بن الخطاب له : أنا أكفيك القضاء . فيمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان يتقاضيان إليه ، وليت شعرى علام يتقاضى الناس وقد ولوا أبا بكر ليكون رئيساً عليهم ، فنظروا فإذا هو بعد ولا يته خادم لهم ، ونظروا فإذا هم لم يستبدلوا بنبوة حكومة ، وإنما استبدلوا بنبوة خلافة تكاد تكون نبوة ، إذ لا فرق بينهما إلا انقطاع الوحى . فإذا كان رئيسهم يعاملهم على أنه خادم أمين لهم ، فلم لا يكون بعضهم خداماً لبعض؟ولم لا يكون بعضهم أمناء فى حق بعض؟ ولم لا يجعلونه مجتمعاً مثالياً تكون الحكومة فيه رمزاً لا حقيقة ؟ لأنه لم يكن مع هذه المثالية الكاملة فى حاجة إلى حكومة فيما بين أفراده ، لأن كل فرد منها يعدّ نفسه جزءاً من هذه الحكومة ، ويقيم من نفسه رقيباً عليها بدل رئيسه ، لأن من أقامه رئيساً عليها جعل نفسه خادماً لا حاكما ، فليكن هو الحاكم على نفسه بدله . ولينتظر عمر أن يتقاضى إليه اثنان

ماشاء أن ينتظر ، فإنهم قد تقاضوا إلى أنفسهم فيما بينهم ، ولم يكونوا بعده فى حاجة إلى قضاء عمر أو غير عمر .

وإنا لنظلم خلافة أبى بكر إذا وضعناها بجانب الدول القديمة والمعاصرة لها ، لأن ملوكها من الأكاسرة والقياصرة وغيرهم كانوا يتخذون رعاياهم عبيداً لهم ، ويجعلون أنفسهم آلهة وأشباه آلهة عليهم ، فاستأثروا بكل شيء فى الدولة يصرفونه فى ملذاتهم وشهواتهم ، وقسموا الرعية إلى طبقات بعضها فوق بعض ، فلطبقة الأشراف كل شيء فى الدولة بعد أولئك الملوك ، ومن دونهم من الطبقات لا يصلون إلى فتات موائدهم ، وإنما هو الفقر المدقع الذى لا يجدون فيه القوت ، ولا يجدون فيه المسكن ، ولا يجدون فيه الملبس ، وإنما هو الجوع والعرى ، والذلة والمسكنة ، والحرمان من نعيم الحرية ، والنزول دون شرف الإنسانية . لأنهم كانوا يدخلون فى ملك كل صاحب إقطاع من أولئك الأشراف . فيعملون له فيه من غير أجر ، ولا ينتظرون يوماً يتخلصون فيه من ذلك الرق ، وإنما هم وإقطاعهم سواء فى ذلك الرق الأبدى .

وإنما يمكن أن نضع أرقى الدول الحديثة بجانب خلافة أبى بكر ، لنوازن بينهما فى نظام الحكم فيهم . فنجد أن أرقى الدول الحديثة هى التى يكون لها مجالس نيابية يختارها الناس لتنوب عنهم فى الرقابة على حكوماتها . فتجتمع لذلك فى أوقات معلومة من كل سنة ، لتحاسب الحكومة فيها على أعمالها ، ثم تتركها لتعمل على وفق ماشرعت لها ، إلى أن تعود إلى الاجتماع فى هذه الأوقات المعلومة من السنة الجديدة .

وهذا نظام حديث يقرّه الإسلام ، لأنه يدخل فيما أمر به من الشورى

فى الحكم . ولكن المسلمين على عهد أبى بكر لم يكونوا فى حاجة إلى هذا النظام الحديث فى الشورى . وهو النظام الذى تقوم فيه مجالس نيابية تكون وسيطة بينهم وبين حكوماتهم ، لأن أبا بكر كان بينهم فى كل وقت ، ولم يكن بعيداً عنهم فى وقت من الأوقات . إذ كان يجلس إليهم ولا ينأى بنفسه عنهم ، ثم يغدو ويروح بينهم كأنه واحد منهم . وهذا إلى الاجتماعات الدينية التى تجمعه بهم كل يوم للصلاة خمس مرات ، وإلى الاجتماع الأكبر فى كل يوم جمعة لصلاتها من كل أسبوع ، ويمتاز بخطبته التى تعرض فيها شؤونهم ، ويكون لكل واحد الحق فى محاسبته على ما يقوله فيها ، فيخضع فيها لما يقولون ، وينزل فيها على ما يرون . وكانت هذه مجالس عامة بجانبها مجالس سياسية خاصة من أصحاب الرأى من كبار الصحابة : كعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وأشباه هؤلاء من كبار الصحابة .

فقد كان أمثال هؤلاء الأصحاب يجتمعون بأبى بكر ، ويشاركونه فى الرأى ، فيكون رأيه معهم كرأى واحد منهم . فإما اجتمعوا على رأى من الآراء . وإما أخذوا برأى أكثرهم . على ما سنه النبى صلى الله عليه وسلم لهم . وقد كان يكتب له من هؤلاء الأصحاب على بن أبى طالب . وزيد بن ثابت ، وعثمان بن عفان . فإذا لم يكن واحد منهم كتب له من يحضر مجلسه ، لأن هؤلاء الكبار كانوا يكتبون له متطوعين بكتابتهم . وعلى أنهم شركاؤه فى الرأى ، ونصحاؤه فى الحكم ، إذ كانت دولة ناشئة على الفطرة التى نشأ الإسلام عليها ، فكان كل من يمكنه أن يقدم لها مساعدة قدمها لها بسماحة نفس ، وطمعاً فى ثواب الله

تعالى ، لا فى نظير شىء من أمور الدنيا . حتى تنهض بتعاونهم فى شؤونها . وتنجح فى تأدية رسالة الإسلام التى قامت لتبليغها ، ولتحقيق مثلها العليا فى الحكم .

وقد آن بعد التمهيد بهذا كله أن نتكلم على السياسة الداخلية والسياسة الخارجية فى خلافة أبى بكر ، وإنما مهدنا لها بهذا كله لأنهما قاما على أساسه من مراعاة قواعد العدل والإنصاف . وكان له أثره فى توجيههما نحو السياسة البريئة التى يقصد بها خير الناس فى حزم ، وطهارة نفس ، وتحرٍّ للعدل ، وقصد للمصلحة ، على نحو ما سنه فيها النبى صلى الله عليه سلم .

السياسة الداخلية فى خلافة أبى بكر

١ ــ حرية المعارضة

معارضة سعد بن عبادة وعشيرته :

سبق ما كان من محاولة الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة المبايعة لسعد ابن عبادة من الخزرج ، وأنهم كادوا يجمعون عليه لولا أن لحقهم فيها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فلم يزالوا بهم حتى صرفوهم عن مبايعته إلى مبايعة أبى بكر ، وكان أول من استجاب لأبى بكر منهم بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير من الخزرج ، فلما سبق بشير إلى مبايعة أبى بكر قال له الحباب بن المنذر : أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ فقال له : لا والله ، ولكننى كرهت أن أنازع القوم حقهم . فلما رأى الأوس مبايعة بشير لأبى بكر تبعوه فى المبايعة له ، لأنهم لم يكونوا متحمسين لمبايعة سعد مثل قومه من الخزرج ، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه ، ولم يجد الخزرج إلا أن يتابعوا الأوس فى المبايعة لأبى بكر .

ولم يتخلف عن المبايعة لأبى بكر من الأنصار إلا سعد بن عبادة وبعض عشيرته ، فقد خرج من السقيفة إلى داره ولم يبايع ، وبقى فيها

ياأماً معتزلا للناس ، فأرسل إليه أبو بكر ليبايع وأخبره بأن الناس قد بايعوا ، فقال : لا والله ، حتى أرميكم بما فى كنانتى ، وأخضب سنان رمحى ، وأضرب بسيفى ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى ، ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى .

فقال عمر لأبى بكر : لا تدعه حتى يبايع .

فقال بشير بن سعد : إنه قد لج وأبى ؟ ولا يبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ، ولا يضركم تركه ، وإنما هو رجل واحد .

فتركه أبو بكر وسمع لمشورة بشير بن سعد ، لأن الإسلام لا يأخذ الناس بالقهر إلى أمر دينى أو سياسى من أموره ، بل يترك الناس أحراراً فيما يرونه مما يخالفون فيه جماعتهم ، ما لم يصر بهم هذا إلى مجاوزة حرية الرأى بإثارة الفتنة بين الجماعة ، ومحاولة تأييد الرأى بالقوة ، فإن من يفعل هذا يجب أن يردّ إلى الطاعة بمثل القوة التى لجأ إليها ، حتى يستقر أمر الناس ويمكنهم أن يتفرغوا الشؤون دنياهم وأخراهم .

وقد بقى سعد بن عبادة مصراً على رأيه إلى أن أدركته الوفاة فى خلافة عمر بعد أبى بكر ، فلم يحاول عمر إكراهه على المبايعة له بعد أن صار الأمر إليه ، وهو الذى أشار على أبى بكر أن يكرهه على المبايعة له كما سبق ، لأنه رأى أن الحق فيما أشار به بشير بن سعد ، وأن من حسن السياسة أن يترك الناس أحراراً فى المبايعة بالخلافة ، لتكون مبايعة حقيقية لا صورية ، ولا تكون مثل ما صار الأمر إليه فى مبايعة ملوك بنى أمية وبنى العباس بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين .

معارضة علي وأنصاره :

لما بايع الناس لأبي بكر تخلف أيضا علي بن أبي طالب وبنو هاشم والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله — وهو من تيم قوم أبي بكر — وقال الزبير : لا أغمد سيفاً حتى يبايع علي . فقال عمر : خذوا سيفه واضربوا به الحجر . ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة فبايعوا كغيرهم ، وقيل : إن علياً لما سمع بيعة أبي بكر خرج في قميص ماعليه إزار ولا رداء عجلا حتى بايعه ، ثم استدعى إزاره ورداءه فتجلله . وقيل إن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، أردت أن تشق عصا المسلمين ! فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله : فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً . فدعا به فجاءه فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين ! فقال : لا تثريب ياخليفة رسول الله : فقام فبايعه .

وقيل : إن عمر ذهب في جماعة بعد بيعة أبي بكر إلى بني هاشم ، فوجدهم مجتمعين في بيت علي ، فطلب إليهم أن يبايعوا فأبوا ، وقال علي : لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم ، وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة ، فإذن أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله

حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال عمر : إنك لست متروكا حتى تبايع .

فقال له علي : أحلب حلباً لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غداً ، والله ياعمر لا أقبل قولك ولا أبايعه .

فقال أبو عبيدة لعلي : يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالا واضطلاعا ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق ، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

فقال علي : الله الله يامعشر المهاجرين ، لاتخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله يامعشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به ، لأننا أهل البيت . ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، فتزدادوا من الحق بعداً .

فقال بشير بن سعد من الخزرج : لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك ياعلي قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلفت عليك .

فقال له علي : أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟

وأيدته زوجته فاطمة فقالت : ماصنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغى له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه وطالبهم . .

فانصرف عمر وجماعته إلى أبى بكر فأخبروه بما جرى بينهم وبين على ، فرأى أن يتركه ولا يكرهه هو ومن تخلف معه على بيعته ، كما لم يكره سعد بن عبادة ومن تخلف معه عليها .

ومكث على يدعو الناس فى هدوء إلى بيعته ، وكان يستعين على هذا بزوجته فاطمة ، فحملها على دابة ليلا فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار ، فكانت تسألهم النصرة ، فيقولون لها : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أن زوجك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به .

وجرى الأمر فى هذا بين أبى بكر وعلى مجرى كريما ، فلا يكرهه أبو بكر على بيعته ، ولا يحاول هو أن يتجاوز دعوة الناس إلى بيعته بالحسنى ، حتى إن أبا سفيان بن حرب لما رأى اجتماع الناس على أبى بكر انصرف عنهم وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم ، يا آل عبد مناف ، فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان ؟ : على والعباس ، ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش ؟ ثم قال لعلى : أبسط يدك أبايعك ، فوالله لأملأنها عليهم خيلا ورجلا . فأبى على أن يبسط يده ، فتمثل بشعر المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد[1]
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

(١) العير : الحمار .

فزجره علي وقال له : والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة ، لا حاجة لنا إلى نصيحتك . فأبى علي أن يقبل هذه البيعة من أبي سفيان ، لأنه رأى أن تكون بيعة بحد السيف ، لا بالإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة .

وبمثل هذا نرد على ما قاله اليعقوبي : أن أبا بكر شاور عمر وجماعة في أمر علي ومن تخلف معه من بني هاشم ، فأشاروا عليه أن يلقى العباس ابن عبد المطلب ويجعل له في الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده ، فيقع الخـــلاف في ذلك بينه وبين ابن أخيه علي ، فيكون ذلك حجة لأبي بكر وأصحابه عليه ، فوافقه أبو بكر على ما أشاروا به ، وذهب إلى العباس في جماعة فقالوا له : لقد جئناك ونحن نريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب ، يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك ، إذ كنت عم رسول الله . فقال لهم العباس : إن كان هذا الأمر لنا فلا نرضى ببعضه دون بعض .

فأبو بكر وعمر أكبر من أن يقعا في هذا الخداع المكشوف ، وقد أبيا على الأنصار أن يكون منهم ومن المهاجرين أميران ، فكيف يرضيان بعد هذا أن يكون للعباس نصيب مع أبي بكر ؟ وكيف يرضيان به له ولا يرضيان به لعلي ؟ وكيف يلجآن إلى هذا وعلي يسلك في دعوته الناس إلى بيعته مسلكا كريماً لا يحوجهما إليه ، لأنه يدعو إلى بيعته بالحسنى ، ولا يحاول أن يثير بين الناس فتنة ، والناس مصرون على بيعتهم لأبي بكر ، فلم ينقض منهم أحد بيعته له ، وظني أن الذين كانوا مع علي تفلت كثير منهم فبايع أبا بكر .

وقد ذكر ابن الأثير أن الصحيح أن علياً تخلف عن بيعة أبي بكر

ستة أشهر ، لأن زوجه فاطمة كانت تناصره فى هذه المدة ، وكان يرجو أن يستجيب الناس لها ، والظاهر إن صح أنه تخلف هذه المدة أنه كان يراها مجتهدة فى دعوة الناس لبيعته ، فلم يشأ أن يخالفها إكراماً لها ، ولا سيما أن مصابها بأبيها صلى الله عليه وسلم كان عظيما ، وقد أثر فيها حتى أدركها المرض ، ولم تلبث بعده إلا ستة أشهر ثم توفيت ، فذهب على بعد وفاتها إلى أبى بكر فبايعه ، ولعله كان هو الوحيد الذى بقى إلى هذه المدة .

وهناك قول آخر أنه لم يتخلف عن بيعة أبى بكر إلا أربعين يوماً ، وهذا هو أرجح الأقوال عندى ، لأن هذه المدة تكفى لتبين رأى الناس ، وما كان له أن يتخلف أكثر منها وهو يرى ما وقع المسلمون فيه من الحرج بعد انتقاض كثير من العرب عليهم ، فلا يصح أن يضعف أمرهم بشغلهم بالمبايعة له ، ولا يصح أن يعتزلهم فيما مضوا فيه من جهاد العرب الذين خرجوا عليهم ، ومما يؤيد هذا ما روى أن أبا بكر لما ولى الخلافة وارتدت العرب خرج أمام الجيش الذى أعده لهم شاهراً سيفه حتى وصل إلى ذى القصة (١) فجاءه على وأخذ بزمام راحلته وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ إنى أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد : شم سيفك (٢) ، لا تفجعنا بنفسك ، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام . فرجع أبو بكر وأمضى الجيش ، واستمع لهذه النصيحة الغالية من على ، وإنه لأجدر به حين يجدُّ الجد

---

(١) ذى القصة : أقرب محل من المدينة على طريق نجد .

(٢) شم سيفك : أغمده .

أن يرى أن امر الإسلام آثر عنده من أمر نفسه ، لأنه إذا تم لأولئك العرب ما يريدون من العودة إلى فوضى الجاهلية لم يكن للإسلام نظام كما قال ، ولم يكن هناك خلافة يرى أنه أحق بها من أبى بكر ، فليكن عنده للإسلام نظامه ، وليبايع أبا بكر ليجتمعوا معاً على إقامة هذا النظام ، ولتكن هذه البيعة لهذه المصلحة العامة ، ولموافقة رأى الجماعة واتقاء الفتنة ، وليكن له مع هذا رأيه فى نفسه أنه أحق بهذا الأمر من غيره ، لأن مبايعته لأبى بكر لهذه المصلحة لا تفيد رجوعه عنه ، وإنما هو ما يقضى به نظام الإسلام من خضوع الأقلية لرأى الأكثرية ، وكان موقف على فى مشاركته للجماعة فى ذلك خيراً من موقف سعد بن عبادة فى اعتزاله لها ، وهذا مما يدل على أن سابقة الإسلام كان لها أثرها فى إدراك أصحابها لرسالته ، وفى العلم بأنها رسالة إيثار لا أثرة ، حتى إنها تصل بمن خالف الجماعة منهم إلى إيثار الخضوع لرأيها على رأيه ، ليستقيم أمر الإسلام ، ويتم له ما يريد من القضاء على الفوضى وإقرار النظام .

٢ ـ التسوية بين طوائف الأمة

التسوية بين الأحرار والأرقاء والموالى :

كان جمهور الأمة فى خلافة أبى بكر من العرب الأحرار ، وكان بينهم كثير من الأرقاء على اختلاف أجناسهم ، فعمل الإسلام كثيراً على تحسين حالهم ، حتى سوّى فى المعاملة بينهم وبين الأحرار ، وقد سبق أن أبا بكر كان يسوّى فى العطاء بين الحُرّ والعبد ، ولم يكتف الإسلام بهذا بل فتح أبواباً كثيرة لإلغاء الرق ، ونظر إليه كأمر مكروه فيه ، لا كأمر مرغوب فيه .

وقد نشأ بترغيب الإسلام فى عتق الأرقاء طائفة أخرى غير الأحرار الخلّص ، وهى طائفة الموالى الذين تحرروا من الرق بالعتق ، وكان الفقر غالباً عليهم ، فشملهم الإسلام بعطفه ، وعمل على تخفيف الفقر عنهم بإيثارهم بالعطاء على غيرهم ، ومساعدتهم على العيش الذى انفردوا فيه عن مواليهم بعد عتقهم لهم ، حتى إنه يروى أن عبد الله بن عمر قدم على معاوية ابن أبى سفيان بعد أن صار الأمر إليه فقال له معاوية : حاجتك ؟ . فقال له : حاجتى عطاء المحرّرين ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جاءه شىء لم يبدأ بأوّل منهم . أراد بالمحررين الموالى ، وذلك أنهم قوم لاديوان لهم ، وإنما يدخلون فى جملة مواليهم ، والديوان إنما كان فى

بنى هاشم ، ثم الذين يلونهم فى القرابة والسابقة ، والإيمان ، وكان هؤلاء مؤخَّرين فى الذكر ، فذكرهم ابن عمر وتشفع فى تقديم إعطائهم ، لما علم من ضعفهم وحاجتهم وتألفا لهم على الإسلام ، والديوان إنما أنشىء بعد أبى بكر ، فيكون حال هؤلاء الموالى فى عهده كحالهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من إيثارهم بالعطاء على غيرهم ، والتسوية بينهم فيه وبين مواليهم ، على أنه كان على ماسبق يسوى بين الحر والعبد ، فيكون المولى أحق بهذه التسوية .

التسوية بين العرب والأبناء من الفرس :

كان الأبناء من الفرس رجالا بعثهم كسرى مع سيف بن ذى يزن يبلغون نحو ثمانمائة رجل، ليستخلصوا له ملك آبائه باليمن من الحبشة الذين استولوا عليه ، فاستخلصوه له من الحبشة ، وحمد العرب لهم ذلك الجميل وذكروه فى شعرهم ، كما قال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، وقيل إنه لابنه أمية :

حتى أتى ببنى الأحرار تحملهم ... إنك لعمرى لقد أسرعت قلقالا (١)

لله درهم من عصبة خرجوا ... ما إنْ أرى لهم فى الناس أمثالا

وكان عليهم رجل منهم يقال له وهرز ، وله فيهم سن وفضل نسب ، فلما مات سيف بن ذى يزن ولى كسرى وهرز على اليمن ، ولما مات وهرز ولى ابنه المرزبان بن وهرز ، ولما مات المرزبان ولى ابنه التينجان بن

---

(١) الخطاب لسيف بن ذى يزن ، وقلقالا : تحركا .

المرزبان . ولما مات التينجان ولى ابنا له ثم عزله وولى باذان ، فلم يزل باذان والياً لكسرى على اليمن حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم . وهو الذى كتب كسرى إليه : إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج من مكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستتبه ، فإن تاب وإلا فابعث برأسه .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكتب اليه « إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا من شهر كذا وكذا » وكان قد مزّق كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليه ليدعوه إلى الإسلام . وبعثه إلى باذان يطلب منه ماسبق ، فتوقف باذان لينظر صدق هذا الخبر ، وقال : إن كان نبياً فسيكون ماقال . فلم يلبث كسرى أن قتل على يد ابنه شيرويه . فلما بلغ قتله باذان أعلن إسلامه وإسلام من معه من الفرس باليمن وبعث رسله بإسلامهم إلى المدينة . فلما بلغوها قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إلى من نحن يارسول الله ؟ فقال لهم « أنتم منا وإلينا أهل البيت » ثم أبقى باذان عاملا له على اليمن كما كان . ولما مات قسم ولايته بين عدة أشخاص بعضهم من أهل اليمن . وبعضهم من أهل المدينة . وأبقى لشهر ابن باذان صنعاء وماجاورها من بلاد اليمن ، وهو الذى قتله الأسود العنسى حين غلب على اليمن فى آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وإنما قيل لهؤلاء الفرس الذين استوطنوا اليمن أبناء لأنهم لما ملكوا اليمن وتزوجوا فى العرب قيل لأولادهم الأبناء . وغلب عليهم هـــذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . وقد سوّى الإسلام بينهم وبين العرب ، وسبق قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم حين قالوا له : إلى من نحن يارسول الله؟ . « أنتم منا وإلينا أهل البيت » ولاتسوية أحسن

من هذه التسوية التي يلحقون فيها بأهل بيت النبوة ، ولهذا كان موقفهم أحسن من موقف كثير من العرب الذين ارتدوا في عهد أبي بكر ، لأنهم أخلصوا للإسلام فيمن أخلص إليه من العرب ، وسيأتي بيان ما كان من حسن بلائهم في حرب الردة باليمن .

التسوية بين المسلمين وأهل الكتاب :

وكان بين المسلمين في جزيرة العرب نصارى من العرب في نجران وغيرها ، وكان بينهم يهود في خيبر وغيرها ، وقد دان باليهودية ذو نواس من ملوك اليمن قبل الإسلام ، ففرضها كرها على أهل دولته وأبى نصارى نجران أن يدينوا بها ، فخدّ لهم الأخدود [1] وحرق فيه من حرق بالنار ، وقتل فيه من قتل ، حتى قتل منهم عشرين ألفاً ، كما جاء في قوله تعالى — ى ٤ — س٨٦ — (قتلَ أصحابُ الأخدود ، النارِ ذاتِ الوقود ، إذْ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلونَ بالمؤمنينَ شهود ، وما نقموا منهمْ إلا أنْ يؤمنوا بالله العزيزِ الحميد) وكذلك كان النصارى من الروم وغيرهم يفعلون بمن يكون في دولتهم من اليهود .

فلما جاء الاسلام أبطل الإكراه على الدين ، ولم يقبل من الناس إلا من يدخل فيه عن طواعية واختيار ، وإذا كان قد جاء بالقتال فإنما هو لحماية الدعوة ممن يريد فتنة الناس عنها لا لإكراههم على الإيمان بها ، فبقي من بقي بين المسلمين في جزيرة العرب من أهل الكتاب على دينه ، حرية تامة ، ومساواة بينهم وبين المسلمين في أمور الدولة ،

(١) الأخدود : الحفر المستطيل كالخندق ، وجمعه أخاديد .

فكان لهم فيها مثل ما للمسلمين ، وعليهم فيها مثل ماعليهم . تؤخذ منهم الجزية للمصالح العامة كما تؤخذ الزكاة من المسلمين لهذه المصالح . ولا فرق إلا أن مايؤخذهم منهم اسمه جزية لأنه يجزى عنهم فيما يطلب لدولتهم ، أما ما يؤخذ من المسلمين فسمى زكاة لأنه جعل تزكية لأنفسهم من رذيلة البخل ، وقد أراد نصارى تغلب فى خلافة عمر بعد أبى بكر أن يسمى مايؤخذ منهم زكاة لاجزية ، فأجيبوا إلى تسميته زكاة أيضا ، لأن فيه تزكية لهم من رذيلة البخل ، فلا يكون هناك مانع من الدين ولا من اللغة فى تسميته زكاة لا جزية .

فانفرد الإسلام فى ذلك العصر بهذا التسامح الدينى التام ، بينما انقلبت الديانات القديمة إلى عداء وتحارب، وبينما انقسم كل دين إلى فرق متعادية متحاربة ، ولم يسلك فى الدعوة إليه إلا أشرف الوسائل ، ولم يقصد من الدعوة إليه إلا أشرف الغايات ، حتى إنه كان يخضع السياسة للدين ، ولم يكن يخضع الدين للسياسة ، كما يفعل كل من أهل أوروبا وأمريكا فى تبشيرهم بالمسيحية ، فإنهم يسلكون فيه سبيل الإغراء بالمال ، وسبيل الخداع بالمدارس التى يؤثرون فيها على عقول الأطفال فى غفلة من أهليهم ولا يقصدون من هذا غاية دينية شريفة ، وإنما يقصدون استمالتهم إلى الرضا بالاستعمار الأوروبى والأمريكى ، ليجعلوا منهم خدماً لهذا الاستعمار الظالم ، ولاينظرون إليهم نظرة عدل ومساواة ، وإنما ينظرون إليهم نظرة جنسية لادينية ، لأنهم لم يقصدوا الدين فى الدعوة إليه . وإنما قصدوا السياسة بالدين ، وهى سياسة استعمارية ورثوها عن آبائهم الوثنيين من الرومان واليونان ، وليست فى شىء من مسيحية عيسى عليه السلام .

٣ ـ الصفايا النبوية

حق الخليفة فى الولاية على الأموال العامة :

الأموال العامة هى ما تسمى الآن بأموال الدولة ، وقد عرفت فى ذلك العهد باسم الصفايا النبوية ، وهى على خلاف ما كان يعرف فى الجاهلية من صفايا الرؤساء ، لأن هؤلاء الرؤساء كانوا يستأثرون بصفاياهم من الغنائم ونحوها لأنفسهم ، وكانوا يملكونها ويرثها عنهم أولادهم . أما الصفايا النبوية فكانت تصطفى من الغنائم ونحوها للمصالح العامة ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يأخذ منها لنفسه إلا قوته وقوت أهله فى سنته ، وكان يقتّر على نفسه فى ذلك حتى إنه كان لا يكفيه وحتى إنه لم يترك لنفسه بعد موته مالا ولا درهما ، وحتى إنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى من أهل المدينة فى شراء بعض قوته . وكان له صلى الله عليه وسلم ثلاث صفايا :

١ ـ صدقته بالمدينة ، وكانت نخلا لبنى النضير أفاءها الله عليه من غير خيل ولا ركاب ، فأعطى أكثرها للمهاجرين بدلا من أموالهم التى تركوها بمكة ، وما بقى منها حبسه لنوائبه ، ولم تكن نوائبه إلا نوائب المسلمين ومصالحهم .

٢ ـ أرض خيبر ، وكان قد قسمها قسمين : نصفها للمسلمين ،

ونصفها لنوائبه وحاجته ، ومافضل ينفقه على فقراء المسلمين وفى مشترى السلاح والكراع .

٣ — أرض فَدَك ، وهى قرية على ثلاث مراحل من المدينة ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب كبنى النضير ، فكان ينفق منها ويأكل ويعود على فقراء بنى هاشم ، ويزوج أيِّمهم ، وينفق على أبناء السبيل .

وبهذا يتبين أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له إلا ولاية عامة على هذه الصفايا ، وأنها لم تكن ملكا له حتى تورث عنه ، لأن الأموال التى تورث عن الشخص إنما هى أمواله الخاصة به ، بخلاف هذه الأموال العامة التى تكون ملكا للدولة .

النزاع بين أبى بكر وفاطمة على الصفايا النبوية :

فلما مات النبى صلى الله عليه وسلم حصل نزاع بين فاطمة وأبى بكر فى هذه الصفايا النبوية ، وتفيد بعض الروايات أنها ذهبت إلى أبى بكر تطالبه بميراثها فيها ، فقال لها : يا بنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة » « فى رواية أخرى أنه قال « لا نورث ما تركناه صدقة ، فإذا تُّ فهو إلى والى الأمر بعدى » ثم قال : والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه فيه إلا صنعته .

وفى رواية أخرى أنها ذهبت إليه فقالت له : إن رسول الله صلى

الله عليه وسلم جعل لى فدك ، فأعطنى إياها . فطلب منها بينة عليها . فشهد لها زوجها على ، فسألها شاهداً آخر ، فشهدت لها أم أيمن ، فقال لها : قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا تجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين . ولم يجبها إلى ما طلبت .

وفى رواية أخرى أنه لما سألها الشهادة جاءت له بأم أيمن ورباح مولى النبى صلى الله عليه وسلم ، فشهدا لها بذلك ، فقال لها : إن هذا الأمر لا تجوز فيه إلا شهادة رجل وامرأتين .

وفى رواية غير هذه الروايات أنها جاءته تسأله فدك ، فقال لها : ما كان لك أن تسأليني ، وما كان لى أن أعطيك .

واختلاف هذه الروايات يسوّغ لى أن أذهب إلى أن النزاع بينهما إنما كان على الولاية على هذه الصفايا أو الصدقات ، لأن فاطمة كانت أكبر من أن تفهم أنها أموال خاصة تورث أو توهب ، وإنما الذى ظنته أنها ترث ولايتها ، لتنفق منها على فقراء بنى هاشم ونحوهم ، والحق أن ولايتها لا تورث أيضاً ، وإنما تنتقل إلى ولاة الأمور واحداً بعد آخر ، ولكل واحد منهم أن يتولاها بنفسه وأن ينيب عنه من يتولاها عنه .

وقد تجدد النزاع فى هذه الصفايا بعد موت أبى بكر واستخلاف عمر ، فذهب إليه على والعباس يطلبان منه نصيبهما فيها ، فدفع إليهما صدقة المدينة ، وأمسك عنهما فدك وخيبر ، وأخذ عليهما عهد الله

وميثاقه أن يعملا فيها بما عمل النبي صلى الله عليه وسلم، وبما عمل أبو بكر، فأخذاها منه على هذا العهد، وكانا نائبين عنه في النظر عليها.

وهي سياسة رآها عمر في خلافته بعد أن ظهر في هذه الصفايا بما فعله أبو بكر أن الحق في الولاية عليها لمن يلي الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ولو أن أبا بكر أعطى ولايتها في خلافته لفاطمة لفهم من إعطائها لها أن هذا حقها دونه، مع أن حكم الدين فيها خلاف ذلك، فلما أثبت حكم الدين فيها بذلك لم يكن هناك بأس في أن ينزل عمر فيها بعده على حكم السياسة، لأن الدين لا يمنع أن يختار الخليفة في هذا من ينوب عنه.

٤ – قتال المرتدين ومانعي الزكاة

محاولتهم إعادة فوضى الجاهلية :

كانت دعوة الإسلام واضحة كل الوضوح : أن يجمع الناس على الإيمان بالله إيماناً خالصاً لا يشوبه أدنى شرك ، وأن ينشىء فى الأرض أمة صالحة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، بعد أن ظهر الفساد بين الناس فى البر والبحر ، وبعد أن انحرفت الديانات السماوية القديمة عن رسالتها ، فدخل فيها من الشرك قليل أو كثير لم يجعل توحيدها خالصاً ،وقد جعل رؤساؤها من أتباعهم عبيدا لهم ، وسلبوهم الحرية فى دينهم ودنياهم .

وقد أمكن النبي صلى الله عليه وسلم أن يجمع العرب على هذه الدعوة الواضحة ، وأمكنه أن يجعل منهم أمة واحدة مستنيرة فى دين الله تعالى ومستنيرة فى دنياها التى جعلت منها نظاماً بعد أن كانت فوضى مستمرة ، وهو من فضل الله تعالى عليه وتأييده له ، لأنه لم يكن لبشر أن يجعل من هذه الفوضى نظاماً ، وأن يحدث هـذا الحدث العظيم فى أقل من عشر سنين بعد الهجرة إلى المدينة .

فقام هذا النظام بعد الفوضى فى حكم سمح كريم ، وفى حرية دينية تامة ، وإن قام بعد حروب طاحنة كان موقف المسلمين فيها موقف المدافعين عن دينهم ، وكان موقف أعدائهم موقف من يريد صرفهم

بالقوة عنه ، ليعودوا إلى الشرك الذى جمدوا عليه ، وكان المسلمون ينتقلون فى هذه الحروب نصر إلى نصر ، حتى بهروا العرب بقوة إيمانهم فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، واجتمعوا عليه من أقصاهم إلى أقصاهم ، وانتهت الحروب عليه بينهم ، ولكن هذه السماحة فى الحكم وفى الحرية الدينية أغرت بعض ذوى المطامع على الكيد للإسلام ، فأخذوا يبثّون فى الناس أن هذه النبوة التى قامت فى قريش لم يكن الغرض منها إلا الوصول إلى هذا الحكم فى العرب ، فكان بعض من أسلم من العرب حديثاً يسمع لهذا التمويه ، ولا سيما القبائل البعيدة عن الحجاز فى اليمن وعُمَان والبحرين وما إليها من البلاد ، وقد بدا لبعضهم أن يدعى النبوة لعله يظفر بمثل هذا الحكم فى العرب أو بعضه .

ومن هؤلاء المتنبئين مُسَيلمة بن حبيب من بنى حنيفة باليمامة ، وقد تنبأ فى آخر عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعث إليه هذا الكتاب مع رسولين :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك — أمّا بعد — فإنى قد اشتركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون » .

فسأل النبى صلى الله عليه وسلم الرسولين حين سمع كتابه : فما تقولان ؟ فقالا : نقول كما قال . فقال لهما : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب إلى مسيلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة

الكذّاب — أما بعد — فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين ».

ولا شك أن كتابه صلى الله عليه وسلم يدل على أنه رسول حقاً ، لأنه جعل الأرض لله لا له ولا لمسيلمة ، فأبعد دعوة الدين عن الطمع فى ملك الأرض ، أما مسيلمة فجعل غرضه من نبوته المزعومة هذا الملك ، ومثل هذا إنما يقصده طالب دنيا لا دين ، على أن إقراره برسالة النبي صلى الله عليه وسلم مع رسالته يدل على تفاهة عقله، وعلى أنه لا يعرف شيئاً من رسالة الاسلام التى أقرّ بها . وإنما هو كذب مكشوف يدل على عقلية تافهة .

ومنهم الأسود العنسى ، وكان كاهناً يقيم بجنوب اليمن، فأخذ يصطنع فنوناً من الشعبذة والحيل يفتن بها العوام ، حتى استهوى بها كثيراً منهم ، وقد اختلف فى زمن ادعائه النبوة ، فقيل : إنه ظهر فى آخر عهده صلى الله عليه وسلم وانتهى فيه ، وقيل : إنه لم يظهر إلا فى عهد أبى بكر .

ومنهم طليحة بن خويلد الأسدى ، وقد تنبأ فى آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتبعه كثير من العرب عصبية لا تدينا ، لأنه لم يكن له دعوة صحيحة يتبعه الناس عليها ، وإنما كان يأمرهم بترك السجود فى الصلاة ويقول : إن الله لا يصنع بتعفّر وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئاً ، اذكروا الله ، اعبدوه قياماً . إلى غير ذلك مما يدل على أنه كان يتعلق بمثل هذه الأمور الدالة على كذبه ، لأنه يعترف بما جاء به الإسلام من الصلاة ،

وللصلاة شأنها فى الإسلام ، ولا يؤثر فى وظيفتها فيه هذا الاعتراض التافه منه على السجود ، لأنه ليس فيه تعفير وجه بالتراب كما زعم .

ومنهم سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية ، وكانت مع عشيرتها بالجزيرة فى أخوالها من تغلب ، فادعت النبوة وتابعها عليها أفناء ربيعة من تغلب وغيرها ، وكانت النصرانية فاشية فيهم ، فتابعوها فى ذلك كيداً للإسلام الذى دان العرب له جميعا ، ثم قصدت اليمامة لتغير على بنى حنيفة قوم مسيلمة ، فخافها وأرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها ، فلما أتاها قال لها : لنا نصف الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذى ردَّت قريش . ثم عرض عليها أن يتزوجها فقبلت وقالت له : أصدقنى . فقال لها : من مؤذنك؟ فقالت : شبث بن ربعى الرياحى . فدعاه وقال له : ناد فى أصحابك أن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد : صلاة الفجر ، وصلاة العشاء الآخرة . ثم صالحها على غلات اليمامة سنة ، تأخذ النصف ، وتترك عنده من يأخذ النصف ، فأخذت نصفها ، وانصرفت إلى الجزيرة ، وتركت عنده من يأخذ النصف الباقى .

فهذا كان شأن من ارتد من العرب وتبع من ظهر بينهم من المتنبئين بهذه الحيل والألاعيب التى تدل على سخافة عقولهم ، وكان منهم من ارتد وعاد إلى ما كان عليه من الشرك فى الجاهلية ، واكتفى بهذا عن الوقوع فى ألاعيب مدعى النبوة ، وكان حاله فى هذا خيراً ممن وقع فى هذه الألاعيب ، لأنها تضم إلى قبح الردة جهلا فاضحاً ، وخداعاً ظاهراً ، وكذباً على الله وعلى الناس ، ومحاولة لجمع العرب على هذا الكذب ،

والكذب حبله قصير ، فلا يلبث أن ينكشف أمره ، ولا يلبث الناس أن ينفضوا من حوله، بعد أن يترك وراءه من الفساد فى الأرض ما يترك، وبعد أن يحدث من الفتن بين الناس ما يحدث .

وكان هناك فريق من العرب وهم من كانت ديارهم قريبة من المدينة يسلك فى ذلك مسلكا ملتويا ، لأنه كان يخاف المسلمين لقربه من المدينة، فأظهر بقاءه على الإسلام ، ورأى أن يمتنع من دفع الزكاة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عبس وذبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة وغطفان وفزارة ، وقد أرسلوا وفوداً منهم إلى المدينة ، فنزلوا على وجوه أهلها ، وتحمّلوا بهم على أبى بكر ، على أن يقيموا الصلاة ، وألا يؤتوا الزكاة ، ولم يكن هذا منهم إلا نفاقاً فى الدين لم يلبث أن انكشف أمره ، لأنهم كانوا عازمين على حرب المسلمين إذا لم يجيبوهم إلى ذلك ، ولا شك أنهم قد انتهزوا فرصة ارتداد العرب فى أطراف البلاد ليقوموا بهذا التعنت ، ولو كانوا مخلصين للإسلام لانضموا إلى أهل المدينة فى حرب أولئك المرتدين ، ولم يعملوا على الكيد لهم بهذا فى تلك الشدة الطارئة عليهم .

ولا شك أن من ثار على الإسلام بعد أن استقر فى بلاد العرب لم يدفعه إلا الحقد عليه بعد أن ظفر بجمع العرب على دين واحد ، وبعد أن ظهر أنه ليس ديناً فقط ، وإنما هو دين ودولة معاً ، ولعلهم كانوا يظنون أنه دين لا دولة ، فآمنوا بما جاء به من الدعوة إلى الخير والبعد عن الشر ، إلى أن رأوا ما أعقب هذا من إقامة العمال بين العرب للقضاء فى مسائلهم ، وجمع الزكاة لدفعها إلى فقرائهم ، إلى غير هذا من مظاهر

الدولة والحكم ، وكان هؤلاء العمال يختارون من الفقهاء بالدين وسياسة الإسلام ، وكان أكثرهم من مهاجرى قريش والأنصار ، لأنهم كانوا أقدر على هذا بما لهم من السابقة فى الدين ، فلما رأوا هذا أخذت الغيرة تغلى فى قلوبهم على قريش وأهل المدينة . ونسوا دعوة الإسلام وغايتها من جمع العرب لحفظ كيانهم ، ورفعهم من الوهدة التى تردّوا فيها بتفرقهم ، وإذا كان أكثر عمالهم من السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، فإنه لظرف اقتضى تقديمهم على غيرهم ، وسيأتى زمن يتغير فيه هذا الحال ، حين تستقر الأمور . وحين يتساوون جميعاً فى فهم رسالة الإسلام ، وحين تنطلق الأمة العربية متحدة متساندة لتبليغ هذه الرسالة ، لا تفرق بينها هذه الأوهام ، ولا تصرفها عن تبليغها تلك المطامع السياسية فى الحكم ، وكان عليهم أن يفهموا أن عمالهم من السابقين إلى الإسلام كان الحكم عندهم تكليفاً . ولم يكن لهم منه غاية فى ذات أنفسهم ، وإنما كانوا يبلغون به رسالة كلفوا بتبليغها إلى غيرهم وكانوا أقدر على تبليغها بحكم سابقتهم ، وهذا أبو بكر الخليفة والعامل الأول من أولئك العمال يقول حين دنا أجله فى ندمه على أشياء فعلها ودّ أنه لم يفعلها : ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قدمت الأمر فى عنق أحد الرجلين — يريد عمر وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً ، وكنت وزيراً . وكانوا كلهم على غراره فى هذه النظرة إلى الحكم . ومن كان مثلهم فى هذه النظرة يجب مساعدتهم فى هذا التكليف ، ولا يصح تعويقهم عن بلوغ غايتهم منه ، ولا عن تحقيق مثلهم العليا فيه .

المشاورة في قتالهم :

فلما حصل من العرب ما حصل من الردة ومنع الزكاة جمع أبو بكر أهل الشورى من المسلمين يستشيرهم في أمرهم ، فاختلفوا في أول الأمر فيما يفعلونه معهم ، ولاسيما في أمر مانعي الزكاة ، وكانوا قد أدركهم من الخوف ما أدركهم ، فرأوا ألا يقاتلوا مانعي الزكاة ، حتى لا ينضموا إلى المرتدين في قتالهم ، بل بدا لبعضهم أن يتركوا العرب وشأنهم ، ويعبدوا الله في المدينة حتى يأتيهم اليقين ، لولا أن وقف لهم أبو بكر موقفاً حازماً ، ولم يهن عزمه أمام تلك الحركة التي تقودها تلك العقول التافهة ، وتقوم على أساس واهٍ من الكذب والتمويه ، ومن الغيرة والحقد . حتى قال ابن مسعود : لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن منّ الله علينا بأبي بكر ، أجمعنا على ألا نقاتلَ على ابنة مخاض وابنة لبون ، وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم .

وكان عمر رأس الكثرة التي ترى ألا يقاتل مانعو الزكاة ، وأن يستعان بهم على عدوهم ، لأنهم يؤمنون بالله ورسوله ، فقال له أبو بكر . والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه .

فقال له عمر : كيف تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

فقال له أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إلا بحقها »

وهنا أدرك عمر أن الحق مع أبى بكر ، فانضم إلى رأيه فى قتال مانعى الزكاة ، وانضم معه من كان على رأيه فى ترك قتالهم . والحق كما سبق أن موقف مانعى الزكاة كان موقف نفاق . وأنهم كانوا يريدون قتال المسلمين مع المرتدين حينما تسنح الفرصة لهم . فكانت المصلحة تقضى بأخذهم بالشدة ، لأن مساكنهم كانت قريبة من المدينة ، وكانت مساكن المرتدين بعيدة عنها . فيجب أن يصفى حسابهم قبل قتال المرتدين ، حتى يكون المسلمون فى مأمن منهم إذا اشتغلوا بقتالهم ، فقد يغيرون على مساكنهم بالمدينة بعد انصرافهم إليهم ، أو يأتونهم من خلفهم فيقعون بين سيوفهم وسيوف المرتدين .

اختيار قتالهم والقضاء على فتنتهم :

لم تكن حركة الردة ومنع الزكاة حركة عامة فى القبائل العربية ، بل كان منها قبائل وفت للإسلام ، وعرفت أن هذه الحركة تقوم على عوامل سياسية لا يصح التأثر بها ، لأنها تنبعث عن طوايا نفسية خبيثة ، ولا يقصد منها ما يقصده الإسلام من إحداث نهضة دينية لا تقف عند حدود بلاد العرب ، بل يرن صداها فى جميع بقاع الأرض ، فلم تكن حركة الردة ومنع الزكاة إلا حركة رجعية يقوم بها رجعيون من العرب لا يريدون جمع كلمتهم ، بل يريدون عودتهم إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية من الانقسام والتفرق ، والظاهر أنه كان مع هذا أيد من أعداء الإسلام تساند هؤلاء

الرجعيين وتعمل على نشر فتنتهم ، ومما يؤيد هذا أن الأسود العنسى حين قام باليمن سار أولا إلى نجران ، فلم يكد يصل إليهم حتى انضموا إليه ، وكانوا نصارى فى عهد المسلمين فنقضوا عهدهم ، وانضموا إلى هذا المشعبذ كيداً لهم ، ولعلهم هم الذين أرسلوا إليه ليبدأ بفتنته بينهم ، وكذلك كان أمر سجاح التميمية ، فإنها بدأت دعوتها بين أخوالها بنى تغلب بالجزيرة كما سبق ، وكانوا نصارى أيضاً فانضموا إليها ، ولعلهم هم الذين دفعوها إلى ذلك كما دفع نصارى نجران الأسود العنسى . فكانوا يشتغلون فى هذه الفتنة من وراء هؤلاء الرجعيين ، لتكون حركتهم فى الظاهر عربية خالصة لا تأثير لعامل أجنبى دينى أو سياسى فيها ، ومع هذا كله لم يمكن هؤلاء الرجعيين أن يظهروا عداءً سافراً للإسلام ذاته ، لأنه كان قد تمكن من نفوس العرب ، ولأن عظمة النبى صلى الله عليه وسلم كانت قد بلغت من نفوسهم ما بلغت ، فلم ينكر هؤلاء الرجعيون رسالته ، بل زعموا أنهم بعثوا رسلا معه ، ولم ينكروا ما جاء به من أصول الدين وفروعه العامة ، بل حاولوا إحداث بعض تغييرات فى جزئياتها كما سبق ، ثم أيدوا حركتهم بأن قريشاً تستخدم الدين فى السياسة ، وتريد به الاستئثار بالأرض دون غيرهم من العرب ، ليغروا بهذه السياسة أتباعهم ، ويثيروا الحقد على قريش فى قلوبهم ، إلى غير هذا من تمويهاتهم وتلبيساتهم .

وقد رأى أبو بكر ما رأى من قتالهم جميعاً بلا فرق بين المرتدين ومانعى الزكاة ، ووافقه على رأيه المسلمون بالمدينة بعد ما كان من تشاورهم عليه ، وكان هو الرأى الصواب الذى تجب المبادرة به قبل أن تستفحل هذه الحركة الرجعية ، وقبل أن تقضى على من بقى بين هذه القبائل المتمردة

على وفائه للاسلام ، وقد قتلت كثيراً منهم ، وبقى بعضهم يناضل عن دينه إلى أن يأتيه المدد من أبى بكر .

فما إن اتفق رأى المسلمين بالمدينة على ذلك حتى بادر أبو بكر بإرسال هذا المدد ، وعلى رأسه أبطال الإسلام من أمثال خالد بن الوليد وغيره ، وإذا كانوا أقل عدداً ممن ســـاروا إلى قتالهم ، فإن فى نفوسهم من قوة العقيدة مالا يمكن أن يقف أمامه ذلك التلبيس والتمويه من مسيلمة وغيره ، وماهى إلا جولات من أنصار الحق حتى قضوا على ذلك الباطل فى مهده ، فقتل من المرتدين ومانعى الزكاة من قتل ، وعاد منهم إلى الإسلام من عاد ، فقبلت توبته وحقن دمه ، وقد قتل اثنان من أولئك المتنبئين ، وهما الأسود العنسى ومسيلمة الكذاب ، وعاد اثنان منهما إلى الإسلام ، وهما : طليحة بن خويلد الأسدى وسجاح التميمية ، فدل عودهما إلى الإسلام ، أوضح دلالة على أنهما كان على علم بكذبهما فى دعوى النبوة . وعلى أن الأسود العنسى ومسيلمة كانا على علم بكذبهما فيها أيضا . وقد عامل الإسلام من عاد إليه من أولئك المرتدين ومانعى الزكاة بسماحته وحسن سياسته ، ولم يؤاخذهم بما أراقوه من الدماء . لأن الواجب فى مثل هذه الفتن أخذ أصحابها بالمسامحة ، لتبرأ الجروح ، وتهدأ النفوس ، ويغطى على الماضى بمساويه ليمضى وكأنه لم يكن ، وينسى الناس أخطاءه ومآسيه . ويعودوا إلى مثل ما كانوا عليه من المحبة والألفة .

وفاء الأبناء من الفرس للإسلام :

وإذا لم يكن من شأن هذا الكتاب تفصيل تلك المواقع التى انتهت بنصر المسلمين . فإن مما يدخل فى موضوعه التنويه بحسن بلاء الأبناء

من الفرس فى تلك الحركة الرجعية ، وبما كان لهم من قوة وعى دينى جعلهم يقفون فى صف المسلمين على بعد دارهم باليمن ، ولا ينطلى عليهم تمويه الأسود العنسى كما انطلى على غيرهم من خلّص العرب . ولا غرو فقد كان أولئك المرتدون بدواً لا يفقهون شيئاً ولا يدركون نبل الدعوة الإسلامية كما يدركها الأبناء من الفرس ، لأنهم كانوا من أمة لها حضارة وآداب ، والإسلام دين حضارة وأدب ، فلم يرضهم أن ينصروا عليه البداوة وأهل البداوة ، وقد لقوا فى ذلك ما لقوا من الأسود العنسى ، حتى تمكنوا أخيراً من قتله غيلة بوساطة زوجة له فارسية سلبها منهم ، وكانت فتنته أشد هذه الفتن .

فإنه لما قام بفتنته وانضم إلى أهل نجران على ما سبق ، قصد بهم إلى صنعاء وعليها شهر بن بازان من الأبناء ، فعصى عليه وقاتله ولم ينطل عليه تمويهه ، كما انطلى على عامة أهل اليمن ، وقد عز عليهم أن يكون لقريش عليهم سيادة بالإسلام ، مع أنهم كانوا سادة العرب وملوكهم فى الجاهلية ، فتمكن الأسود بكثرة جموعه من التغلب على شهر بن بازان وقتله ، وكان له زوجة فارسية تسمى آزاد ، فضمها إلى نسائه وهى كارهة له .

ولما استقر له الأمر فى اليمن استعمل على جنده قيس بن عبد يغوث ، واتخذ له وزيرين من الأبناء : فيروز وداذويه . وكان فيروز ابن عم آزاد التى اتخذها الأسود زوجة له بعد قتل زوجها ، فكان يكثر من الدخول عليها والخلوة بها لأنها ابنة عمه ، فيدرك الأسود من الغيرة عليها منه ما يدركه ، إلى أن ارتاب بأمرها، وبأمر فيروز وداذويه ،

بل بأمر الأبناء من الفرس جميعاً ، لأنه أدرك أن قلوبهم تنطوى على المكر به ، ولم يقتصر سوء ظنه وارتيابه على وزيريه الفارسيين ، بل تعداه إلى قائد جنده العربى قيس بن عبد يغوث ، ثم انقلب سوء الظن منه إلى اتهام صريح لهم بأنهم يأتمرون عليه ، فأنكروا ذلك وأظهروا له البراءة منه ، وأخذوا يعملون فى السر على الانتهاء من أمره .

وقد علم المسلمون فى تلك الأنحاء سراً بذلك، فكتبوا إلى قيس وفيروز وداذويه أنهم على استعداد للسير إليهم لمساعدتهم عليه ، فنصحوا لهم أن يلزموا السكينة والهدوء ، لأنهم كانوا دبروا هم وزوجته الفارسية أن يأخذوه غيلة بليل ، وكان أن سهلت لهم ذلك فدخلوا عليه وقتلوه وهو نائم ، ولما كان الفجر نادوا بأذان الإسلام ، وألقوا برأسه إلى حرسه فذعروا واضطرب أمرهم ، ولم تمض إلا لحظات حتى استسلموا لقيس وفيروز وداذويه ومن قام بالأمر معهم من الأبناء وغيرهم .

فلما انتهت فتنة الأسود العنسى باليمن أقام أبو بكر فيروز على صنعاء وما حواليها ، لأنها كانت قبله لشهر بن باذان الذى قتله الأسود ، بل كان اليمن كله لهؤلاء الأبناء من الفرس ، فلما دخلوا فى طاعة الإسلام أقام النبى صلى عليه وسلم باذان على مثل ما كان عليه قبل إسلامه من الإمرة على اليمن كله ، ولما مات أقام ابنه شهر على صنعاء وحدها ، ووزع ما بقى من إمارات اليمن على بعض المسلمين من العرب . فمضى أبو بكر فى تعيينه لفيروز على صنعاء على هذه السياسة العادلة التى لا تفرق فى الدولة بين طوائفها ، ولا تحابى طائفتها العربية على غيرها من الطوائف ، ولا سيما بعد أن أبدى أولئك الأبناء من الإخلاص

للإسلام ما لم يبده كثير من العرب الذى ارتدوا بعد إسلامهم .

ولكن قيس بن عبد يغوث لم يرضه أن يتخطاه أبو بكر إلى فيروز ، ورأى أنه كان أحق بالولاية على صنعاء لأنه عربى وفيروز فارسى ، ولأن اليمن فى نظره عربى لا يصح أن يتولاه إلا عربى ، وهى نعرة جاهلية لا يرضاها الإسلام ، لأنه دين الإنسانية كلها لا دين العرب ولا فضل عنده لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، وبلاد المسلمين جميعاً فى نظره وطن لهم جميعاً ، ولا يصح أن يكون للتعصبات الوطنية والجنسية أثر فى التفرقة بين أبنائها ، بل لا يصح أن يكون للتعصبات الدينية أثر فى التفرقة بين أهل الأديان فيها ، وهى سياسة جديدة أتى بها الإسلام فى تلك العصور المظلمة ، فلا يفقهها مثل قيس بن عبد يغوث وأشباهه من متنطعة العرب .

فرأى قيس بن عبد يغوث أن يثير عرب اليمن على الأبناء من الفرس ، وأخذ يكتب إلى بعض رؤسائهم فى السر : إن الأبناء نزّاع فى بلادكم ، ونقلاء فيكم ، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأى أن أقتل رؤوسهم ، وأن أخرجهم من بلادنا فتبرأوا . ولا شك أن قيساً يثير بهذا فتنة عمياء فى اليمن أقبح من فتنة الأسود العنسى ، لأن الأسود كان يقوم بحركة دينية ليس فيها تعصب جنسى ، حتى إنه جعل له وزيرين من الأبناء — فيروز وداذويه — كما سبق ، أما قيس فيقوم بهذا التعصب الجنسى الممقوت ، وينسى أن اليمن صار بعد الإسلام جزءاً من دولة إسلامية كبيرة تجمع بلاد العرب كلها ، وأن فيروز الذى ولاّه أبو بكر على صنعاء ليس إلا والياً من ولاتها الذين

يبلغون العشرات ، وقد انقطعت صلة هؤلاء الأبناء بالدولة الفارسية ، وصاروا بعد أن عاشروا العرب وصاهروهم جزءاً من الأمة العربية ، ثم أخلصوا للإسلام أكثر منه ومن غيره من العرب الذين لم يفقهوا رسالته الإنسانية ، فآثروا عليها رجعيتهم البغيضة ، وعملوا على إعادة العرب إلى ظلام الجاهلية .

فلم يستجب إليه العقلاء من أهل اليمن ، وكتب إليه بعضهم : لسنا من هذا فى شىء ، أنت صاحبهم ، وهم أصحابك — يعنون الأبناء — وإنما استجاب إليه الرعاع الذين أفسدت فتنة الأسود العنسى نفوسهم ، وكان بعضهم لا يزال ماضــياً فى ردته وعصيانه ، واجتمع رأيه ورأيهم فى السر على أن يقصدوا صنعاء ، فيأخذوا أهلها فى غفلة ، فلما دنوا منها اجتمع أهلها يتشاورون فيما يصنعون معهم ، وأسرع قيس إلى فيروز ودازويه يستشيرهما أيضاً وهو يخفى ما فى نفســه ليخدعهما ، ثم دعاهما وجشنش من زعماء الأبناء إلى طعام الغداء ، فإذا اجتمعوا إليه أخذهم غيلة . فأتى إليه دازويه قبل فيروز وجشنش فعاجله قيس حين دخل إليه فقتله ، ثم جاء بعده فيروز فسمع الهمس بما جرى لدازويه ، ففر مسرعاً وأخذ معه جشنش ، فركضا بفرسيهما يطلبان جبل خولان حيث أخوال فيروز من عرب اليمن .

فخلت صنعاء وما حواليها لقيس ومن انضم إليه من رعاع الناس . وأخذ ينفذ سياسته الظالمة فى الأبناء ، فأمر بترحيلهم إلى بلاد فارس حتى لا يبقى أحد منهم باليمن ، إلا قليلا منهم انضم إليه ولم يظهر الميل إلى فيروز . ولكن فيروز كان قد تمكن من جمع القبائل التى بقيت

على إسلامها ليحارب قيساً بها ، فخرج بهم قاصداً إلى صنعاء فاستولى عليها ، ورد إخوانه من الأبناء الذين نفاهم قيس ، وقد بعث إليه أبو بكر جيشاً ليساعده على إقرار الأمن في ولايته ، ويحمي هؤلاء الأبناء من أولئك العرب الذين يتعصبون عليهم لأنهم من غير جنسهم ويحقدون عليهم ثباتهم على الإسلام ، وعدم انضمامهم لأولئك المرتدين ، وقد دلوا بهذا على قوة الوعي الديني فيهم ، وكانوا بهذا الطليعة الأولى لمن دانوا من غير العرب بالإسلام عن حسن فهم له ، وعن تقدير لسمو رسالته ونبل مقصده .

السياسة الخارجية فى خلافة أبى بكر

١ ــ مطامع الفرس والروم فى العرب

الحروب الاستعمارية بين الفرس والروم :

ظهر الإسلام والعالم يتنازعه دولتان استعماريتان كبيرتان : دولة الفرس بالشرق ودولة الروم بالغرب ، ويظهر من هذا أن النزاع على الاستعمار قديم بين الغرب والشرق ، ولم يكن لهذا النزاع على الاستعمار مقصد إلا استعباد الأمم الضعيفة ، وإلا الاستيلاء على بلادها للاستئثار بخيراتها ، لأن سياسته كانت قائمة على ما تقوم عليه من إنكار حق الضعيف ، ومن إعلاء سلطان القوة على سلطان الحق ، فكانت الأمم القوية تنظر إلى الأمم الضعيفة نظرة ازدراء واحتقار ، بل كانت تنزل بها إلى أدنى مراتب الحيوان الأعجم ، وترى أنها لا حق لها فى البقاء بأرضها ، ولا فى التمتع بخيرات بلادها .

مطامعهما فى العرب :

وكانت الأمة العربية من الأمم الضعيفة المتخلفة فى ميدان التقدم على ذلك العهد ، مع أنها كان لها ماضٍ مجيد فى التقدم ، وكانت لها دول قديمة قامت فى اليمن والشام والعراق ضربت فى الحضارة بقسط وافر ،

فلما ذهبت دولها القديمة ذهب عمرانها معها ، وغلبت عليها حالة البداوة بعد ذهاب هذا العمران ، فانقسمت إلى قبائل بدوية متنقلة لا تستقر فى مكان، وتتنازع على أمكنة الخصب القليلة التى تظهر هنا وهناك بعد نزول المطر فزادها هذا التفرق والتنازع ضعفاً على ضعف ، وأطمع فيها جيرانها من الفرس والروم ، كل منهما يريد أن تكون له ، ليستعين بهـــا فى حروبه على الآخر ، وكان للفرس نفوذ قوى فى بلاد العراق واليمن ، وكان للروم نفوذ قوى فى الشام وما جاوره من بلاد العرب ، وكانوا يقيمون دولا عربية تابعة لهم ، ليستغلوا بها العرب الذين يقيمونها عليهم ، ويستغلوا بها من يدخل فى نطاقها أو يتشيع لها منهم ، كدولة المناذرة التى أقامها الفرس فى العراق ، وكدولة الغساسنة التى أقامها الروم فى الشام .

فوقعت البلاد العربية كلها فى هذا النفوذ الأجنبى قبيل الإسلام ، وكانت باليمن دولة الحميريين ذات الماضى المجيـــد ، فلم تزل بها هذه الدسائس الأجنبية حتى أضعفتها ، ثم سلط الروم عليها الحبشة فأسقطتها وحكمت اليمن نحو سبعين سنة ، ثم سلطوها على الاستيلاء على مكة التى كان لها مركزها الدينى والتجارى ، وكانت تتوسط طريق التجارة بين اليمن والشام ، لتتصل الحبشة بحلفائها من الروم براً . ويسهل عليها إمدادها فى حروبها مع العرب ، فكانت وقعة الفيل التى انتهت بكارثة إلهية على جيش الحبشة .

فأطمع هذا فيها سيف بن ذى يزن الحميرى ، وأخذ يعمل على استرداد ملك آبائه ، واستعان بكسرى ملك الفرس ، لما يعلمه من

عداوته للروم ومن يدور فى فلكهم السياسى ، ونسى أن للفرس مطامع فى بلاد العرب أيضاً ، وأن ما يعمله من هذا إنما يخلّص اليمن من قبضة الحبشة ليوقعه فى قبضة الفرس ، وقد حصل هذا فعلا ، فإنه لم يكد يسترد اليمن بمساعدتهم حتى وقع فى نفوذهم ، فأقاموه ملكا تابعاً لهم على اليمن ، ولم يقيموا ملكا بعده من آل حمير ، بل أقاموا عليه ولاة من الفرس .

موقف الإسلام من مطامعهما وسياستهما العدوانية :

ولم يرض الاسلام هذا الموقف الذليل من سيف بن ذى يزن وأمثاله من أذناب الاستعمار الفارسى أو الرومى فى بلاد العرب ، ولم يرض للعرب أن يكون بعضهم أذناباً لدولة الفرس ، وبعضهم أذناباً لدولة الروم ، وهو يعدّهم ليكونوا نواة لأمة جديدة تنهض بسياسة جديدة فى العالم ، لا تقوم على أساس السياسة الرجعية لدولتى الفرس والروم ، وهى سياسة استبدادية يشقى بها كل من الشعب الفارسى والرومى قبل الشعوب الضعيفة التى ابتليت باستعمارهما ، لأنها تقوم على أساس التفرقة العنصرية بين الشعوب الحاكمة والشعوب المحكومة ،وعلى أساس التفرقة بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء فى كل شعب،وهذه السياسة الاستبدادية تضيق بكل حرية للشعوب والأفراد ، من حرية دينية إلى حرية سياسية إلى غيرهما من أنواع الحرية .

والسياسة الإسلامية تقوم على أساس جديد يخالف هذا كله ، لأنها تقوم على أساس التسوية العنصرية بين كلّ الشعوب . وعلى أساس التسوية

بين كل الأفراد ، كما قال تعالى فى الآية — ١٣ — من سورة الحجرات (يأيها الناس إنا خلقناكُمْ من ذكر وأنثى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكُمْ عندَ الله أتقاكم إن الله عليم خبير) وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة له « أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها[1] فالناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله تعالى (إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى) الآية » وهو يريد بهذه السياسة الجديدة إظهار أمة مثالية جديدة بين أمم الأرض، تكون خير أمة ظهرت بينها منذ خلق الله العالم، كما قال تعالى فى الآية — ١١٠ — من سورة آل عمران (كنتمْ خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس تأمرونَ بالمعروف وتنهونَ عن المنكر وتؤمنون بالله) وهو فى هذا لم يجعلها خير أمة بعنصرها كما هو أساس التفاضل بين الأمم فى السياسة العنصرية الرجعية ، وهى السياسة الحديثة لأمم أوربا وأمريكا فى عصرنا ، وإنما جعلها خير أمة باستقامتها فى أعمالها ، فإذا لم تستقم فيها لم تكن خير أمة ، ولو بقى لها شكل الأمة الإسلامية ، ولا شك أن هذه الأمة المثالية التى يريدها الإسلام لا يمكن أن تكون ذيلا فى سياستها الجديدة للسياسة الرجعية البغيضة التى تسير عليها دولتا الفرس والروم .

فكان من النبى صلى الله عليه وسلم حين كتب إلى كسرى ملك الفرس وإلى قيصر ملك الروم يبلغهما دعوته أن وقف منهما فى كرامة موقف

(١) العبية : التعاظم والتفاخر ، يريد به تعاظم طبقة الأغنياء على الفقراء .

الندّ للند ، يعرض عليهما دعوته على وفق هذه السياسة الجديدة الكريمة ، فيطلب منهما أن يستجيبا له بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن لم يستجيبا له فإنه لا إكراه فى الدين . وإنما وظيفته تبليغ رسالته للناس ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها . ولم يكن فى كتابه إليهما مايشم منه رائحة طمع فى ملك ، أو مايثير بينه وبينهما شيئاً من العداء . لأن الإسلام يؤثر فى سياسته السلم على الحرب ، ولايبغى منهما إلا أن يعيش الناس فى حرية دينية وسياسية ، لأنه فى ظل هـذه الحرية يمكنه أن يقوم بتبليغ دعوته بالوسائل السلمية ، فلا يعتدى أحد عليها ، ولا تعتدى على أحد ، ولا تطمع فى الشعوب الضعيفة ، ولا يطمع أحد فى شعوبها . وإنما هو تعايش سلمى جديد لا يعتدى فيه شعب على شعب ، ولا يطمع فيه قوى فى ضعيف .

مقابلتهما السياسة الإسلامية السلمية بسياستهما العدوانية :

فكان جواب هذه السياسة السلمية من الإسلام سياسة عدوانية من الدولتين ، ومن أذنابهما فى الأمة العربية ، فمزق كسرى كتاب الدعوة إليه ، وأمر عامله باذان على اليمن أن يقابل هذا السلم بالعدوان على ماسبق وكان حاله فى هذا أحسن من حال أذناب الروم فى العرب من أمراء الغساسنة . فإن أمره فى إيثار العدوان لم يصل إلى قتل رسول الدعوة الإسلامية إليه . أما هؤلاء الأمراء العرب من الغساسنة فقد جاوز الحد فى العدوان ، فقتلوا رسول الدعوة الإسلامية إليهم ، مع أن مثل هـذا الرسول لا يباح قتله فى جميع الشرائع السماوية والوضعية . وهذا إلى أن

بعضاً من عرب الغساسنة آثر الدخول فى الإسلام . فاعتدوا عليه بالقتل أيضاً (١) وانتهكوا بقتلهم له حرمة الحرية الدينية . كما انتهكوا بقتلهم لحامل كتاب الدعوة إليهم حرمة الحرية السياسية .

إصبع الدولتين فى حركة الردة :

ذكرت فيما سبق أن حركة الردة حركة رجعية أثارتها يد الرجعية العربية ، ليعود العرب إلى ما كانوا عليه من فوضى الجاهلية ، وأذكر هنا أنه كان مع هذه اليد الرجعية العربية يد أجنبية خفية تعمل معها على إعادة هذه الفوضى ، ليعود العرب أذنابا لها كما كانوا قبل الإسلام ، ولا يعوزنى الدليل على وجود هذه اليد الأجنبية التى كانت تكيد للإسلام فى بلاد العرب فقد كانت موجودة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنها كانت يداً يهودية ، لأن اليهود كانوا منتشرين بين العرب فى المدينة وما حولها ، وفى غيرها من بلاد العرب ، فكانوا أول من تأثر بظهور الإسلام ، وأول من تنبه إلى أن يقظة العرب به ستقضى على سوء استغلالهم لما كانوا عليه من قبله من الفوضى والجهل ، فانضموا إلى مشركى العرب فى محاربتهم له ، وعملوا كل ما فى وسعهم لإثارتهم عليه ، وقد جازاهم الإسلام على هذا بإجلاء أكثرهم من بلاد العرب إلى الشام . وهذا شأن كل غريب فى وطن يسىء إليه ، ويسوءه أن ينهض أهله ، لأن نهضتهم تقضى على مطامعه فيه .

---

(١) أنظر شرح المواهب اللدنية ج ٤ ص ٤٤

ودليلى على وجود اليد الأجنبية من دولتى الفرس والروم فى حركة الردة أن أصحابها كانوا مجاورين لهم فى أطراف بلاد العرب ، وأنهم لم يدخلوا الإسلام كرهاً ، وإنما دخلوه طواعية واختياراً . فإن آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب كانت غزوة الفتح وما أعقبها من غزوة حنين فى السنة الثامنة من الهجرة ، وكان العرب ينتظرون قريشاً بإسلامهم ، فلما أسلمت بعد فتح مكة تبعوها فى الإسلام ، ودخلوا فيه أفواجاً ، كما قال تعالى فى سورة النصر (إذا جاء نصرُ الله والفتحُ ، ورأيتَ الناس يدخلونَ فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

فمكث هؤلاء العرب على إسلامهم نحو سنتين لا يحركون ساكناً ، بل يرضون بإسلامهم كل الرضا ، إلى أن ظهر بينهم فجأة فى أواخر السنة العاشرة من الهجرة بوادر الفتنة ، وكان هذا فى آخر عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فلابد أنه كانت هناك يد أجنبية خفية تعمل طوال السنتين على إثارتهم ، لأنه لا يعقل أن تكون الحركة من أنفسهم بعد أن كان إسلامهم عن اختيار منهم ، فالاستعمار الأجنبي يترك دائماً وراءه أذناباً له ممن كانوا ينتفعون به ، وممن كان يقيمهم أمراء من العرب ليخضعوهم له ، وهؤلاء الأذناب لا يمكن أن يسكتوا عن إثارة الناس على هذا الحكم الجديد الذى قضى على نفوذهم ، وكان قد بقى من هؤلاء الأذناب من العرب طوائف يعملون لدولتى الفرس والروم فى العراق والشام ، ولا شك أنهم أدركوا أن هذه النهضة الجديدة لا بد أن

يكون لها أثرها فيمن بقي من العرب خاضعاً لهم ولدولتى الفرس والروم بوساطتهم ، فلا بد أنهم عملوا فى حركة الردة أيضاً .

ولا شك أن هذا هو التفسير المعقول لارتداد قوم دخلوا الإسلام باختيارهم ، فإذا هم بعد مضى نحو سنتين على إســـلامهم يغلب عليهم عامل السياسـة المفرقة على عامل الدين الذى جمعهم ، وإذا هم يطلبون مقاسمة النبى صلى الله عليه وسـلم فى الأرض ، فإذا قام أبو بكر بعده بالخلافة قال قائلهم :

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا   فيـا لعباد الله ما لأبى بكر

مع أنه لا نتيجة لمـا يريدونه من الفرقة بعد الجماعة إلا القضاء على أثر الإسلام فى تأليف قلوبهم ، ونشر السلام فى بلادهم ، وإلا أن يعودوا إلى مثل ما كانوا عليه قبله من اعتداء بعضهم على بعض ، ومن الشرك الذى يبيح لهم هذا الاعتداء ، ويزين لهم ما كانوا فيه من الفوضى على عهده ، ولـكنها السياسة الأجنبية التى عملت فى الخفاء على إفسادهم حتى أعمت قلوبهم ، ولأمر ما حاول الفرس فى هذه الحركة إعادة دولة المناذرة بالحيرة ، فلم يكن إلا لأجل تقوية هذه الحركة .

مقابلة الإسلام العدوان بالعدوان لإقرار السلم :

وما كان للإسلام بعد إيثار الدولتين لسياسة العدوان إلا أن يقابل عدوانهم بمثله ، فيسلك سياسة العدوان معهم دفاعاً عن نفسه ، ولا شىء على الإسلام من مقابلة العدوان بالعدوان ، لأن حق الدفاع عن النفس

من الحقوق التى اتفقت عليها الشرائع السماوية والوضعية ، وإنما إثم ذلك على من ابتدأ سياسة العدوان ، وأبى إلا أن يمضى فى سياسته الاستعمارية التى ترى أن القوة فوق الحق ، وتقسم الشعوب إلى شعوب قوية من حقها أن تكون حاكمة ، وإلى شعوب ضعيفة يجب أن تكون محكومة ، ويجب أن تتعب ليرتاح الأقوياء ، وأن تشقى ليسعد الحاكمون ، بل يجب أن يبقى القوى قوياً دائماً ، وأن يبقى الضعيف ضعيفاً دائماً ، لأن القوة عندهم من طبيعة الأقوياء ، والضعف من طبيعة الضعفاء ، فلا يصح لهم أن يتطلعوا إلى ما هو من طبيعة الأقوياء .

وهذه سياسة ظالمة أراد الإسلام أن ينقذ العالم منها بوسائل السلم ، وأن يجعل سلطان الحق فوق سلطان القوة ، لينهض الضعيف من ضعفه ، ويأخذ حقه فى الحياة بجانب القوى ، ويكون مساوياً له فى الحقوق الإنسانية ، فإذا اعتدى عليه فيما يريد من ذلك فإن من حقه أن يدفع هذا الاعتداء عن نفسه ، وأن يمضى فى هذا الدفاع إلى أن يقلّم أظفار المعتدى ، وإلى أن يجعله يرضخ للحق الذى يجعل السلطان للقوة عليه ، ويؤمن بأن السلطان للحق لا للقوة ، فلا يمضى فى حكم الطغيان ، ولا يستمر فى سياسة العدوان ، ولا يجعل الحروب هى الوسيلة لحل مشاكل العالم ، لأن كل ما يحل من المشاكل بالحروب يمكن أن يحل بالسلم ، إذا خلصت النيات ، وتصافت النفوس ، وأوثر الإنصاف ، وجعل السلطان للحق ، ولم يجعل السلطان للقوة .

ولا يريد الإسلام من هذه الحرب الدفاعية غاية دينية من حمل الناس عليه كرهاً ، لأنه لا يصح إسلام من يدخل فيه إلا إذا كان عن

طواعية واختيار وإنما يريد منها غاية سياسية نبيلة هى إقرار السلم فى العالم ، وجعل العلاقة بين دوله وشعوبه علاقة سلم لا حرب ، فإذا خضع لهذا من اعتدى عليه كف عن حربه ، وإذا لم يخضع وركب رأسه إلى أن قضت عليه الحرب كدولة الفرس فهو الجانى على نفسه ، وإذا لم يخضع وجعلها عداوة دائمة للإسلام كدولة الروم فإن ما ترتب عليها من حروب متصلة إلى عصرنا يحمل تبعتها وحده ، لأنه هو الذى آثر سياسة العدوان على السلم .

---

٢ – الحرب بين المسلمين والفرس

احتقار الفرس للعرب قبل الإسلام :

يجب أن نعرف نظرة الفرس إلى العرب قبل الإسلام ، لنعرف من كان المتجنى من الشعبين على الآخر ، ونعرف أن هذا التجنى هو الذى أدى أخيراً بعد ظهور الإسلام إلى قيام الحرب بين المسلمين والفرس ، وإذا أردنا أن نعرف هذا وجدنا فيما دار بين كسرى أبرويز والنعمان ابن المنذر فى أمر الشعبين ما يوصلنا إلى معرفته .

وكان النعمان بن المنذر أتى كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من فضل ملوكهم وبلادهم ما ذكروا . فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى الفرس ولا غيرهم ، مع أن دولته بالعراق كانت تابعة لهم ، ولكن النعمان كان ملكا عظيم القدر ، وكان معتزاً بنفسه وعروبته وإن كان تابعاً فى ملكه للفرس .

فلما سمع كسرى هذا منه أخذته عزة الملك وقال :

« يا نعمان ، لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت فى حال من يقدم علىّ من الأمم ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ، ويقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من

ذلك فى حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها . وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروستها وهمتها فى آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها ، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضم قواصيهم ، وتدبر أمورهم ، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوة ، ومما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع ، لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخية — قبيلة النعمان — التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثاراً وقرى وحصوناً وأموراً تشبه بعض أمور الناس ، ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس » .

فقام النعمان فأزال ما بنفس كسرى ، وأظهر له أنه لا يقصد أمته لأنها لا تنازع فى الفضل . لما أكرمها الله به من ولاية آبائه وولايته ،

ولكنه يقصد غيرها من الأمم ، فرضى كسرى عنه ، وهذا يبين أن الفرس كانوا يضعون العرب فى أدنى مراتب الأمم ، حتى إنهم كانوا إذا أرادوا تشبيههم شبهوهم بالكلاب .

قضاء الفرس على المناذرة وأثره فى قتالهم لقبائل بكر :

ولكن كسرى لم يرض عن النعمان بن المنذر إلا فى الظاهر ، لأنه رأى فيه ملكا طامحاً معتزاً بعروبته ، ورأى شعراء العرب وغيرهم يشيدون بذكره ، وينوّهون بملكه ، فلم يلبث أن عزله وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى ، ثم دعاه إلى المدائن فلما ذهب إليه أمر بقتله . وقضى بهذا على دولة المناذرة فى العراق ، ثم ولى بعد إياس بن قبيصة داذويه الفارسى ، فلم يبق للعرب شأن فى العراق كما كان على عهد المناذرة مع أنه وطن عربى كان جمهرة أهله من العرب ، فصاروا فيه يعملون لدهاقين الفرس الإقطاعيين ، ولا ينالهم من خيراته ما يكفى لقوتهم وكسوتهم ، إلى ما كان ينالهم من الظلم والقهر فى فلاحة هذه الأرض .

وكان النعمان بن المنذر قد أودع أمواله وحريمه عند هانىء بن قبيصة الشيبانى قبل أن يذهب إلى كسرى ، فطلبها كسرى من هانىء بعد قتله للنعمان فأبى أن يعطيها له ، لأنها أمانة عنده وحريمه أولى بها ، ولأنه عربى لا ترضى كرامته أن يسلم حريماً عربياً كان له ملك العراق إلى من يسترقه ويستذله ، فأرسل إليه جيشاً من الفرس والعرب الواقعين فى حكمهم ، وكان يوم ذى قار [1] الذى انتصر فيه العرب على الفرس

(١) موضع بين الكوفة وواسط .

لأن فريقاً من العرب الذين كانوا مع الفرس عرضوا سراً على بنى شيبان أن ينهزموا أثناء القتال ليوقعوا الاضطراب فى صفوف الفرس ، فلما انهزموا كما وعدوا انهزم الفرس معهم ، واتبعتهم قبائل شيبان وبكر تقتل فيهم ولا تلتفت إلى سلب وغنيمة ، وكان لانتصارهم عليهم رنة فرح عند العرب ، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث ، فلما بلغه خبرها قال « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » لأنه بعث عام ذى قار ، وهذا الحديث على قصره يدل على ما كان من قديم تجنّى الفرس على العرب ، وعلى أن العرب لم ينتصفوا منهم إلا فى هذا العام ، وإذا اقترن الشىء بالشىء صح جعل أحدهما من آثار الآخر ، فكان هذا من بشائر بعثه فى العرب .

اتصال القتال بين الفريقين إلى حركة الردة :

وقد تتابعت الحروب بين الفرس وقبائل بكر بعد ظهور الإسلام فى الأقطار العربية التى كانت خاضعة لحكمهم ، من عمان والبحرين والقطيف وهَجر وغيرها ، فلم يزل أذنابهم بها يعملون على إثارتها على المسلمين حتى أثاروها عليهم ، وأعادوا حكمها للفرس والموالين لهم من العرب ، فقامت قبائل بكر تقاتل الفرس كما قاتلتهم حين قضوا على دولة المناذرة بالعراق ، وكان المثنّى بن حارثة الشيبانى يتولى قيادتهم ، وقد سار بهم شمالا فى البحرين حتى استولى على القطيف وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات ، فانتزع هذه البلاد من الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين فيها ، وكان يعمل فيها أيضاً العلاء بن الحضرمى من قِبل أبى

بكر على رأس جيش من أهل المدينة ، فتعاونا على القضاء على فتنة الردة بها ، وقد سار المثنى بعد هذا مساحلا الخليج الفارسى حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون فيما بين نهر دجلة والفرات ، فانضموا إليه وعقدوا عهوداً بينهم .

مساعدة أبى بكر لهم فى تحرير العراق من الفرس :

فلما بلغت أخبار المثنى أبا بكر سأل عنه : من هو ؟ وإلى أى قبيلة ينتسب ؟ فقيل له : إنه من البحرين من بنى بكر بن وائل . وقال قيس ابن عاصم المنقرى عنه : هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى .

وقد اختلفت الروايات فيما فعله أبو بكر لمساعد المثنى فيما أراده من تحرير العراق من حكم الفرس . فقيل إن المثنى جاء إليه وقال له : أمّرنى على من قِبَلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس ، وأكفك ناحيتى .

فجمع أبو بكر أصحابه يستشيرهم فيما طلبه المثنى منه ، واتفقوا على تأميره كما طلب ، فأمّره وطلب منه أن يمضى فيما أراد ، ووعده بأن يرسل إليه مدداً يساعده فى تحرير العراق بعد الانتهاء من حروب الردة .

وقيل : إن المثنى لم يجىء إلى أبى بكر بالمدينة ، بل مضى بجيشه من قبائل بكر فيما بين النهرين كما سبق ، حتى التقى بجيش من الفرس على رأسه هرمز من قوادهم ، فكانت بينهما حروب وصل خبرها إلى أبى بكر ،

فرأى أن يمده بجيش يساعده فى هذه الحروب ، لأنه لا يقوى وحده على الوقوف أمام جيوش الفرس .

الاستيلاء على الحيرة وتحرير العراق :

فأمده أبو بكر بجيش على رأسه خالد بن الوليد بطل حروب الردة لأنه أظهر فيها من البراعة والقتال ما قضى عليها فى قليل من الزمان ، وكان لا يزال باليمامة بعد القضاء على حركة الردة فيها ، وكانت جنوده قد قل عددهم بمن قتل منهم ، وبمن عاد منهم مسرَّحاً إلى قومه بعد الانتهاء من قتال المرتدين ، فطلب إلى أبى بكر أن يمده فأمده بالقعقاع ابن عمرو التميمى ، وقال لمن عجب أن يمده به وحده : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . ثم كتب إلى خالد حين بعثه إليه : استنفر من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تستفتح بمتكاره ، ولا يكن معك أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه .

ثم أمر عياض بن غَنْم أن يسير بجيش إلى دُومة الجندل ، ليخضع من تمرد من أهلها ، ثم يسير منها شرقاً إلى الحِيرة عاصمة العراق وقاعدة المناذرة ، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له ، وخالد فيها من قواده ، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة لخالد ، وعياض من قواده .

وكان أمر أبى بكر إلى خالد أن يبدأ بالأبلة من العراق على الخليج الفارسى ، وكانت الثغر التجارى الذى تسير التجارة منه وإليه بين العراق والهند وغيرهما من الأقطار . فسار خالد كما أمره أبو بكر إلى العراق ،

ولما بلغ حدوده وجد المثنى بن حارثة وجيشه ينتظرونه ، فقسم الجند ثلاث فرق وجّه كل واحدة منها فى طريق على أن يلتقوا جميعاً بالحفير (١) وجعل المثنى على رأس الفرقة الأولى ، وعدى بن حاتم الطائى على رأس الثانية ، وسار هو بعدهما فى المؤخرة .

وقد كتب خالد إلى هرمز قائد جيش الفرس بالعراق قبل أن يسير ، إلى قتاله الكتاب الآتى :

« أما بعد : فأسلمْ تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية . وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

فهو أولا يعرض الإسلام عليه وعلى قومه ممن معه من الفرس بالعراق لأنهم لا يريدون قتالا ولا فتح بلاد ، وإنما يريدون تبليغ دعوة الإسلام التى أمرهم الله بتبليغها الأمم ، فإن أسلموا فلا قتال وإنما هم إخوان المسلمين لهم فى هذا الجزء من الوطن العربى ما لأهله ، وعليهم فيه ما عليهم لا يفرق بينهم فيه ما بينهم من اختلاف الجنس ، لأن المسلمين جميعاً إخوة فى الدين والوطن .

وهو ثانياً يعرض الصلح عليه إذا لم يسلموا ، لأنه لا يريد القتال أيضاً ، ولأن ما عرضه عليه من الإسلام عرض اختيارى لا إكراه فيه فإذا رضى بالصلح فلهم أيضاً حق الإقامة بهذا الجزء من الوطن العربى على أن يدفعوا ضريبة من المال تسمى جزية ، لأنها تجزى عنهم فى حقوق هذا الوطن عليهم .

---

(١) الحفير : موضع قريب من البصرة .

وهو ثالثاً يعرف القوة المعنوية لمن يقاتلهم من الفرس إذا أبوا القتال ، ويعرف القوة المعنوية فى جيشه كما يعرفها فى الفرس ، وهذه ميزة القائد الخبير الذى يعرف من أين يؤتى النصر ، لأنه يعتمد على القوة المعنوية فى الجيش أكثر مما يعتمد على غيرها ، وقد دل على هذا بأوجز عبارة فى كتابه — فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة — فجيشه لا يخاف الموت فى القتال لأنه سبيل الشهادة عنده ، وجيش هرمز يحب الحياة ويكره القتال حباً فيها ، وهذا إلى أنه يقاتل فى سبيل حكم يستأثر دونه بخيرات وطنه ، فلا يرى فائدة تعود عليه من قتاله فى سبيله ، ولا يرى معنى لبذل نفسه فى قتال يكره عليه ، ولا يسير إليه بدافع دينى أو وطنى من نفسه ، وقد زعزعت دعوة الإسلام إلى السلام بين الشعوب وإنكار حكم الطغيان ثقته بحكمه ، وثقته بدينه ، وثقته بوطنه ، وقد لفتت نهضته بالعرب فى ذلك الزمن القليل الشعوب الأخرى إليه ، وأوجد فى نفوس أفرادها من الزعزعة فى مقدساتها ما أوجد .

فلما قرأ هرمز كتاب خالد أبى إلا القتال ، وكتب إلى كسرى أردشير يعلمه بأمره ، ثم أسرع بجيشه إلى الحفير حين علم أن خالداً أمر أصحابه بالسير إليه لينزل على مائه قبله ، فلما وصل خالد إليه ووجده قد نزل على الماء قال لأصحابه : ألا انزلوا وحطوا أثقالكم وجالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين .

فتقابل الجيشان على الحفير ، وكان على ميمنة جيش هرمز وعلى ميسرته أميران من بيت كسرى ، مما يدل على مقدار اهتمامهم بهذه المعركة ، وكان هرمز يعرف أن بطولة خالد قد بلغت حداً يرهب النفوس ، وأن

صيت شجاعته هو الذى يرفع من قوة جيشه ، ويضعف من نفوس أعدائه . فأراد أن يدبر حيلة يأخذه بها قبل أن يبدأ القتال بين الجيشين ، فنادى : أين خالد ؟ يدعوه إليه ليبارزه ، وقد أعد له جماعة من فرسانه إذا رأوه أن ينقضّوا عليه ويقتلوه ، فبرز إليه خالد ونزل عن جواده ومشى إليه ، فلما التقيا اختلفا ضربتين ، وهنا برز الجماعة الذين أعدهم هرمز لقتل خالد واستخلاص هرمز منه ، فلم يمهلهم القعقاع ابن عمرو أن حمل عليهم ومنعهم من الوصول إلى خالد . وكان قد قبض على ناصية هرمز فلم يزل به حتى قضى عليه ، فلما رأى جنده ذلك خارت قواهم وانهزموا أمام المسلمين ، وكانت هذه أولى الهزائم التى توالت على الفرس فى العراق . حتى انتهت باستيلاء خالد على الحيرة عاصمة المناذرة ، وكانت أكبر مدينة عراقية فى ذلك الوقت ، وحتى تم تحرير العراق من حكم الفرس .

ولا يهمنا تفصيل هذه الوقائع التى تم بها تحرير العراق من حكم الفرس ، وإنما يهمنا أن خالداً لم يغب عنه مقصدهم النبيل من هذا القتال إذ لم يكن مقصدهم إكراه الناس به على الإسلام ، لأنه أنبل من أن يسعى بهذه الوسيلة إلى قلوب الناس ، إذا كان من الممكن أن يسعى إلى قلوبهم بها . وإنما كان مقصدهم نشر العدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، وإنصاف الطبقة العاملة فى الأرض من طبقة الإقطاعيين الذين أرهقوها بظلمهم ، فلم يتعرض بسوء لهذه الطبقة من العرب الذين كانوا يعملون فى الأرض لدهاقين الفرس ، فأقرهم على

الأرض التى يعملون بها ، واكتفى بأخذ الجزية اللازمة للقيام بالمصالح العامة فى وطنهم . وهى تؤخذ كما تؤخذ الزكاة من المسلمين لهذا الغرض وليس فيها ولا فى الزكاة إرهاق مثل الإرهاق الذى كان يأخذ بخناقهم . ولهذا لم يلبثوا حين رأوا هذا العدل أن دخلوا فى الإسلام طوعاً ، حتى صار هو الدين الظاهر على غيره من الأديان فى هذا الجزء من الوطن العربى .

كل هذا فعله خالد فى سنة وعياض بن غنم لا يزال واقفاً أمام دومة الجندل يحاصرها وهى مستعصية عليه . فلما انتهى خالد من تحرير العراق كتب أبو بكر إلى عياض أن يستعين بخالد . فأرسل إليه كتاباً بذلك ، فما إن قرأ كتابه حتى كتب اليه : إياك أريد :

لبِّثْ قليلا تأتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب(١)
كتائب تتبعها كتائب

ثم خرج فى جنده مسرعاً إلى دومة الجندل حتى وصل إليها ، وجعلها بين عسكره وعسكر عياض ، ولم تلبث إلا قليلا حتى استسلمت لخالد .

رد أى فى دوافع المسلمين إلى حرب الفرس :

كانت حرب المسلمين للفرس فى العراق على ما ذكرناه حرب تحرير لجزء من الوطن العربى ، وتحرير لأهله من العرب الذين يرهقهم إقطاعيو الفرس فى فلاحة الأرض ، وكانت رداً على حرب شنها الفرس على العرب من قبائل بكر حين غضبوا لقضائهم على دولة المناذرة بالعراق ، وإقامة

(١) القاشب : السيف الصقيل المجلو .

ولاة عليها من الفرس ، وعلى مساعدتهم لحركة المرتدين بعمان والبحرين والقطيف وهَجر ، وطمعهم فى استرداد حكمهم بها بعد أن استجابت للإسلام طوعاً ، وهذا يرفع من شأن هذه الحرب فى التاريخ ، لأن شأنها فى هذا يكون شأن كل حرب تحريرية فيه .

ونحن لا نسيء الظن بالأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه — الصديق أبو بكر — حين نراه ينحرف عن هذا إلى ما علق بذهنه عن غير قصده بما قرأه فى كتب المستشرقين فى التاريخ الإسلامى ، وهو يتأثر بها أحياناً فى كتابته فيه ولا يدرك سوء ما ترمى إليه ، فقد ذكر أن أبا بكر أطمعه فى حرب الفرس بالعراق ما كانوا فيه من الاضطراب والضعف ، ومن تنازع الأكاسرة على الملك ، حتى لقد تنازعه فى أربع سنين تسعة من أمرائهم كانوا يقتتلون عليه ، فيقتل بعضهم بعضاً ، جهرة حيناً ، وغيلة حيناً آخر ، وهذا إلى أن أبا بكر لم يطمئن لما أحرزته جيوشه من النصر على مرتدى العرب ، لأنه كان أحصف من أن يستنيم إلى هذا النصر ، فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتعيد حركة الردة مرة أخرى ، ولهذا رأى أن يوجّه أنظار العرب إلى ما وراء حدود جزيرة العرب ، لتنسى بالحروب التى تشنها وراء هذه الحدود حفائظها ، وتنسى بها أحقادها .

وهذا رأى ظاهر الضعف ، ولا أدل على ضعفه من أن أبا بكر فيما سبق نهى خالداً أن يستعين فى حربه بالعراق بمن سبقت منه ردة حتى يرى فيه رأيه ، وهؤلاء هم أرباب الحفيظة فيما ذكر الأستاذ هيكل ولو صح رأيه لكان الأولى بأبى بكر أن يأمر خالداً بأخذهم معه ليشغلهم

بالحرب خارج حدود بلاد العرب عن الفتنة فيها ، ولو صح أيضاً رأيه لكانت حرباً هجومية لا دفاعية ، والإسلام لا يبيح للمسلمين الحرب الهجومية ، وقد كان أبو بكر وإخوانه من الخلفاء الراشدين الآتين يقفون فى سياستهم عند حدّ ما يأمر به الإسلام وما ينهى عنه ، والحقيقة أن المصلحة كانت تقضى بالتريُّث فى محاربة الفرس بالعراق حتى تهدأ النفوس فى بلاد العرب بعد أن اضطربت بحرب الردة ، وحتى تستقر الأمور فيها بعد أن صارت إلى ما يشبه فوضىَ الجاهلية ، وإنما كانت الحرب بالعراق تتميماً لحرب الردة بهذه النواحى القريبة من الفرس ، لما سبق من بيان إصبع الفرس وأذنابهم فيها من العرب ، ومن أنها كانت متصلة بالعراق ، ومن أنها كانت متصلة بحروب اعتدى الفرس فيها على العرب قبل الإسلام وبعده ، فلم يكن هناك بد من وضع نهاية لها فى العراق أيضاً .

ولهذا اكتفى المسلمون فى خلافة أبى بكر بما وصلوا إليه فيما بينهم وبين الفرس من تحرير العراق ، وأخذوا يعملون على تنظيم الحكم وإقرار العدل فيه ، فهدأت الحروب فيما بينهما بعض الهدوء ، وإن كانت حالة الحرب لا تزال قائمة بينهما ، فلم تنته بينهما بصلح يقطع حالة الحرب ، وقد شُغل المسلمون عنهم أيضاً بحرب الرُّوم ، كما شغلوا عن المسلمين بفتن داخلية قامت بينهم بسبب توالى هذه الهزائم عليهم .

٣ ــ الحرب بين المسلمين والروم

الاستعمار الرومى :

كان الاستعمار الرومى كالاستعمار الفارسى بلاء على العالم فى ذلك الوقت، وقد خلفهما الاستعمار الأوروبى فى عصرنا الحديث ، وجعلهما قدوته فى الشر والطمع الذى لا يقف عند حد ، ويستبيح كل وسيلة أثيمة توصله إلى مقاصده من الاستئثار بالحكم فى الأرض ، لتكون له وحده السيادة على الناس ، ولتكون له وحده عيشة الترف ، فيشقى غيره من الناس ليسعد ، ويتعب غيره من النـاس ليرتاح ، والاستعمار الرومى استعمار أوروبى قديم ، وقد أتى بعد الاستعمار اليونانى الأوروبى ، فخلفه فيما كان تحت يده من المستعمرات فى آسيا وأفريقية كالشام ومصر ، وكانت له مطامع فى بلاد العرب حملته على تسليط الحبشة على اليمن ، وعلى محاولة الاستيلاء على مكة والحجاز ، ليتصل الاستعمار الحبشى بالاستعمار الرومى فى الشام ، ويتعاونا معـــاً على الاستعمار الفارسى الذى يناوئهما فى بلاد العرب وغيرها من البلاد .

فلما نهض العرب بالإسلام ساء الاستعمار الرومى هذا النهوض ، كما ساء الاستعمار الفارسى الذى يناوئه فى بلاد العرب ، وكان ماسبق من أذنابه فى الشام من أمراء غسان الذين نصبهم حكاماً فيه ليخضعوا له أبناء

جنسهم من العرب ، ويسوقوهم لمســـاعدته فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، إذ بدؤوا المسلمين بالعدوان ، وحملوهم على مقابلة العدوان بمثله فاشتبكوا بهم فى حروب قبل اشتباكهم بالفرس ، وكان آخرها جيش أسامة بن زيد الذى جهزه النبى صلى الله عليه وسلم للاقتصاص من قتلى أبيه فى سرية مؤتة (١) وقد مات قبل أن يفارق الجيش المدينة ، فلما استخلف أبو بكر وقامت حركة الردة لم يشأ أن يصرفه عن وجهه ، تنفيذاً لما أراده صلى الله عليه وسلم قبل موته ، فلما قضى أسامة ما أراده بجيشه رجع إلى المدينة به ، وكان المسلمون قد اشتغلوا بحروب الردة فانصرفوا عن حروب الروم ، وآثروا عليها إخضاع العرب الذين يريدون القضاء على رسالتهم الجديدة فى عقر دارهم .

وكان ما كان من نجاح المسلمين فى حروب الردة ، وكان ما كان من تحريرهم للعراق من الاستعمار الفارسى ، وكان الروم وأذنابهم من العرب بالشام يقفون متفرجين على هذا الصراع بين المسلمين والفرس ، وقد نسوا عداءهم القديم للفرس بعدائهم الجديد للمسلمين ، إلى أن وصل المسلمون فى تحرير العراق إلى الفراض ، وهى تخوم العراق والشـــام ، فأقام خالد بن الوليد وجيشه بها نحو شهر ، ولم يكن بينه وبين جيوش الروم التى تجمعت له إلا مجرى نهر الفرات ، وكان الحقد يأكل قلوبهم لما حازه من النصر ، فانضموا إلى من كان يحاربه من فلول الفرس ، ونسوا عداءهم القديم لهم ، وساروا معاً إلى قتال خالد بالفراض ، فنصره الله

---

(١) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام .

تعالى عليهم ، وكان الروم هم البادئين بقتاله على عادتهم ، فليأت دورهم بالشام بعد العراق لتحريره منهم أيضاً .

تحرير الشام من الروم :

لما عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الردة عقد لخالد بن سعيد بن العاص لواء لقتال من ارتد من العرب فى الشمال إلى تخوم الشام ، ونهاه أن يبدأ الروم فى الشام بقتال إلا أن يبدؤوه به ، فلم يلق كبير عناء فى القضاء على حركة الردة فى هذه النواحى ، وقد سار بجيشه حتى نزل بتيماء على تخوم الشام ، فأمره أبو بكر ألا يبرحها ، وأن يدعو القبائل التى حولها إلى الانضمام إليه إلا من ارتد منهم ، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره .

وقد سبق ما كان من بدء الروم بقتال خالد بن الوليد بالفراض وهزيمته لهم ، فرأى أبو بكر أنه قد آن له بعد هذا أن يعمل على تحرير الشام من استعمارهم ، ولاسيما أن خالد بن سعيد أرسل إليه أن الروم جمعوا جموعا عظيمة لقتاله ، وطلب منه أن يأذن له فى قتالهم ، فكتب إليه أبو بكر : أقدم ولا تحجم ، واستنصر الله . فأقدم خالد بن سعيد على قتالهم ، وأسرع بكل جيشه فتخطى الحدود إليهم ، وكان أكثرهم من أذنابهم من العرب ، لأنهم يقدمونهم فى القتال على أبناء جنسهم ، كما هى عادة المستعمرين قديماً وحديثاً ، فما إن رأوا خالد بن سعيد مسرعا إليهم حتى تفرقوا منهزمين . فكتب إلى أبو بكر بانهزامهم ، فكتب إليه : تقدم ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك .

فتقدم خالد بن سعيد حتى بلغ القسطل فى طريق البحر الميت ، وهزم جيشاً للروم على شاطئه الشرقى ، ثم سار حتى التقى بجموع كثيرة من الروم تزيد

على جيشه أضعافاً مضاعفة . فكتب إلى أبي بكر يستمده ليقوى على قتالهم ، فأرسل إليه أبو بكر جيشاً على رأسه عكرمة بن أبي جهل ، ومعه ذو الكلاع الحميرى على رأس جند اليمن الذين استنفرهم أبو بكر لتحرير الشام من الروم ، وكان على رأس جنود الروم قائد من أمهر قوادهم ، فأراد أن يستدرج خالد بن سعيد حتى يعرى ظهره ثم ينقض عليه فيوقع الهزيمة به ، فتراجع خدعة نحو دمشق ، وتبعه خالد بن سعيد حتى انكشف ظهره ، فارتد عليه وأحاط به وقطع عليه خط رجعته ، ولم يكن منه إلا أن فر هارباً فى كتيبة من أصحابه حتى وصل إلى ذى المروة قريباً من المدينة ، فأمره أبو بكر أن يقيم بمكانه ولامه على فراره .

فقاد عكرمة بن أبي جهل جيش المسلمين بعد فرار خالد بن سعيد ، وسار به متقهقراً ومعه ذو الكلاع الحميرى حتى وصل إلى حدود الشام ، فأقام ينتظر المدد حتى يكر ثانياً على الروم ، فاهتم أبو بكر بإمداده وأسرع به ، حتى لا يكون لهذا أثر فى نفوس العرب بعد أن أدركوا فى حروب الردة والعراق ما أدركوا من النصر ، وكان فيمن أمدهم ألف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبينهم كثير من أهل بدر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، فلما اتصلوا بجيش عكرمة كان هرقل قيصر الروم قد اهتم أيضاً بأمر الشام ، فجمع جيوشاً عظيمة جعل على رأس أكبرها أخوه تذارق - تيودوريك - وتحصن هو بحمص ليتتبع أنباء القتال .

فلما رأى المسلمون كثرة جموع الروم رأوا أنهم لا يستطيعون لقاءهم متفرقين ، وأن الرأى ، الاجتماع لأنهم إذا تفرقوا لم تقم كل فرقة لمن

استقبلها من الروم لكثرة عددهم ، ولما اتفقوا على هذا اتّعدوا نهر اليرموك على طريق دمشق ، واجتمعوا على شاطئه الأيسر ، ولما رآهم الروم جمعوا جيوشهم على الشاطىء الأيمن ، وتولى تذارق أخو هرقل قيادتها ، وأخذ كل من الفريقين يناوش الآخر ، واستمروا على هذا شهرين لا ينتصر أحدهما على الآخر .

فكتبوا إلى أبي بكر يستمدونه بعد أن طال القتال عليهم ، ففكر فى أمرهم حين كتبوا إليه يستمدونه وأطال التفكير ، ثم رأى أنهم محتاجون إلى قائد يسير بهم فى طريق النصر أكثر من حاجتهم إلى زيادة عدد ، وأن هذا القائد إنما هو خالد بن الوليد الذى هزم الفرس بالعراق ، فليسر قائداً إليهم ليهزم الروم أيضاً بالشام ، ولما رأى هذا كتب إليه :

« سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قدشجوا وأشجوا(١) ولم ينزع الشجا من الناس نزعك (٢) فليهنئك — أبا سليمان — النية والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدلّ بعمل ، فإن الله عز وجل له المن ، وهو ولى الجزاء » .

ثم أمره أن يستخلف المثنى بن حارثة على العراق فى نصف الناس ، وأن يأخذ معه النصف ، فإذا فتح الله عليه رجع إلى عمله بالعراق .

---

(١) الشجا : الغصص ، أى ضاقوا بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجا فى الحلق .

(٢) منصوب على نزع الخافض ، أى كنزعك .

سار خالد بن الوليد بمن معه من العراق إلى أن وصل إلى اليرموك ، وكان هرقل قد أمد جيشه بباهان الذى هزم خالد بن سعيد ، ليكون لجيش الروم كخالد بن الوليد لجيش المسلمين ، وهذا على حين كان جيش المسلمين لا يزيد على أربعين ألفاً وجيش الروم يبلغ أربعين ومائتى ألف ، وقد بعث أبو بكر خالداً أميراً على من سار معه من العراق فقط . ولم يبعثه رئيساً على الجيش كله يصرفه كما يريد ، فمكثوا نحو ثلاثة أسابيع على مثل ما كانوا عليه ، والروم تزداد جموعهم كل يوم ، وتزداد حماستهم فى القتال كلما أبطأ النصر على المسلمين ، إلى أن عزموا فى يوم على منازلتهم فى غده ، فعلم المسلمون بعزمهم وأن باهان صفهم للقتال صفاً لم يسمع أحد بمثله .

فعند ذلك اجتمع أمراء المسلمين يتشاورون ، فأشار عليهم خالد بتوحيد القيادة على أن يتولاها كل واحد منهم يوماً ، وعلى أن تكون له الإمارة فى اليوم الذى يبدأ القتال فيه ، فوافقوه جميعاً على ذلك ، وكان أن عبأ الجيش فرقاً وجعل عدد كل فرقة ألفاً ، وجعل على قلب الجيش أبا عبيدة بن الجراح . وعلى ميمنته عمرو بن العاص ومعه شرحبيل ابن حسنة ، وعلى ميسرته يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل فرقة رجلا من أمثال القعقاع بن عمرو ، ثم سمع رجلا يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين . فغضب حين سمعها وصاح : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر — فرسه — برىء من توجيه (1) وأنهم أضعفوا فى العدد .

(1) توجيه حفاه .

وكان لهذا العزم القوى من خالد أثره فى نفوس المسلمين ، فانقضّوا على أعدائهم بعزمة رجل واحد ، وزاد من عزمهم أن كتيبة من جيش الروم وكان خليطاً من العرب وغيرهم انحازت فى بدء القتال إليهم ، فاستبشروا بهم وأيقنوا أنها بادرة نصر من الله ساقه لهم ، وكان لانضمامهم للمسلمين أثره فى نفوس الروم ، وفى نزع ثقتهم ممن بقى من هذا الخليط بينهم ، فلم يأت آخر النهار حتى بدا الإعياء عليهم ، وأخذوا يفرون من القتال والمسلمون وراءهم يقتلون فيهم ، حتى قيل إنهم قتلوا منهم فى ذلك اليوم مائة ألف ، وكان ممن قتل منهم تذارق أخو هرقل وكثير من أمرائهم .

فلما بلغ هرقل بحمص ما حل بجيشه من هذه الهزيمة المنكرة انقطع أمله فى استبقاء الشام ، فجلا عن معسكره بحمص وجعلها بينه وبين المسلمين وأقام عليها أميراً ، كما أقام على دمشق أميراً ، وقد سار المسلمون بعد اليرموك إلى أرض الأردن ففر الروم الذين كانوا بها منهم . ثم ساروا إلى دمشق فحاصروها ، وكان هذا آخر ما وصل إليه المسلمون فى تحرير الشام على عهد أبى بكر ، وقد انتهت خلافته وحالة الحرب لا تزال قائمة بين المسلمين والروم ، كما أنها كانت لا تزال قائمة بينهم وبين الفرس .

تعليل انتصار المسلمين باستخفاف أعدائهم بهم ورده :

يرى الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه — عبقرية خالد — أنه كان لهزيمة الروم والفرس أمام العرب أسباب كثيرة : منها ضعف العقيدة واختلال النظام ، ونقص القيادة ، وانحلال الترف ، وتفرّق الآراء ،

ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل ، والاستخفاف بالخصم المقاتل ، فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون، ولا يعتزمون الانتصار، وكان الاستخفاف والإهمال شراً على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفزع ، بل كان الاستخفاف والإهمال سبباً لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوال يخذل المفاصل، وفزع يفتّ فى الأعضاد ، فاجتمعت عليهم البليّتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ، ولا فرط المبالاة به بعد الأوان .

ثم أيد هذا بما ذكره من أن دولة الفرس كانت لا تنظر إلى العرب إلا نظرة السيد المبجَّل إلى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون إما إلى العطاء وإما إلى التأديب . فلما اشتبكوا بهم بعد الإسلام استخفوا بهم ، ولم يهتموا بأمرهم ، حتى إن طلائع خالد بن الوليد ظهرت لهم فى بعض المواقع فلم يحفلوا بجيشه الزاحف إليهم ، بل تنادوا إلى طعامهم الذى هيّؤوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق ، ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام .

ثم ذكر أن الروم كان لهم غرور كهذا الغرور فى مواجهة العرب ، وكان قصارى العرب فى أول الأمر أن يغيروا على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفرون بسلبهم إلى الصحراء ، فإن أوغلوا فى بلادهم فهم مأخوذون بالهبات والوعود ، أو بالكثرة المستعدة التى لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس إليهم، فلما جدّ الجد وعرفوا من يقاتلون منهم انقلبوا من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد .

ثم خطأ من يرى أن العلة فى انتصار العرب إنما هى وهن الدولتين ومصابهما بالخَوَر والانحلال ، أو أنها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم إلى هذه العقيدة ، لأنه يرى أن انحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض ، والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ولكنها هى وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد ، وقد كان المسلمون فى عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حُنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والرّوم .

وعندى أنه لو صح ما يذكره الأستاذ العقاد من أمر الفرس وقلة مبالاتهم بحرب المسلمين لما صح ما ذكره خالد بن الوليد الذى مارس حربهم ، وكان أدرى به من الأستاذ العقاد ، فإنه لما فتح الحِيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيها . ثم انتقل إلى أصحابه وقال : لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس .

وعندى أيضاً أنه يجب أن نأخذ أسباب هذا النصر من هذا القائد الذى ظفر به لا من الأستاذ العقاد وغيره ، فقد ذكر خالد بن الوليد فى أول كتاب له إلى الفرس — وقد سبق — أنه يلاقيهم بقوم يحبون

الموت كما يحبون الحياة ، وحب المسلمين للموت إنما هو لإيمانهم بما بعده من حسن المثوبة فى الآخرة لأن دينهم إذا لم ينس الدنيا فالآخرة عنده خير وأبقى ، وحب الفرس للحياة إنما هو لإيثارهم لها ، وانغماسهم فى ملذاتها وشهواتها ، لعدم إيمانهم وضعف عقيدتهم فيما بعدها ، وكذلك كان شأن الروم فى إيثارهم للحياة ، ولا سيما بعد أن ظهر الإسلام ورفع من شأن العرب الذين كانوا دون غيرهم من الأمم ، وبعد أن جمعهم فى وحدة تامة بعد تفرقهم ، فكان لنجاحه فى هذا ولوضوح دعوته أثر أىّ أثر فى زعزعة العقائد القديمة ، وإلقاء الرعب فى نفوس أصحابها ، كما قال الله تعالى فى الآية — ١٥٠ — من سورة آل عمران (سنلقى فى قلوب الذينَ كفرُوا الرعبَ بما أشركُوا بالله ما لمْ ينزلْ به سلطاناً) .

وقد كان النصر دولة بين المسلمين وغيرهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، ولم يكن النصر لهم دائماً ، مما يدل على أن كلا من الفريقين كان يعد العدة للنصر ، ولم يكن يأخذ أمره بقلة المبالاة ، وقد نجح كل من الفرس والروم بإثارة من بجوارهم من العرب فى حركة الردة ، وأوقعوا المسلمين بهذا فى حرج شديد لولا قوة عقيدتهم ، وإذا كان المسلمون قد استولوا على العراق فى عهد أبى بكر فإن الفرس لم يلبثوا أن أخرجوهم منه ، ثم جرى بين الفريقين من الحروب الشديدة ما سنذكره فى خلافة عمر فأما الروم فإن المسلمين لقوا فى حروبهم أيضاً من الشدائد ما لقوا ، حتى أصيب جيشهم فى أول الأمر بهزيمة شديدة ردته على أعقابه ، ثم قضوا فى وقعة اليرموك نحو ثلاثة أشهر حتى تم

لهم النصر ، فلم يأخذوه بسهولة من الروم ، وإنما أخذوه بعد أن صبروا على قتالهم هذه الشهور .

وما كان للأستاذ العقاد أن يرى ذلك الرأى فى نصر المسلمين ، لأن مؤدّاه أنهم لو لم يستخف بهم الفرس والروم لما انتصروا عليهم ، وهو بهذا أشبه بما يراه أعداء الإسلام من أنه انتصر بقوة السيف لا بقوة عقيدته ، فيكون شأنه كشأنه ، ويكون خطأ مثله .

انتهاء خلافة أبي بكر

مرضه واستخلافه لعمر بالتشاور :

كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل في يوم بارد ، فحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس ، ثم اشتد عليه المرض حتى شعر بدنو الأجل ، وقد قيل له يوماً لو أرسلت إلى الطبيب ؟ فقال : قد رآني . فقيل له : فما قال لك ؟ فقال : قال إني أفعل ما أشاء . فلم يكن يعني بالطبيب إلا الله تعالى ، وقد أمر الإسلام بالطب والتداوي ، ولكن المريض إذا شعر من نفسه بدنو أجله فإنه يكون خيراً له أن يستقبل الموت بالرضا ، وألاّ يحاول التعلق بالحياة وهو يشعر بدنو أجله فيها ، ولاسيما إذا كان من أمثال أبي بكر ، ممن يؤثرون الآخرة على الدنيا .

وإذا كان أبو بكر لم يهمه في مرضه أمر نفسه ، فقد أهمه أمر المسلمين بعده وهم في حالة حرب مع الدولتين الكبيرتين في الأرض ، ولو اختلفوا بعده في أمر الخلافة فقد يقعون في فتنة تضيع ما كسبه لهم من إعادة وحدة العرب ، ومن تحرير العراق والشام ، ولهذا أراد أن يقوم باختيار خليفة لهم في حياته وهو في مرض موته ، ليفارقهم مطمئناً عليهم بعد موته من الوقوع في الفتنة ، ولم يقع اختياره على ابن له أو أخ ، بل ضرب لهم

أروع مثل فى الزهد عن الولاية ، وفى إيثار من هو أصلح لها على من يمتّ إليه بنسب أو قرابة .

وقد وقع اختياره على عمر بن الخطاب ليكون خليفة عليهم ، ولكنه لم يشأ أن يفرضه عليهم فرضاً ، لأن الخليفة إنما يقوم فى الإسلام عن طواعية واختيار ، ولا تصح خلافته إلا بتشاور بين المسلمين فيها ، فأراد أن يعرف رأى غيره فيه ليكون اختياره له برأيهم معه ، ودعا لهذا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرنى عن عمر بن الخطاب . فقال عبد الرحمن : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلمنا به . فقال أبو بكر : وإن . أى وإن كنت أعلمكم به ، فقال عبد الرحمن : ياخليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . فقال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه . ثم أمره ألا يذكر مما قال له شيئاً ، ودعا عثمان بن عفان وسأله عنه فأثنى عليه ، وكذلك دعا سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وأمثالهم من المهاجرين والأنصار ، فأثنى أكثرهم عليه أيضاً .

لكن فريقاً منهم على رأسهم طلحة بن عبيد الله . وهو من تيم قوم أبى بكر — أشفقوا من شدة عمر على المسلمين ، فذهبوا إلى أبى بكر ليرجعوه عن عزمه عليه ، وقال له طلحة : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ؟ فكيف إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ فغضب أبو بكر وقال لمن معه : أجلسونى . فلما أجلسوه قال : أبالله تخوفونى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك . وقد رأى

عبد الرحمن بن عوف أنه يرهق بهذا نفسه فى مرضه ، فقال له : خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك ، إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك ، وصاحبك — يعنى عمر — كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ، ولم تزل صالحاً مصلحاً .

وفى رواية أخرى أنه جمع أهل الشورى من الصحابة وقال لهم :

« قد أطلق الله أيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى »

فذهبوا يتشاورون فى ذلك فلم يستقم الأمر لهم ، فرجعوا إليه يقولون : إن الرأى يا خليفة رسول الله رأيك . فاستمهلهم حتى ينظر لله ولدينه ولعباده ، ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد أن شاور عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير على ما سبق ، وقد سأل على بن أبى طالب فيه أيضاً ، فقال له : عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، إن وليته — مع أنه كان والياً معك — نحظى برأيه ونأخذ منه ، فامض لما تريد ، ودع مخاطبة الرجل ، فإن يكن على ما ظننت — إن شاء الله — فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير .

وقد أثر موقف أبى بكر فى مرض موته يسعى إلى خير الناس فيمن خالف رأيه فى استخلاف عمر ، ففوضوا الأمر إليه ورضوا بمن يرضاه ، وهنالك دعا عثمان بن عفان وقال له أكتب وأملاه .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماعهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب من الإثم ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وفاته :

وكانت وفاة أبى بكر يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة سنة — ١٣ هـ : ٦٣٤ م — وهو فى الثالثة والستين من عمره ، ودفن فى حفرة حفرت له إلى جنب النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر .

وقد أبنه بعد دفنه بعض الصحابة ، ثم أبنه عمر بعدهم فقال : ياخليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ؟

وكان خطب عائشة ابنته فيه فادحاً ، فأقامت النوح عليه ، وشاركتها أخته أم فروة وزوجتاه أسماء بنت عميس وحبيبة بنت خارجة ، وبعض نساء المدينة ، فلما بلغ عمر مايصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النوح فلم ينتهين ، فأمر عمر بإخراج أم فروة أخت أبى بكر فأخرجت فعلاها بالدِّرة — عصا صغيرة — فضربها ضربات بها ، فتفرق النوائح حين

وأين ما أصاب أم فروة ، وكان هذا إيذانا بأنه سيأخذ فى سياسته بما يراه الحق من غير فرق بين كبير وصغير ، وعلى أنه لا يتهاون فى ذلك كائنة ما كانت الظروف والأحوال .

وكان أبو قحافة لايزال حياً حين مات ابنه أبو بكر ، فلما بلغه موته بمكة قال : رزء جليل ، من قام بالأمر بعده ؟ فقيل له : عمر . فقال : صاحبه ! ولم يزد عليها كلمة ، ثم توفى بعد ستة أشهر من وفاة أبى بكر .

الخليفة الثاني
عُمَر بن الخطاب

عمر وخلافته

١ — التعريف بعمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ، فهو يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم في كعب بن مرة ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم ، وكان بنو عدى قوم عمر من بطون قريش التى كانت لها مكانتها فيها ، ويمتاز أفرادهم بأنهم كانوا ذوى دراية وحكمة وعلم ، ومنهم ظهر زيد بن عمرو بن نفيل أحد الحنفاء الذين ظهروا قبيل ظهور الإسلام ، واعتزلوا عبادة الأصنام ، وامتنعوا عن أكل ذبائحها ، ولهذا كان لهم بين قريش وظيفة السفارة والحكم فى المنافرات ، فكانوا المتحدثين عن قريش فيما يكون بينها و بين غيرها من الخلاف ، ليقوموا بالمفاوضة فيه حتى ينتهى أمره بينهم .

وكان الخطاب أبو عمر من ذوى المكانة فى قريش على قلة ماله ، لأنه لم يكن من ذوى المال بينهم ، ولكنه كان رجلا ذكياً شجاعاً لا يهاب القتال ، وقد اشترك فى حرب الفجار بين قريش وبعض قبائل العرب ، فكان فيها على رأس قومه بنى عدى ، وقد أورثته شجاعته شدة فى طبعه ، وجموداً على تقاليدهم الدينية ، فلما قام زيد بن عمرو بن

نفيل يدعو قريشاً إلى ترك عبادة الأصنام كان أشدها عليه ، حتى سلط عليه جماعة أخرجوه من مكة ومنعوه أن يدخلها . مع أنه كان عمه وأخاه لأمه .

وكانت حنتمة أم عمر بنت عم خالد بن الوليد ، لأن جـدهما هو المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان يلى فى قريش إمارة الجند ، ورثها من قومه بنى مخزوم من بطون قريش ، ولهذا كان يلقب صاحب الأعنة ، وكانت ابنـة عم أبى جهل أيضاً ، وهو معروف بعدائه للإسلام .

فنشأ عمر بين هذين الأبوين ، وتعلم القراءة والكتابة فيمن تعلمها من أبناء قريش ، وكانوا من القلة بحيث يعدون على الأصابع . ولما شب أخذ يرعى غنما لأبيه الخطاب ، فكان يناله من شدته ما يناله ، وقد مر فى خلافته بضجنان (١) فقال : لا إله إلا الله المعطى ما شاء من شاء ! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادى فى مدرعة صوف ، وكان فظاً يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت ، وقد أمسيت وليس بينى وبين الله أحد — يعنى أنه أمسى خليفة على رأس المسلمين جميعاً ، وهو يذكر هذا ليأخذ نفسه به ، حتى لا يأخذها غرور أو كبر ، لأنه لا يذكر مثل هذا الماضى إلا من يريد أن يضع من نفسه حتى لا يأخذها كبر بحاضره .

فورث عمر فيما ورثه عن أبيه ما كان من شدته وشجاعته ، وكان

---

(١) ضجنان : جبل قرب مكة .

طويلا آدم أصلع أعسر يَسَر — أى يعمل بيديه — وكان لطوله كأنه راكب . وقيل : كان أبيض أمهق — أى شديد البياض تعلوه حمرة — طوالا أصلع أشيب . وكان يصفّر لحيته ، ويرجل رأسه ، أى يسرحها .

وقد ولد عمر قبل حرب الفجار بأربع سنين ، وبلغ سن الزواج قبل ظهور الإسلام ، فتزوج قبل ظهوره زينب بنت مظعون ، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة ، وتزوج مليكة بنت جرول فولدت له عبيد الله ثم فارقها بعد الإسلام ، وتزوج فى الإسلام أم حكيم بنت الحارث ، فولدت له فاطمة ثم طلقها . وقيل : لم يطلقها . وتزوج جميلة بنت عاصم ، فولدت له عاصما ثم طلقها ، وتزوج فكيهة امرأة من اليمن ، فولدت له عبد الرحمن الأوسط ، وقيل الأصغر . وخطب أم كلثوم بنت أبى بكر إلى عائشة ، فقالت لها : لا حاجة لى فيه ، إنه خشن العيش ، شديد على النساء . فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص ، فقال لها : أنا أكفيك . ثم أتاه فقال له : بلغنى خبر أعيذك منه . فقال له : ما هو ؟ فقال له : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ فقال : نعم ، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ (١) فقال له : ولا واحدة ، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك ؟ فقال : فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ فقال له : أنا لك

(١) يقال : رغب عنه أى لم يرضه .

بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بسبب من رسول الله صلى عليه وسلم . فخطبها إلى أبيها وتزوجها ، فولدت له رقية وزيداً ، وقد تزوج نساء أخرى غير من ذكرن . وكان حال عصرهم يقتضى تعدد الزوجات ، لأنهم عاشوا فى حروب متوالية منذ ظهور الإسلام . فكان عدد النساء يزيد كثيراً على عدد الرجال ، وبعض ما سبق فى زواج عمر يدل على أن المرأة كان لها حرية كاملة فى اختيار زوجها . وعلى أنه خليفة كان بعض النساء يأباه فلا يرى فى نفسه أنه خليفة لا يصح أن تأباه . وقد خطب أم أبان بنت عتبة فكرهته وقالت : يغلق بابه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابساً . وكان مثل هذا يبلغه كما ذكره له عمرو بن العاص ، فيسكت عليه ولا يفعل شيئاً ، لأن الزواج فى الإسلام لا يكون إلا عن رضا واختيار .

وكان لشدة عمر أثر فى تأخر إسلامه قليلا ، لأنه لم يسلم إلا بعد نحو ثلاث سنين من البعثة ، وكان قبل إسلامه شديداً على من سبقه إلى الإسلام فلما أسلم كان شديداً على أهل الشرك ، وكانت الدعوة سرية قبل إسلامه، فلما أسلم نقلها من السر إلى الجهر ، فكان إسلامه عزاً للإسلام ، وقوة كبيرة له على أعدائه ، ولهذا كانت منزلته عند النبى صلى الله عليه وسلم تلى منزلة أبى بكر ، وكان لرأيه عنده حسن تقدير منه ،وكثيراً ما كان يرى الرأى فيوافقه عليه ، وأحيانا كان يرى الرأى فينزل الوحى به ، فلما مات النبى صلى الله عليه وسلم وخلفه أبو بكر كان له بمنزلة الوزير والمشير ، وكثيراً ما كان ينزل أبو بكر على رأيه ، وكثيراً ما كان يخالفه أبو بكر ويقوم بينهما من الحوار فى رأيهما ما يقوم ، فلا يستبد

أحدهما برأيه ، بل يقع اتفاقهما أخيراً على ما فيه المصلحة ، فإذا كان أبو بكر قد أدرك فى خلافته ما أدرك من النجاح والنصر ، فإنه كان لمساعدة عمر له فيه فضل لا ينكر ، ولهذا آثره أبو بكر بالخلافة بعده، ووافق المسلمون أبا بكر على اختياره له ، ليسير بالخلافة فى طريقها الناجح الذى سارت فيه برأى أبى بكر ورأيه معه ، فقد أكسبه هذا خبرة بتصريف أمور الخلافة ، وأفاده حسن تجربة ، فيكون شأنه فيها أقوى من شأن من لم يتمرس بها ، ولم يشترك فى تدبير شؤونها .

خلافة أيضا لا ملك ولا شبه ملك :

قال عمر لسلمان الفارسى : أملك أنا أم خليفة ؟ وإنما آثر سلمان بهذا السؤال لأنه كان من الفرس ، وقد عاش فى مُلكهم وعرف ملوكهم ، فقال سلمان له : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة . فبكى عمر حين سمع هذا من سلمان ، لأنه أدرك أنها مسئولية كبيرة أمام الله تعالى ، وخاف أن يكون منه تقصير فيها ، وإنما يصير بهذا ملكا لأن العدل من شروط الخلافة ، والملك لا يلزم أن يكون عادلا .

وقد خطب عمر فى الناس بعد أن بايعوه فقال :

« أيها الناس ، بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، فاعلموا أن تلك الشدة إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين من بعضهم على بعض ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يعتدى عليه حتى أضع خدّه على الأرض ؛ وأضع قدمى على الخد

الآخر حتى يذعن للحق وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف . ولكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم ، فخذونى بها : لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه . ولكم على إذ وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطايا كم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسد ثغوركم . ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك . ولا أجمّركم فى ثغوركم [1] وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال . فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أموركم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

ويؤخذ من هذه الخطبة أن عمر فى خلافته سيكون خادماً للمسلمين لا حاكما عليهم ، وأن خلافته ستكون شورى بينه وبينهم ، لأنها مستمدة منهم وهو بشر مثلهم ، يصيب ويخطىء ، ويحتاج إلى معونتهم وإرشادهم ، لأنه غير معصوم من الخطأ ، وهذا إلى ما يتحراه فيها من العدل ، ونصرته للضعيف على القوى ، وهذه بعينها هى خلافة أبى بكر ، فلم تكن حكما ولا استئثاراً بحكم ، وإنما كانت أشبه شىء بالنبوة .

ثم أخذ عمر نفسه فى خلافته بهذا المنهاج الذى عاهدهم عليه ، وله فيه سيرة كأنها سيرة نبوة لا خلافة . فكان إذا نهى الناس عن شىء جمع أهله وقال لهم : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون

---

(١) تجميرهم فيها : حبسهم فيها عن العود إلى أهلهم .

إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً فعله إلا أضعفت عليه العقوبة . وكان يفرض لنفسه وأهله من بيت المال ما لا يقع من كفايتهم ، فإذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه ، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه ويلحّ عليه فى طلبه ، وتقوى سلطته فى هذا على سلطته ، كما تقوى سلطة كل دائن على مدينه ، فلا يجدّ عمر شيئاً من سلطانه ، بل يحتال له ويهتم بقضاء دينه ولو باستقراضه له ، وربما خرج عطاؤه فقضاه منه ، ولا غرابة بعد هذا فيما يروى عنه من لبس المرقع ، قال الحسن البصرى : خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة . وقال أبو عثمان النهدى : رأيت عمر يرمى الجمرة وعليه إزار مرقع بقطعة جراب .

وكان يمشى بين الناس فى الشوارع والأسواق كأنه واحد منهم ، وكان يطوف بينهم يتفقد أحوالهم ، ويقضى بينهم حيث أدركه الخصوم ، فى الشارع أو فى السوق أو فى أى مكان ، لأنه لم يكن هناك كلفة بينه وبينهم ، ولم يكن ينظر إلى نفسه على أنه حاكم لا يصح أن يقضى إلا فى مجالس الحكم ، حيث تكون مهابة الحاكم ، وحيث تكون هيبة الحكم ، لأنه لا يريد أن يشعر الناس بهذه الهيبة ، ليتصلوا به ويتصل بهم ، ولا يخفى عليه شىء من أمورهم ، ولتبقى لهم حريتهم كاملة لا ينقصها قيام الحكم بينهم ، ولا يكون الحكم فى الإسلام إلا نظاماً فى أكمل ما يكون الناس من الحرية ، ولا يكون إلا الأخذ بالنظام هو الفرق بين حكم الإسلام وفوضى الجاهلية .

وكانت حرية الناس فى حكمه من أهم ما عنى بتحقيقه فيه ، حتى إنه

كان ينبه الناس إلى حقهم فيها ، ليأخـــذوا كل من يعتدى عليهم فيها ولا يسكتوا عليه ، لئلا تضيع منهم بالسكوت عليهم ، وكان يخوّف عماله بشديد العقاب إذا اعتدى واحد منهم على حرية من فى عمله ، ولهذا خطب فيهم يوماً فقال :

« أيها الناس ، إنى ما أرسل إليكم عمـــالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه » .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيتك إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته فإنك لتقصنه منه . فقال عمر : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم . ثم قال : كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ .

ولعمر فيما أخذ نفسه من هذه السيرة عجائب وغرائب : فمنها أن عبد الرحمن بن عوف كان يصلى فى بيته ليلا ، فأتاه عمر وهو يصلى . فقال له : ما جاء بك فى هذه الساعة ؟ فقال : رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سرّاق المدينة ، فانطلق فلنحرسهم . فأتيا السوق فقعدوا على نشز من الأرض يتحدثان ، فرفع لهما مصباح ، وكان عمر نهى الناس عن المصابيح ، لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمى بها فى سقف البيت فتحرقه ، وكانت السقوف من جريد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا قبله ، فقال عمر حين رفع لهما المصباح : ألم أنه عن

المصابيح بعد النوم ؟ ثم انطلقا فإذا قوم على شراب لهم ، فنظر إليهم من ثقب الباب فعرف واحداً منهم ، فلما أصبح أرسل إليه فقال له : يا فلان ، كنت وأصحابك البارحة على شراب . فقال : وما أعلمك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : شيء شهدته . فقال : أو لم ينهك الله عن التجسس ؟ فلم يجد عمر إلا أن يتجاوز عنه ، لأنه لم يصل إلى مشاهدته وهو يشرب بطريق صحيح . ومثل هذا تبطل به العقوبة فى التشريع الوضعى الحديث ، وله سند مما أخذ به عمر نفسه بإبطال حد شارب الخمر فى هذه الواقعة ، ولا شك أن عمر فى هذه الليلة كان يقوم فيها بوظيفة شرطية صغيرة ، فلم تأنف نفسه منها ، لأنه يرى أن الخلافة خدمة ، وأنها لا تقصد لمظهر من مظاهر العظمة .

وقد أجدب الناس فى عام الرمادة ، فأهمَّ عمر أمرهم فى هذا العام ، ولا سيما الفقراء منهم ، فكان يتفقد أحوالهم ليلا ونهاراً ، ليطعم جائعهم ، ويكسو عاريهم ، ومن هذا ما رواه أسلم مولى عمر ، قال: خرج عمر إلى حرّة واقم[1] وأنا معه ، حتى إذا كنا بصرار[2] إذ نار تسعر ، فقال : انطلق بنا إليهم . فهرولنا حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون[3] فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء — وكره أن يقول يا أصحاب النار — فقالت : وعليك السلام . فقال لها : ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟

---

(١) حرة بالمدينة .

(٢) واد بالحجاز .

(٣) يتضاغون : يتضورون ويصيحون من الجوع .

فقالت : من الجوع . فقال لها : وأى شىء فى هذه القدر ؟ فقالت : مالى ما أسكتهم به حتى يناموا ، فأنا أعللهم وأوهمهم أنى أصلح لهم شيئاً حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر . فقال لها : رحمك الله ، ما يدرى بكم عمر . فقالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا ؟ قال أسلم : فأقبل علىّ وقال : انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلا فيه كبة شحم[1] فقال : احمله على ظهرى . فقلت له : أنا أحمله عنك . مرتين أو ثلاثاً ، فقال آخر ذلك : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أمّ لك ؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّى علىّ وأنا أحسن الك . وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج ، ثم أنزل القدر فأتته بصحفها فأفرغها فيها، ثم قال: أطعميهم. فأطعمتهم حتى شبعوا ، ثم خلّى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول لها : قولى خيراً ، فإنك إذا أتيت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض لا يكلمنى ، حتى رأى الصبية يضحكون ويصطرعون ، ثم ناموا وهدؤوا ، فقام وهو يحمد الله فقال : يا أسلم ، الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألاّ أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

ونقف وقفة مع عمر ومولاه أسلم عند ما أبى عمر إلا أن يحمل

---

(١) الكبة : الثقل .

عدل الدقيق دونه ، فهو فى هذا لا يشعر أنه سيده وأعلى طبقة منه ، لأن الإسلام سوى بينهما ، ولنوازن بين هذا وبين سابور بن شهريران حينما تولى ملك الفرس على عهد أبى بكر لينهض به من كبوته ، فاستوزر الفرسخزاد ليساعده على النهوض به ، وأراد أن يزوجه آزرميدخت بنت كسرى ، فساءها أن يزوجها عبداً من عبيدهم مع أنه وزير لا عبد ، لأنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم كأنهم آلهة، وإلى رعاياهم كأنهم عبيدهم فدست عليه سياوخش الفاتك فقتله فى مخدعها ليلة زفافه ، ثم سارت معه فى أعوانها إلى سابور فحاصرته وقتلته وجلست مكانه على العرش. ولا شك أن الموازنة بين الموقفين تبين لنا بوضوح مدى ما وصل إليه المسلمون من صلاح الحكم ، ومدى ما وصل إليه الفرس وغيرهم من طغيان الحكم .

وعمر فى هذا يتبع فى لينه وتواضعه للناس سيرة أبى بكر ، كما اتبعه فى أخذه بالشورى إلى الحد الذى جعل لكل فرد حق مناقشته فى الرأى لأنه كان يجلس إليهم فى الصلاة ، ويؤمهم فيها ، ويقوم بينهم كل يوم جمعة ، فيتداول فى خطبته الرأى معهم ، ولا يقصر الشورى على طائفة منهم تنوب عنهم ، وتستأثر به عليهم ، كما يحصل الآن فى النظام الشورى الذى يتباهى به عصرنا على العصور السابقة ، اللهم إلا فى أمور الحرب ونحوها من السياسة العليا التى لا يصح إفشاؤها للجمهور ، فإن الشورى فيها كانت لها مجالس خاصة ينفرد بها أولو الرأى منهم .

وقد خطب عمر يوماً فقال : من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقومه .

فقام واحد من جمهور المصلين فقال : لو رأينا فيك اعوجاجاً يا عمر لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

وخطب يوماً آخر فنهى الناس عن التغالى فى المهور ، فقامت امرأة فاحتجت عليه بقوله تعالى فى الآية — ٢٠ — من سـورة النساء (وآتيتم إحداهن قنطاراً) فرضخ لها وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

فهذه خلافة عمر كخلافة أبى بكر لم تكن ملكاً ولا شبه ملك من نظم الحكم الحديثة فى عصرنا ، وإنما كانت أشبه شىء بالنبوة ، والأنبياء يبعثون هداة لا ملوكاً ولا شبه ملوك ، وإنما كانت صورة حكم لا حقيقة حكم ، لأن الخليفة لم يكن يرى أنه حاكم فوق الناس ، وإنما كان يرى أنه خادم لهم ومسئول أمام الله عنهم ، وأن سلطته مستمدة منهم ولهم حق نزعها منه ، ولم يكن يتولاها رغبة فيها ، وإنما كان يتولاها زاهداً فى ولايتها ، ويتمنى لو أنها صرفت عنه ، كما تمنى أبو بكر فى مرض موته أن لو كان قذف بالأمر فى عنق أحد الرجلين — عمر وأبى عبيدة — فكان أحدهما أميراً ، وكان له وزيراً ، وكما تمنى عمر أن لو لم يستخلفه أبو بكر حينما قال لهم بعد استخلافه له : ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .

وإذا كان هذا شأن خلافة أبى بكر وخلافة عمر فلا يصح أن نوازن بينها وبين حكم يقال إنه ثيقراطى أى دينى ، لأنه يرى أنه مستمد من الله لا من الشعب ، فيدعى لنفسه العصمة ، ويرى أن ما يفرضه فى

الأرض يفرض فى السماء ، أو حكم يقال أنه أرستقراطى ، وهو حكم الخاصة بالاستبداد لا بالشورى ، أو حكم يقال إنه ديمقراطى، وهو الذى يكون للشعب فيه حق الشورى ، وإن كانت الخلافة أقرب إلى هذا الحكم الأخير ، ولكنها تمتاز عنه بخلوها من مظاهر الحكام ، وبأن لقبها لا يشم منه رائحة شيء من التسلط ، وإنما هى خلافة عن نبوة لا عن ملك ولا شبه ملك ، فالخليفة فيها أقرب إلى أن يكون معلماً للناس منه إلى أن يكون رئيساً عليهم .

السياسة الداخلية فى خلافة عمر

١ ــ تنظيمات داخلية

إنشاء الدواوين :

لما كثر المال الذى يجبى فى عهد عمر رأى أنه لابدَّ من وضع نظام لإحصائه وتوزيعه ، فأخذ يستشير أصحابه فى أمره ، فقال له عثمان بن عفان : أرى مالا كثيراً يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر . وقال الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين ، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديواناً ، وجندوا جنوداً ، فدون ديواناً ، وجند جنوداً . فدعا عمر عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نسّاب قريش ، فقال لهم : اكتبوا الناس على منازلهم .

وقيل إن عمر استشار فى ذلك أولا المهاجرين والأنصار فى تدوين الديوان وفرض العطاء ، فأشاروا عليه به ، ثم استشار من أسلم من قريش بعد فتح مكة ، فوافقوا عليه إلا حكيم بن حزام فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قريشاً أهل تجارة ، ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم فيأتى بعدك من يحبس عنهم العطاء ، فتكون التجارة قد خرجت من

أيديهم . ولكنهم لم يأخذوا برأيه ، لأنه كان عطاء عاماً لقريش وغيرهم حتى إنه كان لكل مصر من الأمصار ديوان خاص به ، وكان والى كل مصر يتولى أمره ، ولا شك أن العطاء يساعد على توسيع التجارة ولا يعطلها إلا من يغره المال ويدعوه إلى الكسل ، وهذا لا شأن للعطاء به ، على أنه لم يكن يقصد حمل الناس على البطالة وترك العمل ، وإنما كان يقصد به تفريغهم للجهاد فى سبيل الله تعالى ونحوه ، كما جاء فى مشورة الوليد بن هشام بن المغيرة : فدون ديواناً وجند جنوداً .

والديوان كلمة فارسية معناها مجتمع الصحف يكتب فيها رجال الجيش ومن فرض لهم العطاء ، ثم صارت تطلق على الموضع الذى تحفظ فيه سجلات الدولة ، ثم صارت تطلق على الأمكنة التى يجلس فيها القائمون على هذه السجلات ، ثم صارت تطلق على السجلات نفسها ، ولكنها لم تجاوز فى عهد عمر معناها الأول ، فكان الديوان على عهده سجلا أحصى فيه من فرض لهم العطاء من الجند ومن إليهم ، وذكر فيه أمام كل اسم عطاء صاحبه .

التفضيل بين أهل الديوان فى العطاء بسابقة الإسلام :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يسوى بين الناس فى العطاء ، وكذلك كان أبو بكر يسوى بينهم ، وقد قيل له : ليتقدم أهل السبق على منازلهم فقال : إنما أسلموا لله ، ووجب أجرهم عليه ، يوفيهم ذلك فى الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ . فأما عمر فإنه حينما أنشأ الديوان قال : اكتبوا الناس على منازلهم . يعنى منازلهم فى السبق إلى الإسلام لا منازلهم فى

الأنساب والأحساب ، وقد أعطى صفوا بن أمية والحارث بن هشام وسهل بن عمرو ممن أسلم بعد فتح مكة أقل مما أخذه من أسلم قبلهم ، فامتنعوا من أخذ عطائهم ، وقالوا : لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا . فقال لهم : إنما أعطيتكم على السابقة فى الإسلام لا على الأحساب قالوا : فنعم إذنْ . وأخذوا عطاءهم .

وحينئذ لا يكون هناك شيء يؤخذ على عمر فى تفضيله فى العطاء على أساس التفاضل فى الأعمال ، لأن الإسلام يقر هذا الأساس أيضاً ، وله فى هذا اجتهاده وقصده فى ترغيب الناس فى العمل لرفعة الإسلام ، ولأبى بكر اجتهاده فى أن يكون العمل لرفعة الإسلام خالصاً لوجه الله تعالى ، وهى مثالية من أبى بكر لا يرضى بها إلا الخاص من الناس ، ولا شك أن عمر فى ذلك أكثر واقعية من أبى بكر ، لأن التفاضل بالأعمال هو الوسيلة الوحيدة للنهوض والتقدم ، والتنافس بين الأفراد فى العمل لما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم .

وبهذا يبطل ما ذكره الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه — الفاروق عمر — من أن ما فعله عمر من ذلك كان نزعة جديدة أريد بها تقسيم الناس طوائف بعضها فوق بعض درجات ، والإسلام لم يفضل طبقة من المسلمين على طبقة بالنسب ، وإنما جعل أكرمهم عند الله أتقاهم ، لأن عمر لم يجعل التفضيل بينهم فى العطاء على أساس النسب كما سبق ، ولم يأت فيه شيئاً يخالف ما جاء به الإسلام من التسوية بين الناس ومنع التفضيل بينهم إلا بالعمل ، وقد قيل له حين أراد وضع الديوان : ابدأ بنفسك . فقال : لا ، بل أبدأ بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الأقرب

فالأقرب . وروى أنه لما قال لأهل الديوان — اكتبوا الناس على منازلهم — كتبوهم مبتدئين ببنى هاشم ، ثم بنى تيم قبيلة أبى بكر ، فبنى عدى قبيلة عمر ، فلما رأى ما صنعوا قال : وددت والله لو أنه هكذا ، ولكن ابدأوا بقرابة النبى صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله . فلما رأى بنو عدى ما صنع بهم جاءوا إليه وقالوا له : أنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم ؟ فقال لهم : بخ بخ بنى عدى ، أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أذهب حسناتى لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة ، وإن أطبق عليكم الدفتر — يعنى كتابتهم آخر الناس — إن لى صاحبين سلكا طريقاً ، فإن خالفتهما خولف بى ، والله ما أدركنا هذا الفضل فى الدنيا ، ولا نرجو ما نرجو فى الآخرة من ثواب الله على ما عملنا ، إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه أشرف العرب ، ثم الأقرب فالأقرب .

ففرض للعباس بن عبد المطلب وبدأ به ، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف درهم ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، ومضى فى هذا الترتيب الذى يراعى فيه سابقة الجهاد إلى أن فرغ منهم ، ثم أخذ يستشيرهم فيما يفرض له ، فقال لهم : إنى كنت امرأ تاجراً يغنى الله عيالى بتجارتى وقد شغلتمونى بأمركم هذا ، فما ترون أنه يحل لى فى هذا المال ؟ فأكثر القوم فيما يفرضونه له وعلى بن أبى طالب ساكت لا يشاركهم فيما

يقولون ، فقال عمر له : ما تقول يا على ؟ فقال : ما أصلحك وعيالك بالمعروف ، ليس لك غيره . فقال القوم : القول ما قال على . فاقتصر عمر على أخـــذ قوته وقوت عياله ، وكان يقتّـر على نفسه فى ذلك حتى اشتدت حاجته ، وكان يقترض من بيت المال ما يحتاج له إلى أن يحتال فى قضائه ، فاجتمع نفر من الصحابة فقالوا : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه ؟ فأتوا ابنته حفصة وفيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وأعلموها ما يريدون لتخبر أباها به ، واستكتموها ألا تخبره بهم ، فدخلت عليه فأخبرته بما أتوا به ، فغضب وقال : من هؤلاء ؟ لأسوأنهم . فقالت له : لا سبيل إلى علمهم . فقال لها . أنت بينى وبينهم ، ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملابس ؟ — وكانت من أزواجه — فقالت : ثوبين ممشقين [1] كان يلبسهما للوفد والجمع . قال : فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ فقالت حرفاً من خبز شعير ، فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا [2] فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها . قال : وأى بسط كان يبسط عندك كان أوطأ ؟ فقالت : كساء ثخين كنا نربعه فى الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه . قال : ياحفصة ، فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها ، وتبلّغ بالترجية [3] فوالله لأضعن الفضول مواضعها ، ولأتبلغن بالترجية . وإنما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلكوا طريقاً ، فمضى الأول وقد تزود

---

(١) أمشق الثوب : صبغه بالمشق أى الطين الأحمر .

(٢) العكة : زقيق للسمن أصغر من القربة .

(٣) الترجية : ما كان دون الفضول من الطعام وغيره .

فبلغ المنزل ، ثم أتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليـــه ، ثم أتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما ألحق بهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما ولا شك أن عمر أدرى بأنه لم يخالف فيما فعله مسلك صاحبيه من الأستاذ هيكل ، لأنه كما سبق جعل التفضيل فى العطاء للعمل وسابقة الإسلام ، ولا ينافى هذا ما ذكره من البدء فى الكتابة ببنى هاشم ثم الأقرب فالأقرب ، لأن هذا التقديم فى الكتابة فقط ، أما التفضيل فى العطاء فقد جرى على الترتيب السابق ، على أنه يجب أن يلاحظ أنه إذا كان عطاء عمر وهو الخليفة قد روعى فيه مقدار كفايته بالمعروف فقط ، وأنه كان يقتر فيه على نفسه حتى لا يفى بحاجته ، فلا بد أن غيره من أهل العطاء كانوا يعطون على قدر حاجتهم أيضاً ، وأنه لم يكن فى ذلك إسراف ولا مجاوزة لحد الإنصاف ، وإنما كان بعضهم يزيد على بعض فى الحد المقبول ، حتى لا يكون هناك تفاوت كبير بينهم .

ولهذا رضى كل منهم بعطائه ولم يقع خلاف بينهم ، وكان بعضهم إذا أعطى أقل من غيره ذهب إلى عمر يسأله عن سببه فيزيل ما بنفسه ، كما أعطى عمر بن أبى سلمة أربعة آلاف درهم ، فاعترض محمد بن عبد الله ابن جحش وقال يا أمير المؤمنين . لم تفضل عمر علينا ؟ فقد هاجر آباؤنا وشهدوا ! فقال عمر له : أفضله لمكانه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فليأتنى الذى يستعتب بأم سلمة أعتبه . وكانت أم سلمة من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، فقال عبد الله بن عمر لأبيه : فرضت لى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة . فقال له أبوه :

زدته لأنه كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك . وقد أعطى لكل واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف ، وفضّل عائشة بألفين ، لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، فلم تأخذ ما فضلها به عليهن ، وكان ما فعله من ذلك استثناء من القاعدة التي وضعها للعطاء ، لما سبق من تلك الأسباب ، ولم يهمه أن تقضى على ابنه عبدالله بما قضت به ، لأن مراعاة العدالة لا يقف عند حدود القواعد ، فقد يقوم من الأسباب ما يجعل العدالة فى الاستثناء منها ، لا فى الوقوف عند حدودها .

وكان بعض من يأخذ العطاء يتصدق به ، كما روى ان أم المؤمنين زينب بنت جحش قالت حين دخل عليها عطاؤها : غفر الله لعمر ؟ غيرى من أخواتى كان أقوى على قسم هذا منى . ثم قالت : صبوه ، واطرحوا عليه ثوبا . وأمرت برزة بنت رافع أن تقبض منه قبضة وتذهب بها إلى بعض أهل رحمها وأيتامها ، حتى بقيت بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة : غفر الله لك يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا فى هذا حق . قالت : فلكم ما تحت الثوب . فلما كشفوا الثوب لم يجدوا إلا خمسة وثمانين درهما .

وقد ذكر الأستاذ هيكل أن كثيراً ممن قبضوا عطاءهم ثمروه فى التجارة حتى زادت ثروتهم أضعافاً مضاعفة ، وظهرت بين الطبقات فوارق مالية كبيرة ، وأن هذا جعل عمر يفكر فى الرجوع إلى التسوية بين المسلمين فى العطاء ، حتى قال : والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل

لألحقنّ آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحداً . وفى رواية : لئن عشت حتى يكثر المال ، لأجعلن عطاء الرجل ثلاثة آلاف : ألف لكراعه وسلاحه ، وألف نفقة له، وألف نفقة لأهله ، ولكنه مات قبل أن ينقضى ذلك العام .

وعندى أن السعى فى زيادة الثروة بالتجارة أمر محمود ، وأن هذا لا شأن له أصلا بالتسوية والتفضيل فى العطاء، وأن ما أراده عمر من ذلك لم يكن على سبيل الفرض ، لأنه لو كان على سبيل الفرض لسارع إليه ، ولم ينتظر حتى يمضى ذلك العام ، ولعلها كانت أمنية عابرة ، لأن الناس لم يكونوا رجلا واحداً على عهد صاحبيه قبله ، وإنما كانوا يختلفون فى الغنى والفقر أيضاً .

التفضيل بالسابقة فى الولايات والعدول عنه :

لم يقتصر عمر فى التفضيل بسابقة الإسلام على العطاء ، بل كان يرى تقديم السابقين إلى الإسلام على غيرهم فى الولايات والمشاورات ونحوها ، وقد بلغ من أمره فى هذا أنه اعترض على أبى بكر حين أرسل إلى أهل مكة يستشيرهم فى قتال الروم بالشام ويستمدّهم إليه . وكان لهم مساعدة قوية فى قتال المرتدين ،فقال له سهيل بن عمرو : ألسنا إخوانكم فى الإسلام، وبنى أبيكم فى النسب ، أفإنكم أن كان الله قدّم لكم فى هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعو أرحامنا ومستهينون بحقنا ؟ فقال عمر له : إنى والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام ، وتحرّياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين .

وهذا هو الذى جعله لا يرتاح إلى إيثار أبى بكر لخالد بن الوليد بكبرى الإمارات فى قتال الفرس والروم ، ولا يرتاح إلى جعله والياً على العراق بعد تحريره له ، ولا يرتاح إلى انتدابه من العراق لقتال الروم بالشام بعد أن أبطأ النصر على من انتدبهم لقتالهم ، لأن خالداً لم يكن من السابقين إلى الإسلام مثل أبى عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وأضرابهم من المسلمين الأولين ، فما إن تولى الخلافة حتى عزل خالداً وهو يقاتل الروم فى الشام ، وولى أبا عبيدة على الجيوش المقاتلة لهم ، وجعله أميراً على الشام بعد تحريره من الروم .

وهذا أيضاً هو الذى جعله يبعث إلى المثنّى بن حارثة الشيبانى أبا عبيد الثقفى ليساعده فى قتال الفرس بالعراق ، وتكون لأبى عبيد الإمارة عليه ، بعد أن أبلى ما أبلى فى تحرير العراق من الفرس ، فلما قتل أبو عبيد فى بعض المواضع بعث عمر إلى المثنى جرير بن عبد الله البجلى ، فلما وصل إليه اختلفا الإمارة ، فبعث المثنى إلى عمر يشكو جريراً ، فكتب إليه : إنى لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . ثم وجه إليهما سعد بن أبى وقاص من المسلمين السابقين ، فجعله أميراً عليهما .

ولعمر اجتهاده فى ذلك وعذره فيه ، لأن الإسلام له رسالة يجب تبليغها للناس على أكمل وجه ، ولا يصح عنده أن ينسينا عن تبليغها على هذا الوجه ذلك القتال الذى اشتبك المسلمون به على غير إرادتهم ، بأن تكون القدرة على القتال وحدها هى المقياس لمن يختار له من بين المسلمين ،

بل يجب أن يراعى معها حسن فهمه لرسالة الإسلام ، حتى لا يقع فى هنات تؤخذ على الإسلام بسببه ، وتكرّه الناس فى الدين الذى يدافع عنه ، كالهنات التى كان خالد بن الوليد يقع فيها بسبب قرب عهده بالإسلام ، وكان أبو بكر يغتفرها له لحسن بلائه فى القتال ، وكان عمر لا يغتفرها له إيثاراً لمصلحة الإسلام ، ويرى أن من يدافع عن الإسلام بالقتال يجب أن يجتمع فيه الكفاية له وحسن القدوة ، ولا يصح أن ينظر فيه إلى الشجاعة وحسن القيادة فقط .

على أن عمر لم يلبث أن عدل عن هذه السياسة والتفرقة فى الولاية ، فولى معاوية بن أبى سفيان على الشام وهو ممن أسلم فى فتح مكة ، وأبقاه على ولايته للشام مدة خلافته ، ولم يبق سعد بن أبى وقاص على ولاية الكوفة والعراق حين اختلف أهلها عليه ، بل أخــذ يضنّ بالمسلمين الأولين على هذه الولايات ، ليستبقيهم إلى جانبه بالمدينة ، ويستعين بآرائهم فى تدبير أمور الخلافة ، ولما تسامح عمر فى إيثار مثل معاوية بالولاية على الشام كان يتساهل معه فى بعض أمور لا يقرها لنفسه ، ومن هذا أنه قدم على الشام يتفقده راكباً حماراً ، فتلقاه معاوية فى موكب عظيم ، ثم نزل وسلم عليه بالخلافة ، فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟ فالتفت عمر إلى معاوية وقال له : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟ فقال له : نعم . فقال عمر : مع شدة احتجابك ، ووقوف ذوى الحاجات ببابك ! فقال له : نعم . فقال عمر : ولم ويحك ؟ فقال له : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف

بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فإنا نخاف من البذلة جرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استنقصتنى نقصت ، وإن استزدتنى زدت ، وإن استوقفتنى وقفت . فقال عمر بعد أن سكت قليلا : ما سألتك عن شىء إلا خرجت منه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك .

ترك الأرض المستولى عليها لأهلها :

استولى المسلمون فى عهد عمر على أرض العراق والشام وكثير من أرض الفرس ، وكانت القاعدة قبله فيما يغنم أن يعطى خمسه لولى الأمر ، ويعطى أربعة أخماسه للمجاهدين ، وهذا هو ما جاء فى قوله تعالى فى الآية — ٤١ — من سورة الأنفال (واعلموا إنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) فلما استولى المجاهدون على أرض السواد بالعراق أرادوا أن يقسموها على هذه القاعدة ، فخالفهم عمر فى قسمة هذه الأرض على نحو ما يقسم المنقول من الغنائم ، ورأى تخصيص هذه القاعدة بغير الأرض ونحوها مما لا يستهلك ، بل يبقى على مر الأجيال جيلا بعد جيل ، ولهذا قال فى رد ما يرونه من تمليك هذه الأرض لهم : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها (١) قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال عبد الرحمن بن عوف : ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم . فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك .

---

(١) العلوج : جمع علج وهو الرجل الضخم القوى من كفار العجم .

والله ما يفتح بعد بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فماذا تسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ فقال المجاهدون : أتقف ماأفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ؟ فقال عمر : هذارأي . فقالوا له : فاستشر . فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا ، ورأى عبد الرحمن بن عوف ما رآه فيما سبق ، ورأى عثمان وعلى وطلحة رأى عمر . ثم أرسل عمر إلى عشرة من كبار الأنصار وقال لهم : إنى لم أزعجكم إلا لتشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

فقالوا له : قل نستمع يا أمير المؤمنين .

فقال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلمـــاً ، لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، لكنى رأيت أنه لم يبق شيئاً يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج (١) فتكون فيئاً للمسلمين ، أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من

(١) يريد تركها لهؤلاء العلوج بخراجها عليهم ، وهذا هو عدل الاسلام .

رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام ؟ لا بد لها أن تشحن بالجيوش ولا بد من إدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

فقالوا جميعاً : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ويجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

فلما اتفقوا على رأيه قال : قد بان لى الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون ؟

فاجتمع رأيهم على عثمان بن حنيف ، وقالوا : تبعثه إلى أهمّ ذلك ، فإن له بصراً وعقلا وتجربة ، فولاه أرض السواد بالعراق ، فجباها على ما فيه الخير للمسلمين ، والرفق بأصحابها الذين سرهم بقاء أرضهم لهم ، وما كان للمسلمين إلا أن يبقوها لهم على الخراج المحتمل الذى فرض عليهم لينفق منه على هذه المصالح التى يشتركون فيها جميعاً ، ولا تخص المسلمين وحدهم ، وبهذا عاشوا فى سوادهم أحراراً فى أرضهم ، أحراراً فى دينهم ، أحراراً فى أنفسهم ، وكانوا قبل هذا عبيداً لكسرى وأمراء بيته ومن إليه ، وقد آثر المسلمون أن يتركوهم أحراراً ليميزوا بأنفسهم بين العهدين ، ويطلعوا بمخالطتهم لهم على محاسن دينهم ، فيدخلوا فيه عن رغبة واختيار ، ويثبتوا عليه إلى آخر الزمن .

وضع أساس صالح لإبطال الرق :

نظر عمر حين آلت الخلافة إليه فى أمر العرب مع الفرس والروم

فوجد أن كلا من الفرس والروم قد نسوا ما كان بينهم من عداوة قبل الإسلام ، واتخذوا العرب أعداء لهم يحاربونهم فى وقت واحد ، ويحيطون بهم من كل جانب ، فرأى أن يجعل من العرب أمة واحدة متماسكة كل التماسك ، وكانت حروب الردة قد تركت جفوة فى نفوس كثير من قبائل العرب ، وإذا كانوا قد رجعوا إلى الإسلام بعد هزيمتهم فإن أبا بكر رأى أن يبقى على الرق أسراهم وسباياهم ، ورأى عدم الاستعانة بهم فى حروب الفرس والروم ، لأن سابق ردّتهم جعله لا يثق بهم .

فرأى عمر أن يفتتح عهده بأمر يردّ لهؤلاء العرب اعتبارهم، ويزيل ما بنفوسهم من الألم لاسترقاق من استرق منهم ، ولإبعادهم عن الاشتراك فى الحرب القائمة بين العرب وكل من الفرس والروم ، وكان الفرس قد عادوا فاستردوا العراق بعد اشتغال خالد بن الوليد بحرب الروم فى الشام فلما بويع عمر بالخلافة دعا المسلمين إلى الخروج إلى قتال الفرس بالعراق فثقل الأمر عليهم ، وأخذتهم الرهبة من معاودة قتالهم ، وظن بعضهم أن انتصارهم على المسلمين يدل على تغير أحوالهم واستعادتهم لقوتهم .

وقد بات عمر ليلته يفكر فى هذا الأمر الذى تبتدىء به خلافته ، فهداه تفكيره إلى هؤلاء العرب الذين آلمهم إبعاد أبى بكر لهم من نيل شرف النصر الذى أدركه إخوانهم فى العراق وغيره ، وهم عدد كبير لا يستهان به بين العرب فلابد من أمر يجمعهم إليه ، ويزيل ما بنفوسهم من الألم للتفرقة بينهم وبين إخوانهم من العرب .

فلما أصبح الصباح وأتى من لم يبايعه من الناس ليبايعوه ، مكث حتى أتت صلاة الظهر ، فلما انتهى منها نادى بأعلى صوته يأمرهم أن يردوا سبايا أهل الردة إلى عشائرهم ، وقال : إنى كرهت أن يصير السبى سُنة فى العرب . فألغى بهذا ما قام بهم من الرق ، ومكن لعشائرهم من مشاركة إخوانهم فى حرب الفرس والروم ، ثم كان هذا رأيه فى رق العرب إلى آخر حياته ، حتى أوصى به وهو على فراش الموت فقال :من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو حر من مال الله .

ولا شك أن هذه خطوة لها شأنها فى إلغاء الرق ، لأن عمر ذكر أنه إنما حمله عليها كراهته أن يصير السبى سُنة فى العرب ، والإسلام دين عام لا يفرق بين عربى وعجمى ، فلا مانع بعد هذا أن يأتى بعده من المسلمين من يكره أن يكون السبى سنة فى الناس جميعاً ، ولو أتى بعده من المسلمين من كره هذا لبطل به الرق بين العرب وغيرهم ، ولحازوا بهذا شرف السبق إلى إبطال الرق فى الناس جميعاً .

محاسبة عمال الأمصار :

كان عمر يأمر عماله حين يوليهم أعمالهم فى الأمصار بالعدل والأمانة فإذا اعتدى واحد من عماله على واحد من أهل عمله اقتص له منه ، كما أنه كان يقتص لهم ممن يعتدى عليهم حفظاً لكرامتهم وسلطتهم ، ومن هذا أن أهل العراق حصبوا إمامهم استهانة بأمره ، وكانوا قد حصبوا إماماً قبله ، فغضب عمر وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق ، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ .

فإذا اجتمع العمال بعمر فى موسم الحج بمكة أخذ يحاسبهم على أعمالهم ويسأل الناس عن سيرتهم فيهم ، وعن مبلغ أماناتهم فى أموالهم ، وقد بلغ من تدقيقه فى هذا أنه كان يحصى أموال الولاة قبل ولايتهم ، فإذا زادت بعدها زيادة تكون موضع شبهة قاسمهم فيها لبيت المال ، وقد يأخذ الزيادة كلها له ، ويقول لهم : إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً .

وإذا كان عمر لم يبعثهم تجاراً لأنفسهم فإنه لم يبعثهم أيضاً تجاراً لبيوت المال ، حتى لا يرهقوا الناس بما يفرضونه عليهم لها ، وقد ولى عمير بن سعد على حمص ، ثم كتب إليه : أقبل بما جبيت من فىء المسلمين . فلما أتاه سأله عما فعل فى ولايته ، فقال : بعثتنى حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شىء لأتيتك به . أى ليضعه فى بيت المال العام فى المدينة ، فقال له عمر : فما جئتنا بشىء ؟ فقال : لا . فأعجبه من عمير مسلكه هذا فى أهل حمص ، لأنه لم يكن يريد جمع أموال أهل الأمصار لبيت مال المدينة ، وإنما كان يهمه قبل هذا أن يأخذ أهل الأمصار كفايتهم منه فى مصالحهم العامة ، حتى تتساوى الأمصار كلها فى استيفاء هذه المصالح فلما أيقن أن عميرا أنفق ما جباه كله فى مصالح أهل حمص قال : جددوا لعمير عهده . فأرجعه إلى حمص ليسير فى أهلها سيرته ، وكان يقول فيه : وددت لو أن لى رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين .

القراض من بيت المال :

وكان عمر يفتح بيت المال لمن يريد منه قراضا يستعمله فى تجارة أو نحوها ، ليخفف على الناس بعض الحرج فى منعهم من القرض بالربا ، لأن أصحاب الأموال يضنون بها عليهم ، لما خلق الناس عليه من الشح ، فلم يجد عمر إلا أن يفتح بيت المال لهذا القراض ، وهو ضرب من التكافل الاجتماعى فى ذلك الوقت .

ومن هذا أن هند بنت عتبة ذهبت إلى عمر فاستقرضته أربعة آلاف تتجر فيها وتضمنها ، وهند هى هند زوج أبى سفيان وأم معاوية ابنه ، وكان واليا لعمر على الشام ، وإنما استقرضت هذا من عمر لأن أبا سفيان كان قد طلقها وتركها لنفسها ، وكانت نساء قريش تتجر فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام لم يمنع المرأة من الاشتغال بالتجارة ، بل رفع من شأنها بأكثر مما كانت عليه فى الجاهلية ، وأعطاها حقوقا كثيرة كانت محرومة منها فيها .

فأقرضها عمر ما طلبت من المال من بيت المال ، فخرجت به إلى بلاد بنى كلب بالبادية ، فاشترت وباعت ومكثت مدة فيها تشترى وتبيع وبينما هى تشترى وتبيع بلغها أن أبا سفيان وابنه عمرا قصدا ابنها معاوية بالشام ، فذهبت إليه من بادية بنى كلب حتى أتته بدمشق ، فقال لها : ما أقدمك أى أمه ؟ فقالت له : النظر إليك أى بنىّ ، إنه عمر وإنما يعمل لله ، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تخرج إليه من كل شىء وأهل ذلك هو ، ولا يعلم الناس من أين أعطيته ؟ فيؤنبوك ويؤنبك عمر ، فلا تستقبلهما أبدا . فبعث إلى أبيه وأخيه بمائة دينار وكساهما ،

فتسخطها عمرو من معاوية ، فقال له أبو سفيان : لا تسخطها ، فإن هذا عطاء لم تغب عنه هند .

ثم رجع أبو سفيان وعمرو ورجعت هند معهما ، فقال لها أبو سفيان أربحت؟ فقالت : الله أعلم . فلما أتت المدينة شكت إلى عمر الوضيعة ، فقال لها عمر : لو كان لى مال تركته لك ، ولكنه مال المسلمين . ثم أبى أن يضع عنها شيئاً ، حتى لا يطمع أحد فيما يستقرضه من بيت المال ، وحتى يحرص من يستقرضه الاتجار به على إحسان التصرف فيه ، ويصل به إلى الغرض الذى يريده من استقراضه .

الإنكار على الإسراف فى تعدد الزوجات والنسل :

وإذا كان الإسلام قد أباح تعدّد الزوجات فإنه يجب أن يكون بقدر الحاجة ، وبحيث لا يؤدى إلى فساد فى المجتمع ، ولهذا أنكر عمر على قوم أتوه فقالوا له : كثر العيال ، واشتدت المؤونة ، فزدنا فى عطائنا .

فغضب عليهم وقال لهم : فعلتموها اجمعتم بين الضرائر واتخذتم الخدم من مال الله ، لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر تذهب بنا شرقاً وغرباً ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه . فقال طلحة : وما عليك لو قلت وإن تعوج عزلوه ؟ فقال : لا ، القتل أنكل لمن بعده ، احذروا فتى من قريش وابن كريمها الذى لا ينام إلا على الرضا ، ويضحك عند الغضب ، وهو يتناول من فوقه ومن تحته .

درة عمـــر :

كان لعمر درّة يؤدب بها الناس فى الهفوات الصغيرة التى يشاهدها

منهم، وهى عصا صغيرة لا تؤلم من تقع عليه . ولكنهم كانوا يهابونها أشد من هيبة سيوف الملوك الجبابرة ، لأن الإسلام قد رفع من نفوسهم إلى الحد الذى يجعلهم يحسبون لهذه الدرة الصغيرة حسابها ، ويخشون أن يقال فيهم إنهم أصيبوا بها ، وكان لا يفرق فيها بين كبير وصغير ، وقد سبق أن أول من أصيب بها أم فروة أخت أبى بكر ، حينما أقام نساؤه نوحاً عليه ونهاهن عنه فلم يسمعن له .

وكان هذا سبباً فى هيبة الناس له ، حتى إن أحدهم كان يقصده فى حاجة له فيهاب أن يكلمه فيها فيرجع ولم يقضها ، فاجتمع على والزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص إلى عبد الرحمن بن عوف ، وقالوا له: لوكلمت أمير المؤمنين للناس ! فدخل عليه فقال له : يا أمير المؤمنين ، لِنْ للناس ، فإنه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك فى حاجته حتى يرجع ولم يكلمك . فقال : يا عبد الرحمن ، أنشدك الله ، أعلى وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا ! فقال له : اللهم نعم ، فقال : يا عبد الرحمن ، لقد لنت للناس حتى خشيت الله فى اللين ، ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة . فأين المخرج ؟ فخرج عبد الرحمن يبكى ويقول : أفٍ لهم من بعدك ، أف لهم من بعدك .

٢ – إجلاء بعض أهل الكتاب

حرية التوطن فى الإسلام :

أقر الإسلام فيما أقر من الحريات حرية التدين ، وحرية التوطن ، فالدين عنده لله تعالى يجازى عليه فى الآخرة ، ولا يصح إكراه أحد عليه بعقاب فى الدنيا ، والوطن عنده تبعاً لهذا حق لجميع الناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أسلم أهلها من العرب دون اليهود ، فأبقاهم على دينهم وجعل لهم من الحقوق فى المدينة مثل العرب ، مع أنهم كانوا غرباء فيها ، لأنهم نزحوا إليها حين أجلاهم الروم من الشام ، فلما أساءوا إلى إخوانهم فى الوطن بانضمامهم إلى المشركين أخرجهم منه ، فرجعوا إلى وطنهم الذى نزحوا منه قبله .

وكذلك كان شأن نصارى نجران ببلاد العرب ، فقد صالحهم النبى صلى الله عليه وسلم على أن يبقوا على دينهم ويستقروا فى وطنهم ، فاستقروا فيه على عهده وعلى عهد أبى بكر ، فلما قامت حروب الردة كان موقفهم فيها مريباً ، وقد سبق أن الأسود العنسى حينما تنبأ سار إلى نجران فانضم كثير من أهلها إليه ، وحاربوا معه من ثبت من المسلمين على دينه ، فلما انتهت حرب الردة وعفا أبو بكر عمن اشترك فيها شمل

نصارى نجران عفوه أيضاً ، إلى أن اشتبك المسلمون بالفرس والروم لتحرير العراق والشام العربيين من حكمهما ، وكانت النصرانية فاشية فى أهلهما من العرب، فانضم أكثرهم بالعراق إلى الفرس يحاربون معهم إخوانهم فى العروبة من المسلمين ، مع أنهم لم يحاربوا الفرس إلا لأجل تحريرهم من حكمهم ، ولهذا عجب خالد بن الوليد منهم حين دخل الحيرة واجتمع برؤسائهم فقال لهم : ويحكم ! أأنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ فقالوا : بل عرب عاربة ، وأخرى متعربة . فقال لهم : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ؟ فقالوا له : ليدلك على ما نقول أن ليس لنا لسان إلا العربية . فقال لهم : فاختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم على الموت أحرص منكم على الحياة . فقالوا : بل نعطيك الجزية . فأقرهم على الجزية ، ولكنه عجب من إصرارهم على دينهم وإبائهم الإسلام الذى دخل فيه كثير من الفرس ، وقال لهم بعد قبول الجزية منهم : تباً لكم ، ويحكم : إن الكفر فلاة مضلّة ، فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى . وهذه شدة فى الخطاب من خالد ، ولكنه يعذر فيها لأنه كان فى موقف حرب ، وكان فى حاجة إلى معونتهم له على الفرس ، وقد رأى أن فى إيثارهم البقاء على دينهم معنى كراهتهم لأهله ، وانتهاز الفرصة للانضمام للفرس عليهم ، على أنه لم يكن منه إلا سورة طارئة ثم مضت وكأن لم تكن .

وكذلك كان موقف أكثر عرب الشام مع الروم ، فقد آثروا نصرانيتهم على عروبتهم ، فانضموا إلى الروم وحاربوا معهم إخوانهم في العروبة من المسلمين ، مع أنهم كانوا يسعون في تحريرهم من حكم الروم المستعمرين فيهم ، وكان حكما طاغياً ظالماً ، لأنه يقوم على أساس التعصب لجنس الحاكم ، وعلى إنكار حق المحكوم في مساواته في الحكم ، ولو كان يجمعه وإياه دين واحد ، كما كان شأنهم مع هؤلاء العرب وهم موافقون لهم في نصرانيتهم ، ولكنهم كانوا يؤثرون الجنس على الدين ، كما يؤثره مقلدوهم في سياستهم من أهل أوربا وأمريكا في عصرنا الحديث ، فلم يكونوا ينظرون إلى العرب وغيرهم ممن يستعمرنهم إلا على أنهم جنس دونهم .

إجلاء نصارى نجران ويهود خيبر لسياسة حربية :

فكان ما حصل من أكثر نصارى العرب في حرب الردة وفي تحرير العراق والشام داعياً للاحتياط ممن بقي منهم بين العرب في اليمن والحجاز ونجد ، بل داعياً للاحتياط ممن بقي من أهل الكتاب من اليهود والنصارى معاً ، لأن سيرتهم بين إخوانهم في الوطنية دلت على أنهم ينظرون إلى الدين قبل الوطن ، وعلى أنهم ساءهم نهوض إخوانهم في العروبة بالإسلام . حتى آثروا عليهم الحكم الأجنبي من الفرس والروم . وللسياسة حكمها كالدين ، ومسألة الحرب مسألة حياة أو موت ، وهذا الى أنه لم يمض على عودة من ارتد من العرب إلى الإسلام إلا بضعة شهور ، فإذا بقيت بينهم هذه القلة من أهل الكتاب لم يؤمن عملهم على إثارتهم ثانياً على إخوانهم ، ولم يؤمن أن يتخذ منهم الفرس والروم جواسيس

لهم . وستطول هذه الحرب إلى ما شاء الله ، لأن انتصار المسلمين على دولتين كانتا أعظم الدول فى ذلك الوقت ليس بالأمر السهل ، حتى يمكن الوصول إليه فى أقرب وقت .

فاقتضت هذه السياسة الحربية من عمر إجلاء كل من نصارى نجران ويهود خيبر من قلب بلاد العرب ، فأمر بإجلاء نصارى نجران إلى أرض بالعراق كأرضهم ، وبأن تحسن معاملتهم فى إجلائهم ، حتى لا يفتنهم أحد فى دينهم ، وأمر بإجلاء يهود خيبر وفدك إلى أرض بالشام كأرضهم ، وبأن تحسن معاملتهم أيضاً فى إجلائهم ، لأن كلا منهما قد أجلى لمصلحة حربية اقتضاها الأخذ بالأحوط ، ولم يكن إجلاؤه صادراً عن تعصب دينى ، لأن الإسلام لا يعرف هذا التعصب ، وحينئذ يكون هذا الإجلاء لظروف سياسية اقتضته ، فيكون حكمه تابعاً لهذه الظروف ، يقوم بقيامها ، ويزول بزوالها .

فلا يصح مع هذا ما ذهب إليه الأستاذ هيكل فى كتابه ــ الفاروق عمر ــ من أن ما فعله عمر من ذلك كان يراد به توحيد العقيدة فى شبه الجزيرة العربية كلها ، لأنه ليس من غاية الإسلام توحيد العقيدة بمثل هذه الوسيلة ، ولو كان هذا من غايته لم يقتصر أمره على شبه الجزيرة العربية ، بل أخذ به فى كل وطن إسلامى ، ليكون كل وطن منه للمسلمين خاصة ، فلما لم يحصل هذا منه دلّ على أن ما فعله عمر من ذلك لم يكن لغاية دينية ، وإنما كان لغاية سياسية اقتضتها حالة الحرب ، فإذا زالت هذه الحالة زالت بزوالها .

ولا يفوتني بعد هذا أن أنبّه على أحاديث وردت في هذا الشأن قد يتوهم منها أنه كان لغاية دينية، ومنها ما رواه ابن عباس « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وما رواه عمر « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً » وما روته عائشة « آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « لا يترك بجزيرة العرب دينان » وما رواه أبو عبيدة « آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب » .

وإني أستطيع أن أحكم بأن هذه الأحاديث تؤيد رأيي السابق، لأنها تفيد أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم كان وصية في آخر عهده، ولا يخفى أن حركة الردة بدأت قُبيل وفاته، فظهر الأسود العنسيّ ومُسيلمة الكذاب وغيرهما وهو لا يزال حياً، وقد سبق أن اليد الأجنبية من أهل الكتاب وغيرهم كان لها أثرها في هذه الحركة، وكذلك اليد الرجعية ممن بقي على شركه بين العرب، فكان أمره بذلك عقاباً لهم على سعيهم فيها، وعملهم على تمزيق هذه الوحدة التي عمل ما عمل في سبيل الوصول إليها، فإذا به يراهم يعملون على تمزيقها في آخر حياته. وحينئذ لا يكون جزاؤهم إلا أخذهم بالحزم والشدة، وإلا إخراجهم من بين العرب الذين عملوا على تمزيق وحدتهم. وحينئذ يكون هذا الحكم خاصاً بهم، وتكون هذه سياسة حربية لا نزعة دينية كما ذكرت.

وهذا عندي خير من اضطراب الفقهاء في شأن هذه الأحاديث. لأن ظاهرها أنه يجب إخراج من جاء فيها من كل مكان داخل جزيرة

العرب ، وهى ما بين أقصى عدن أبْيَنَ إلى ريف العراق طولا ، ومن جُدَّة وما والاها من أطراف الشام عرضاً ، ولكن جمهور الفقهاء على أن الذى يمنع منه المشركون من جزيرة العرب هو الحجاز خاصة ،وهو مكة والمدينة واليمامة وما والاها ، لا فيما سوى ذلك ، لاتفاق جميع الفقهاء على أن اليمن لا يمنعون منها ،مع أنها جزء من جملة جزيرة العرب، وعن الحنفية : يجوز لهم ذلك مطلقا إلا المسجد الحرام بمكة ، وعن مالك يجوز دخولهم الحرم للتجارة ، وقال الشافعى : لا يدخلون الحرم أصلا إلا بإذن الإمام لمصلحة المسلمين . وفى رواية عن الشافعى: جزيرة العرب التى أخرج عمر اليهود والنصارى منها مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ، فأما اليمن فليس من جزيرة العرب .

ولا يخفى ما فى أقوال الفقهاء من الاضطراب بين هذه الأحاديث ، ومنشأ هذا الاضطراب هو ما فهموه من أن هذا حكم دينى دائم مثل غيره من الأحكام الدينية التى لا تتأثر بالظروف والأحوال ، والحق كما ذكرت أنه سياسة حربية مع أولئك الأقوام بخصوصهم ، وأنه يزول بزوال الظرف الحربى الذى اقتضاه . على أن ما ذهب إليه بعضهم وهم الحنفية من أنهم يجوز لهم ذلك مطلقا إلا المسجد الحرام بمكة يقصر حكم تلك الأحاديث على تلك البقعة الضيقة ، ويدل على أن إجلاء عمر لمن أجلاه من غيره من بلاد العرب لم يكن لأمر دينى ، وهذا قريب جداً مما ذهبت إليه فى ذلك .

٣ – سياسة الإسكان فى الأمصار

إقامة أمصار منعزلة لمهاجرى المسلمين :

لما استولى المسلمون فى عهد عمر على بلاد العراق وكثير من بلاد الفرس لم يشاءوا أن يخالطوا أهلها فى مدنهم ، حتى لا يحتكّ جندهم بهم فى مساكنهم ، لأن هذا أحفظ لأولئك الجند ، وأبعد بهم عن مفاسد هذه المدن ، وهذا إلى ما بينهم وبين أهلها من الاختلاف فى اللغة ، واللغة هى أداة التفاهم ، وهذا كله هو الذى دعاهم إلى إنشاء مدن منعزلة لهم فى البلاد التى استولوا عليها ، ولا سيما البلاد التى تخالفهم فى الجنس واللغة والدين ، بخلاف من يوافقهم فى ذلك ، إذ يسهل التفاهم بينهم إذا اختلطوا بهم فى مدنهم ، ولهذا بنوا مدينة الكوفة ليعتزلوا فيها عن مدن الفرس التى استولوا عليها ، ولا يخالطوا أهلها من الفرس فى السكن ، وكذلك بنوا مدينة البصرة على الخليج الفارسى ، ليقيموا بها وحدهم أيضاً ، وكذلك بنوا مدينة الفسطاط فى مصر بجوار حصن بابليون ، ولاشك أن اعتزالهم بهذه المدن لم يمكث كثيراً ، لأنهم لم يلبثوا أن ألفوا أهل البلاد ، ولم يلبث أهل البلاد أن دخلوا فى دينهم وتعلموا لغتهم ، فزال الحرج الذى دعا إلى اعتزالهم لهم ، ولا سيما بعد أن صارت هذه المدن الجديدة مساكن عامة لكل الناس على اختلاف طوائفهم ، ولم تبق مساكن خاصة بمهاجرى العرب وحدهم .

السكان الجدد بالمدينة :

فأما المدينة فكانت خليطاً من السكان على عهد عمر ، فتغيرت عما كانت عليه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد أبى بكر ، لأن أهلها فى عهدهما كانوا من العرب خاصة ، أما فى عهد عمر فإنها صارت مسكناً للعرب وغيرهم ممن دخلوا فى حكم الدولة الإسلامية من الفرس والروم وغيرهم ، وبعضهم كان من الأرقاء الذين أسروا فى الحرب بين المسلمين وبينهم ، وبعضهم كان من التجار والصنّاع ونحوهم ممن اقتضتهم الحاجة فى قاعدة هذه الدولة الناشئة ، وهذا إلى الأعراب الذين آثروا الإقامة فيها على خشونة البادية .

ولا شك أن هذا غيّر قليلا فى مجتمع المدينة على عهد عمر ، ودس فيها بعضاً من أهل الفساد من هذه الطوائف الغريبة ، فكان لهذا شىء من الأثر فى نفوس الناس فيها ، ولا سيما بعد أن أخذ المال يكثر فى أيديهم من غنائم الفرس والروم ، وقد سبق أن عمر قال لأبى بكر حين قام بالخلافة — أنا أكفيك القضاء — وأنه مكث سنة لا يأتيه رجلان يتقاضيان إليه ، ولهذا دلالته على مبلغ استقامة الناس فى ذلك العهد .

أما فى عهد عمر فإنه كان بالمدينة سرّاق خشى منهم على رفقة نزلوا فى ناحية السوق بأموالهم ليتجروا بها ، فبات يحرسهم هو وعبد الرحمن ابن عوف على ماسبق فى هذه القصة من سيرته ، وكان بها أيضاً من يجتمع ليلا فى بيته ليشرب الخمر كما جاء فى هذه القصة . وقد عس عمر ليلة فسمع امرأة تقول :

ألا سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح سأل عن نصر الذى ذكرته فى شعرها فرآه من أحسن الناس وجهاً ، فسيره إلى البصرة ليشتغل بالجهاد بدل أن يشتغل به النساء ، وكذلك سمع ليلة وهو يعس نسوة يقلن . أى أهل المدينة أصبح ؟ فقالت امرأة منهن : أبو ذئب . فلما جيء به الى عمر فرآه من أجمل الناس قال له : أنت والله ذئبهن ، وكررها مرتين أو ثلاثة . وسيره إلى البصرة أيضاً .

وكان عمر يخشى تلك الطوائف الغريبة على أهل المدينة ، ويرى أن تبقى المدينة عربية صرفة على مثل ما كانت عليه قبل عهده ، حتى تظل بعيدة عن مثل هذا الفساد الذى أخذ ينتشر فيها ، وحتى لا يكون من هذه الطوائف جواسيس لأعدائهم من الفرس والروم ، يعملون على إشاعة الفتنة ، وعلى تدبير المؤامرات ، ولكن أهل المدينة لم يسمعوا لهذا الرأى منه ، فلم يشأ أن يفرض رأيه عليهم أخذا بسنة الشورى من تغليب رأى الجماعة ، ولأن مثل هذا من التزمت السياسى الذى لا يرضاه الإسلام لأهله .

فلما وقعت الواقعة وطعن أبو لؤلؤة الفارسى عمر طعنته لامهم على عصيانهم له فى ذلك الرأى فقال : قد كنت نهيتكم عن أن تجلبوا علينا من علوجكم (١) أحداً فعصيتمونى . ولكن الواقعة وقعت ولات ساعة مندم ، ولم يكن هناك بد من بقاء المدينة على مثل ما صارت إليه من اختلاط هذه الطوائف بأهلها ، بل كان هذا رأى عمر بعد أن صار هذا الاختلاط ضرورة من الضرورات ، فقد دخل عليه عبدالله بن عباس

---

(١) جمع علج : وهو الكافر الغليظ القوى من العجم ، وقد يطلق على ما يشمل المسلم منهم .

وهو على فراش الموت فقال له : قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ! وكان العباس أبوه أكثرهم رقيقاً . فقال ابن عباس : إن شئت فعلت — يعنى قتلناهم — فقال له : كذبت ، بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ، وحجوا حجكم !

والحقيقة أنه لم يكن هناك بد من هذا التعايش بين الطوائف المختلفة فى الأمصار الإسلامية ، ولا فرق فى هذا بين المدينة وغيرها من الأمصار ، ولا فرق فى هذا بين جميع الطوائف على اختلاف أجناسها وأديانها ، فقد كان أبو لؤلؤة الذى طعن عمر فارسياً نصرانياً ، وكان غلاماً للمغيرة ابن شعبة ، فأرسله إلى المدينة لحاجتها إلى مثله ، لأنه كان نجارا نقاشاً حداداً ، وقد اتهم معه رجل من أهل الحيرة يقال له جُفينة ، وكان رجلا نصرانياً ظئرا لسعد بن أبى وقاص . فاستحضره إلى المدينة ليعلم صبيانها القراءة والكتابة ، وكذلك كان غيرهما من هذه الطوائف الغريبة بالمدينة ، والإسلام دين مدنى يقدّر مثل هذه الحاجات ، ولا يمنع المسلمين أن يستفيدوا حاجاتهم المدنية ممن توجد عندهم ، ولو كان جنسهم يخالف جنسهم ودينهم يخالف دينهم ، فلتكن أمصاره وأوطانه أمصاراً وأوطاناً مدنية للناس جميعاً ، ليتعايشوا فيها إخواناً فى الوطنية والإنسانية ، ويستفيد المسلمون ما ينقصهم من علم نافع أو صناعة نافعة أو غيرهما مما ينفعهم فى دنياهم ويجدونه عند غيرهم ، والزمن كفيل بأن يؤلف بينهم جميعاً على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فيجعل منهم شعباً واحداً لا يفرق بينهم اختلاف فى دين أو جنس ، ويضرب المسلمون بهذا بين الناس أعلى مثل فى التسامح ، وإذا كان عمر قد طعن بيد أبى لؤلؤة

الفارسى النصرانى . فإن عثمان بن عفان قد قتل بعده بيد عربى مسلم ، وكذلك قتل على بن أبى طالب بيد عربى مسلم بعد عثمان بن عفان ، فلا يصح أن يتخذ ما حصل من أبى لؤلؤة وسيلة لإخراج الفرس والنصارى من المدينة ، لأنه لا يصح أن تؤخذ جماعة بجريمة فرد منها ، وإلا عادت جاهلية تؤخذ الجماعة فيها بجريمة الفرد ، ولا يمكن أن يقبل الإسلام هذا بعد أن جاء بشريعة القصاص ، وحكم بأنه لاتزر وازرة وزر أخرى .

ولنا بعد هذا أن نأخذ من رضا عمر بسكنى أمثال أبى لؤلؤة وجفينة المدينة ما يؤيد رأينا السابق فى إجلائه لنصارى نجران ويهود خيبر من أنه كان لضرورة حربية ، ولأمر خاص بهم ذكرناه فيما سبق ، ولو كان لغاية دينية لحرمت المدينة على أمثال أبى لؤلؤة وجفينة من النصارى ، لأنه لا فرق بين نصرانى ونصرانى ، وإنما هى ضرورة السياسة الحربية وحدها ، فإذا زالت هذه الضرورة كان الوطن فى الإسلام للناس جميعاً .

السياسة الخارجية فى خلافة عمر

١ — الحرب بين المسلمين والفرس

استعادة الفرس للعراق واستعادته منهم :

كان لخروج العراق من أيدى الفرس أسوأ أثر فى نفوسهم ، فاضطرب أمرهم حيناً من الزمن، ثم رأوا اشتغال المسلمين بحرب الروم والشام ، ورأوا انتقال خالد بن الوليد إلى الشام بفريق كبير من جيش العراق، ورأوا تركه للمثنى بن حارثة فى جيش ضعيف قعد عن قتالهم ، واكتفى بالمحافظة على ما حرره من أرضهم ، فأجمعوا على أن يستعيدوا العراق من المسلمين ، وأن يقضوا على ما بينهم من الفتن ، فولوا عليهم بوران بنت كسرى أبرويز ، وكانت امرأة ذات حكمة ، فعملت على جمع كلمتهم ، وأخذت تعد الجيوش لاستعادة العراق . واستوزرت رستم ابن الفرخزاد ، وكان من أكبر قوادهم، فأطلقت يده فى أمور دولتها ، وجعلته أميراً على الجند . وأمرت الفرس أن يسمعوا له ويطيعوا ، وكان رجلا جريئاً طموحاً . فبعث القوة فى نفوسهم ، وبث فيهم الأمل فى استعادة العراق .

فلما علم المثنى بذلك انسحب من الحيرة إلى خفان على حدود البادية ،

وكان قد طلب مدداً من المـــدينة ، فانسحب حتى يأتيه هذا المدد ، فأرسل إليه عمر أبا عبيد الثقفى فى جيش من المسلمين ، فلما وصل إليه بخفان سار هو والمثنى حتى التقيا بجيش الفرس بمكان يقال له النمارق بين الحيرة والقادسية فهزماه ، ووجه أبو عبيد قواده والمثنى فى مقدمتهم فاستعادوا العراق كله .

فعظم هذا على رستم وأرسل جيشاً عظيما على رأسه ذو الحاجب بهمن جاذويه ، وكان أشد العجم على العرب ، فسار إلى قتال أبى عبيد وجعل على مقدمته راية كسرى ، وكانت من جلود النمر ، وعرضها ثمانى أذرع ، وطولها اثنتا عشرة ذراعاً ، فتراجع أبو عبيد إلى قرية قس الناطف ، فعبروا النهر إليها وتحصنوا ينتظرون مددهم بها ، وأقبل بهمن عليهم فلم يكن إلا النهر بينه وبينهم ، ثم بعث إلى أبى عبيد يقول له : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم . فأشار أصحاب أبى عبيد عليه ألا يعبر النهر ويدعهم يعبرونه ، فلم يسمع لهم وقال : لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بل نعـــبر إليهم . فلم يمهلهم بهمن حين تم عبورهم أن أمر جنوده فحملوا عليهم ، وفى مقدمتهم الفيلة عليها الجلاجل ، ففزعت منها خيول المسلمين وفرت ولم يثبت منها إلا القليل ، وتقدم أبو عبيد إلى فيل يضربه بسيفه فتقدم إليه فضربه برجله وألقاه على الأرض ووقف فوقه فأزهق روحه ، فلما رأى المسلمون ما حل به ضعفت نفوسهم ، واندفعوا نحو النهر يريدون عبوره فغرق كثير منهم فيه . وقد وقف المثنى بقوم من ذوى البأس يرد الفرس عنهم فى عبورهم ، ولو لا هذا لهلكوا عن آخرهم ، ثم ارتد بمن بقى منهم

والفرس يتبعونه إلى أن بلغهم أن فتنة قامت بالمدائن بين رستم وخصومه، فعاد بهمن بجيشه إلى المدائن، وترك فرقة منه تتعقب المثنى. فأمكنه الله منها وقضى عليها، ثم وقف بمكانه وأرسل إلى عمر يطلب مدداً منه، فأرسل إليه ما طلب من المدد الذى يمكنه به مهاجمة الفرس، وكانوا قد أرسلوا جيشاً آخر لقتال المسلمين، فالتقى الفريقان بالبُويب على شاطىء الفرات، وعبر الفرس هذه المرة النهر إلى المسلمين، فأوقع المسلمون بهم حين عبروا إليهم، وهزموهم هزيمة منكرة، وأمر المثنى الجند فانطلقوا وراء المنهزمين حتى وصلوا إلى ساباط بالقرب من المدائن.

وكان أمر الفرس بعد قيام ما سبق من الفتنة قد صار إلى رستم والفيرزان، فتشاورا فيما يفعلانه بعد هزيمة البويب، وكان أهل الفرس قد ذهبوا إليهما وأرجعوا هزيمتهم إلى اختلافهما، فقالوا: والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت. فاستكتبا بوران كتاباً إلى نساء أبيها كسرى أبرويز وسراريه، فجاءوا بهن وعرفوا منهن أنه لم يبق ذكر من ذريته إلا يزدجرد بن شهريار بن أبرويز، وكانت قد أخفته عند أخواله حين قتل شيرويه بن أبرويز جميع الذكور من ذرية أبيه بعد قتله له، فجاءوا به وهو فى الحادية والعشرين من عمره، فجعلوه ملكاً عليهم، واجتمعت كلمتهم على تأييده حتى يثأر من المسلمين، وينتزع العراق منهم، وكان لهذا أثره فى دهاقين الفرس بالعراق، فأخذوا يعملون على إثارة الفتن بين أهله، ويستعدون لمساعدة جيوش يزدجرد حين تأتى إليهم، فلم يجد المثنى بن حارثة إلا أن ينسحب مرة أخرى من العراق إلى تخوم بادية العرب، فسار بجنده حتى نزل

بذى قار (١) وينتظر المدد من عمر ليهاجم جيوش الفرس ، وكان قد كتب إليه يخبره باجتماعهم على يزدجرد ، وبما أرسلوه من الجيوش التى ألجأته إلى الانسحاب من العراق .

إلحاح الفرس فى الحرب وأثره فى فتح المسلمين لبلادهم :

فاهتم عمر حين علم ما أبلغه إليه المثنى من إلحاح الفرس فى الحرب . ومن اجتماعهم على يزدجرد من أبناء الأكاسرة ، فكتب إلى عماله على الكور والقبائل فى بلاد العرب كلها : لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ ، والعجل العجل . ثم قال : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب . ولما اجتمع له بضعة آلاف خرج بهم ونزل على ماء يقال صرار (٢) فلم يدر الناس أيسير بنفسه إلى العراق أم يرجع إلى المدينة ويؤمّر غيره على الجيش ؟

فسأله عثمان بن عفان فيما يريده من الأمرين ، فجمع الناس يستشيرهم فى ذلك ، فقال العامة : سر وسر بنا معك . وأشار غيرهم بخلاف ذلك ، وطال الجدال بينهم فى هذا الأمر ولم يتفقوا على رأى ، وكره عمر أن أن يتركهم على هذا الحال ، فدعا أصحاب المشورة فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : أحضرونى الرأى فإنى حائر . فأخذ يقلبون الرأى حتى أجمعوا على أن يبعث رجلا من كبار الصحابة أميراً على الجيش ويبقى هو بالمدينة ، وكان ممن رأى هذا عبد الرحمن بن عوف فقال له : أقم وابعث واحداً

---

(١) موضع بين الكوفة وواسط .

(٢) موضع قريب من المدينة .

فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وإنك إن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت ألا يكبر المسلمون ، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله . ولما اجتمعوا على هذا قال عمر : يحق المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلا . وكان الرجل الذى وقع اختيارهم عليه هو سعد ابن أبى وقاص ، وهو من الصحابة السابقين إلى الإسلام .

وهنا تغيرت سياسة المسلمين مع الفرس بعد أن ألحوا فى حرب المسلمين إلى ذلك الحد . وقد سبق أنهم هم الذين بدءوا بالعدوان بعد ذلك الكتاب السلمى الذى بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز يدعوه إلى الإسلام ، ولا يطلب منه شيئاً من الملك ، وأن هذا كان سبباً فى قيام تلك الحرب التى قصد بها المسلمون تحرير بلاد العرب من حكمهم ، وكان العراق فى هذه الحرب التحريرية آخر مقصد لهم ، فلما تم تحريره أقام خالد بن الوليد فى الحيرة ينظم أموره ، ولا يبدأ الفرس بحرب يضيف إليه شيئاً من بلادهم ، وكانت المدائن قاعدة ملكهم على مقربة منه ، بل كان أن نقل أبو بكر قسما كبيراً من جيش العراق إلى الشام وعلى رأسه خالد بن الوليد الذى دوخهم ، ولهذا دلالته على اكتفائه بتحرير العراق من حكمهم ، ولكنهم أبوا إلا إلحاحاً فى مطامعهم الاستعمارية ، فكانوا ينتهزون الفرصة بعد الفرصة فيستعيدون العراق إلى استعمارهم ، مع أن بلادهم كانت تئن من فساد الحكم ، وتنهار من المظالم والفتن التى يستبيح فيها شيرويه بن أبرويز قتل أبيه وجميع إخوته وأبنائهم ، فلا

يبق منهم إلا طفل أخفته أمه عنه ، وهو يزدجرد الذى بحثوا عنه بعد أن تفاقم أمر الفتن بينهم ليجتمعوا عليه ويستبقوا به العراق فى حكمهم . فلم يبق أمام عمر إلا أن يعد لهم جيشاً يقضى على آمالهم فى العراق . ولا يكون هذا إلا بالقضاء على دولتهم الاستعمارية الآثمة ، ليتخلص الفرس أيضاً من ظلمها وطغيانها ، ويفيقوا من غفلتهم وجهلهم بحقيقة حكمها ، ويعرفوا أنه ليس حكماً مقدساً يستمد أصحابه السلطة من الله ، ويستبيحون لأنفسهم فيه دعوى الألوهية أو ما يقرب منها ، ليرضى الناس بمظالمهم وآثامهم ، ويزيدوا إذعاناً لهم كلما زادوا فى ظلمهم . ولا شك أن مثل هذا الحكم الظالم إذا أراد القضاء على حكم الإسلام العادل فإن من حقه أن يقضى عليه قبل قضائه عليه ، إن لم يكن هذا واجباً يأثم بتركه له ، لاحقاً له يجوز السكوت عنه .

هزيمة الفرس فى القادسية والتوغل فى بلادهم :

فلما اختار عمر سعد بن أبى وقاص سار بجيشه حتى بلغ القادسية . وكان بعد اكتماله نحو ثلاثين ألفاً ، فوجد المثنى بن حارثة قد أدركه الموت من جرح أصابه فى بعض المعارك ، وكان الفرس قبل وصوله قد أرادوا خديعة العرب بسياستهم الاستعمارية القديمة ، وكانت قد انتهت بالقضاء على دولة المناذرة التى كانت صنيعة لهم بالعراق ، فأرادوا إحياءها من جديد ليخدعوا بها العرب كما خدعوهم بها قبل الإسلام . وبعثوا قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية ليدعو العرب إلى الاشتراك مع جنودهم لاستعادة دولة آبائه ، فلم ينخدع العرب بدعوته .

لأن الإسلام أيقظهم من غفلتهم ، وجعلهم يؤثرون الحرية الحقيقية فى ظله على الحرية الوهمية فى ظل دولة المناذرة .

فلما وصل سعد بن أبى وقاص إلى القادسية أقام بها ينتظر جيش الفرس. وكان عمر كتب إليه : إذا بلغت القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادّتهم ، وهو منزل رغيب خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر . فأقام سعد بها شهراً ينتظر جيش الفرس ، وكان يزدجرد قد طلب من رستم أن يسير لقتاله وقال له : أنت رجل فارس اليوم ، وأنا أريد أن أوجهك لقتال العرب ، فقال له : دعنى بالمدائن ، فلعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب ، فيكون الله قد كفى ، ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأى فى الحرب أنفع من بعض الظفر ، والأناة خير من العجلة ، وقتال جيش بعد جيش أشد على عدونا ، وإن تزال العرب تهاب العجم ما لم تضربهم بى .

وكان جيش سعد يغير على سواد العراق من أسفله إلى أعلاه ، فبعث مرازبته ودهاقينه إلى يزدجرد أنه إن لم ينجدهم نزلوا على أمر المسلمين طائعين أو مكرهين ، فأحضر يزدجرد رستم وقال له لتسيرنّ أو لأسيرن بنفسى ، فسار رستم بجيش الفرس وعلى مقدمته الجالينوس فى أربعين ألفاً ، وخرج هو فى ستين ألفاً ، وجعل على ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران بن بهرام ، وقد بلغ جيشه حين وصل القادسية عشرين ومائة ألف ، وكان يسير بجيشه متباطئاً ، حتى إنه لم يصل إليها إلا بعد أربعة أشهر ، وكان متشائماً للفساد والضعف الذى وصلوا إليه ، وللقوة التى

وصل إليها العرب بدينهم الجديد ، وقد ذاعت دعوته السامية فكان لها أثرها فى نفوس الناس ، ولا سيما من كانوا على اتصال بهم مثل الفرس ، وقد زاده تشاؤماً ما رآه من نظام المسلمين فى صلاتهم حين شاهدهم فى القادسية ، فقال : ويح عمر ، لقد أكل كبدى ، يعلم هؤلاء الكلاب الآداب . ولكنه رجل فارس ومعقد أملها ، فلا بد أن يمضى فى القتال الذى ندبوه إليه ، ولا بد أن يكون عند حسن ظنهم به .

وكان سعد قائد المسلمين على خلاف ما عليه قائد الفرس ، يثق فى نصر الله لهم أقوى ثقة ، لأن الله وعدهم به وهو لا يخلف وعده ، فخطب فى جنده حين رأى جيش الفرس وقال : إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه [1] (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عبادىَ الصالحونَ) وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب ، وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم ، وتوبقوا آخرتكم .

ثم دعا سعد إليه جماعة من الذين انتهى إليهم رأى الناس ونجدتهم وعظم فيهم شرفهم . كالمغيرة بن شعبة وعاصم بن عمرو من أصحاب الرأى ، وطليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب من أصحاب النجدة ، والشماخ والحطيئة وعبدة بن الطبيب من الشعراء ، وقال لهم : انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فأنتم من العرب

---

(١) ى ١٠٥ س ٢١ .

بالمكان الذى أنتم به ، أنتم شعراء العــــرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال .

وكان بسعد مرض يعاوده الحين بعد الحين ، وهو عرق النساء ودمامل تأتى معه ، فعاوده مرضه فى أول المعركة ، ولكن هذا لم يمنعه من الإشراف عليها وهو يطل عليهم من قصر للفرس اتخذه مسكناً له ، فكان يرمى عليهم بالرقاع فيها أمره ونهيه ، وقد استخلف عليهم خالد ابن عرفطة ، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا . فدار أشد قتال بين الفريقين ثلاثة أيام يترجح فيها أمر المسلمين حينا ، ويترجح أمر الفرس حيناً آخر ، وقد أبلى المهاجرون الأولون وإخوانهم من الأنصار خير بلاء ، ورأت قبائل العــــرب استبسالهم فى القتال فقام فيهم رؤساهم يشيرون إلى المهاجرين والأنصار ويقولون لهم : لا يكونن هؤلاء أجدّ فى أمر الله منكم . ثم يشيرون إلى الفرس ويقولون لهم : ولا هؤلاء أجرأ على الموت منكم . فيشتدون فى القتال مثل المهاجرين والأنصار ، إلى أن بدرت بوادر النصر للمسلمين ، وهبت ريح عاصف فأطارت طيارة رستم عن سريره ، فقصده هلال بن علقمة فضرب جبينه بالسيف فقتله ، ثم صعد سريره يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة ، إلىّ إلى . فأطاف به جند من المسلمين يكبرون ويهللون ، وعرف الفرس ما أصاب قائدهم فولوا منهزمين ، وتعقبهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون ، وقتلوا الجالينوس فيمن قتلوه منهم ، وكان من قتل منهم يبلغون نحو أربعين ألفاً ، ولم يقتل من المسلمين إلا بضعة آلاف . وقد غنم المسلمون منهم ما لا يحصى ولا يعد من الأموال .

وكانت موقعة القادسية موقعة فاصلة بين المسلمين والفرس ، لأن الفرس فقدوا بعدها قوتهم المعنوية ، فلم يثبتوا للمسلمين فى قتال بعدها ، إلى أن وقع القضاء الأخير على دولتهم ، فقد فتح المسلمون المدائن قاعدة ملكهم بعد القادسية ، ففر منها يزدجرد والمسلمون وراءه مدينة بعد مدينة ، وسيأتى بيان آخر أمره فى خلافة عثمان بن عفان .

فكان لوقعة القادسية ذلك الشأن العظيم ، وكان لسعد بن أبى وقاص وإخوانه من المهاجرين والأنصار الفضل الكبير فيها . إذ كانوا قدوة لغيرهم فى صدق القتال ، وكان لصدقهم فى القتال أثره فى نفوس غيرهم من العرب .

نزعة جاهلية خفيفة بعد القادسية :

وقد بدرت من بعض النفوس الضعيفة بعد القادسية نزعة جاهلية خفيفة لا بد من تسجيلها هنا ، ولا يمنعنا من تسجيلها أنها لم تكد تظهر حتى أخذت بأشد ما يكون من الحزم فانتهت لوقتها ، لأنها لم تنته إلا لتعود فى خلافة عثمان شديدة كل الشدة .

فقد سبق ما كان من مرض سعد بن أبى وقاص ، وسعد هو المجاهد القديم الذى كان أول من شجّ شجة فى الإسلام ، وكان المسلمون لا يزيدون على أصابع اليدين ، وكانت له مواقف رائعة فى غزوة أحد وغيرها من الغزوات ، فلا يصح أن يرتاب فى مرضه بالقادسية ، ولكن بعضهم ظن أن مرضه كان تصنعاً ، وأخذوا يتندرون به ، حتى قال واحد منهم :

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم[1]

فبلغ سعدا ما يتندرون به فقال لمن حوله : احملونى وأشرفوا بى على الناس ، فحملوه حتى رأوا ما به من الوجع . ثم أحضر الذين تندروا به وقال لهم : أما والله لو لا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ، والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سُنة يؤخذ بها من بعدى . فلما رأوا هذا منه كفوا عن تندرهم ، فكانت بوادر فتنة انطفأت نارها لوقتها .

ثم كان بعد هذا أن سعداً قسم الفىء فى المقاتلين ، فأصاب الفارس ستة آلاف ، وأصاب الراجل ألفان ، ثم فضل من كان له بلاء فى القتال كعمرو بن معد يكرب وبشر بن ربيعة الخثعمى ، فزاد كل واحد منهم خمسمائة ، ثم بقى بعد هذا شىء كثير غير الخمس الذى نحاه سعد لبيت المال بالمدينة ، فأرسل سعد إلى عمر يسأله فيه ، فأمره أن يرد ما بقى والخمس أيضاً على من شهد الوقعة وعلى من لحق بهم ولم يشهدها ، فوزع هذا عليهم وبقى شىء بعد استيفائهم أنصبتهم ، فأرسل إلى عمر يسأله فيه أيضا ، فأمره أن يوزعه على حملة القرآن ، وإنه ليوزعه عليهم إذ أتاه عمرو بن معد يكرب وبشر بن ربيعة يسألانه شيئاً منه ، ولم يكفهما ما فضلهما به لحسن بلائهما ، فسأل سعد عمراً : ما معك من كتاب الله تعالى ؟ فقال له : إنى أسلمت باليمن ، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن . فأبى سعد أن يجعل له نصيبا من مال هؤلاء الحفاظ ، ثم سأل

---

(١) آمت : فقدت زوجها فهى أيم .

بشراً عما يحفظ من القرآن ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . فضحك الحاضرون ، وأبى سعد أن يعطيه شيئاً ، فأخذتهما عزة الجاهلية لهذا العدل الإسلامى ، وقال عمرو :

إذا قتلنا ولا يبكى لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن على نفد ولا سوية إذ تعطى الدنانير

وقال بشر :

أنخت بباب القادسية ناقتى وسعد بن وقاص علىّ أمير
وسعد أمير شره دون خيره طويل الشذى كابى الزناد قصير (1)
تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قديس والمكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يعار جناحى طائر فيطير

وكان عمرو ممن وقع فى الفتنة مع أهل الردة من العرب ، فلم يكن ينبغى له بعد أن تاب الله عليه أن يعود إلى مثل هذا التنديد بقريش فى شعره ، وهم لم يحيدوا عن العدل معه ، ففضلوه على غيره فى التفضيل بحسن البلاء ، وحرموه من نصيب حفاظ القرآن لأنه لا يحفظ شيئاً منه .

وقد كتب سعد إلى عمر بقصتهما فكتب إليه أن يعطيهما على بلائهما غير الذى أخذاه عليه ، فأعطى كل واحد منهما ألفى درهم ، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى حسن بلائهما ، وفى حاجة إلى جمع الكلمة ، ولكنّ أمثالها سيكثر بعد هذا ويزيد عدده . وسيكون لهذا من النتائج

(1) فى رواية : خيره دون شره

في خلافة عثمان ما يذكرنا بأمرهما هنا . وقد سجلناه هنا لنبين أن ما سيأتي من الفتن له من هذا جذور قديمة ، وأن الشكوى من هذا في خلافة عثمان حدث مثلها في خلافة عمر، وإن لم تبلغ ما بلغت من الشدة .

تحرير الفرس من أكاسرتهم وارتفاع شأنهم بعد تحريرهم :

كان حكم الأكاسرة للفرس حكما استبداديا لا رقيب عليه من الشعب لأنهم كانوا يرونه حكمهم مقدّساً لا يصح أن يكون لغيرهم رأى فيه ، وكانوا يرون أنفسهم آلهة ورعيتهم عبيداً لهم ، بل كانوا يرون مثل هذا في غير رعيتهم من الملوك ومن دونهم ، كما كتب كسرى أبرويز إلى هرقل ملك الروم بعد انتصاره عليهم :

« من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى هرقل عبده الفاجر ، ألم أقض على الإغريق — الروم — إنك تقول إنك تثق في إلهك ، فلماذا إذن لم يخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية ، وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضاً ، على أنى سأغفر لك جميع ذنوبك إذا قدمت إلىّ ومعك زوجتك وأطفالك، وسأمنحك الأراضي والكروم وعروش الزيتون ، وسأنظر إليك نظرة رحيمة . لا تغش نفسك بأملك الخائب في ذلك المسيح الذى لم يستطع أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه » .

ولا طغيان بعد هذا الطغيان ، ولا تجبر بعد هذا التجبر ، وكيف يزعم في نفسه أنه أعظم الآلهة وكانت سيرته من أولها إلى آخرها في منتهى القسوة والظلم ؟ فقد اغتصب الملك من أبيك هرمز وسمل عينيه ، ثم طغى وبغى لكثرة ماله ، وما فتحه من بلاد الروم وغيرهم ، وماطمع

فيه من أموال رعيته ، حتى يقال إنه كان له اثنا عشر ألف امرأة ،وقيل ثلاثة آلاف من النساء ، إلى ألوف الجوارى ، وكان له خمسون ألف دابة وكان أرغب الناس فى الجواهر والأوانى وغير ذلك، وكان يحتقر الناس وينظر إليهم على أنه إله لهم وهم عبيده، يتصرف فيهم على ما يشتهيه ويهواه حتى إنه أمر رجلا اسمه ذاذن أن يقتل كل من فى سجونه ، فبلغوا ستة وثلاثين ألفاً ، فلم يقدر ذاذان على قتلهم فصاروا أعداء له ، واستعمل رجلا على استخلاص بواقى الخراج فعسف فى الناس وظلمهم ، ففسدت نياتهم نحوه ، وكرهوا ملكه أشد كره ،فثاروا عليه ومعهم ابنه شيرويه فقتله وجلس مكانه ، ثم قتل جميع اخوته منه والذكور من أبنائهم ، وكان اخوته سبعة عشر أخا ذوى شجاعة وأدب ، فابتلاه الله بالأمراض ولم يدم له الملك إلا ثمانية أشهر ، ثم أخذ ملكهم يزداد فساداو ضعفاً ، إلى أن وقع بينهم وبين المسلمين ما وقع من الحرب بسبب عدوانهم عليهم وسارت رعيتهم وراءهم يتملقون بحكمهم الفاسد عصبية لجنسهم ، وقد أعمتهم هذه العصبية عن فساد حكمهم ، وسار المسلمون مرغمين فى حربهم إلى نهايته ، ليقضوا على هذا الحكم الفاسد ، وليقضوا على هذه العصبية الفاسدة ، وليعيشوا هم والفرس إخواناً فى ظل حكم عادل ، لاملوك فيه آلهة ولا أشباه آلهة ، ولا رعية فيه عبيد ولاأشباه عبيد،ولو أن المسلمين لم يتعرضوا لعدوانهم عليهم لما كان عليهم شىء فى القضاء على طغيان هؤلاء الأكاسرة ، وفى إنقاذ رعيتهم من طغيانهم الذى أعمتهم عصبيتهم عنه ، لأن الحق له سلطانه على الباطل ، والحكم يجب أن يكون لمن يعدل فيه بقطع النظر عن جنسه ، ويجب انتزاعه ممن يظلم رعيته ولو رضيت به جبناً وعصبية وجهلا، فكيف وقد تعرض المسلمون لعدوان الأكاسرة،

فلا شك أن حقهم فى ذلك يكون أقوى ، ولا شك أن الفرس سيعرفون الفرق بينهم وبين أكاسرتهم ، وهنالك تنقشع عنهم سحب هذه العصبية فيدخلون فى دين الله أفواجاً ، ويكونون أشد عصبية للإسلام من جنسهم ، وقد حصل هذا كله بعد قليل من الزمن ، فدان الفرس جميعاً بالإسلام ، وكان لهم شأن فيه أعظم من شأنهم على عهد أكاسرتهم .

وكان للأقدار الإلهية حكمها فى إرادة القضاء على فساد دولتهم ، لأن المسلمين لم يريدوه فى أول الأمر ، فقد كتب عمر إلى سعد حين بعث إليه يستأذنه فى مطاردة الفرس بعد فتح المدائن : وددت لو أن بيننا وبين الفرس سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال .

ولكن الفرس أبوا إلا الاستمرار فى الحرب ، لتتم إرادة الله فى القضاء على فساد أكاسرتهم . وليهتدوا إلى الإسلام بعد ذهاب دولتهم ، وبهذا انتهت خلافة عمر والحرب دائرة داخل بلادهم .

٢ – الحرب بين المسلمين والروم

تتميم تحرير الشام :

كان أبو بكر قد بعث أربعة جيوش لتحرير الشام من الروم، وعين لكل منطقة جيشاً من الجيوش الأربعة ، وكان على كل جيش منها أمير يصرف القتال فى منطقته ، فإذا اجتمعت فأبو عبيدة بن الجراح أميرها، وكان عمرو بن العاص هو الأمير على جيش فلسطين ، فلما بعث أبو بكر خالد بن الوليد من العراق لمساعدتهم حين أبطؤوا فى القتال كان أميراً على الجيش الذى أتى معه ، وقد ابتدأ عمر عهده بعزل خالد وتولية أبى عبيدة على هذه الجيوش كلها ، لما سبق من أخذه بتقديم السابقين فى الإسلام على غيرهم ، لأنهم أكثر فهما للدين، وأشد استمساكا بأوامره ونواهيه ، وكانت لخالد من هذه الناحية هنات كان أبو بكر يتغاضى عنها لما أبداه من المهارة الحربية الفائقة فى حروب المرتدين والفرس بالعراق ولكن أبا عبيدة عامل خالداً بعد عزله معاملة كريمة ، وبقى معه على ما كان عليه قبل عزله ، فكان له رأيه معه فى قيادة هذه الجيوش ، حتى سارا معاً من نصر إلى نصر ، وقد أبدى خالد من ضروب البطولة فى قتال الروم ما جعله القائد البارز فيها كما كان قبل عزله ، فلما علم عمر أخباره فى القتال بلغ إعجابه بمهارته مبلغه ، وقال : أمَّر خالد نفسه ،

يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال مني . .

وتتابع النصر على الروم في الشام إلى أن بلغ أنطاكية وحلب وبيروت والثغور المجاورة لها ، فوصل المسلمون بقيادة أبي عبيدة في شمال الشام إلى الفرات ، وقربت المسافة بهذا بين جيشهم في الشام وجيشهم في العراق وكان عمرو بن العاص في فلسطين يقود جيشه فيها من نصر إلى نصر، حتى استولى فيها على بيت المقدس ، فكان لاستيلائه عليها وقع كبير ، لما لها من المنزلة الدينية في اليهودية والمسيحية والإسلام ، وكان هرقل قيصر الروم معسكراً بمدينة الرها(١) يتابع أخبار القتال ، فلما وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من تحرير الشام من حكمه قام على شرف عال ألقى منه نظرة على أرض الشام الجميلة . ثم قال : سلام عليك يا سورية ، سلاماً لا اجتماع بعده ، ولن يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً . ثم سار إلى القسطنطينية قاعدة ملكه وقد بلغ الحزن مبلغه منه .

ولما استقر أمر المسلمين بالشام وزّعوا ولاياته بينهم ، فكان لخالد ابن الوليد إمارة قنسرين ، وقد أقام فيها يتابع قتال الروم في أرضهم ، فكان يتوغل في دروبهم ويعود منها بغنائم لا تحصى ولا تعدّ ، فانتجعه رجال من الآفاق يرجون جوائزه فأجز لها لهم ، وكان الأشعث بن قيس الكندي فيمن انتجعه ، وكان من أمراء كندة قبل الإسلام ، وممن ارتد في حركة الردة ثم تاب بعد انتصار المسلمين عليهم ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وكان عمر قد أمره أن يحبس ما يصيبه من المال على ضعفة المسلمين ومن إليهم ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، وهذا إلى هنات

---

(١) هي مدينة أورفا وتقع الآن في تركيا .

أخرى له ، ومنها أنه وهو بآمد من أرمينية دخل حماماً فتدلك بغسل فيه خمر ، فبلغ هذا عمر فكتب إليه : بلغنى أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه ، فلا تمسوها أجسادكم . فكتب إليه خالد : إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر . فكتب إليه عمر : إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء ، فلا أماتكم الله عليه .

فلما فعل خالد فى مال الفىء ما فعل كتب عمر إلى أبى عبيدة أن يستقدم خالداً إليه حتى يعلم : أأجاز الأشعث بن قيس من ماله أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة فقد أقر بخيانته ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف . وأمره أن يعزله على كل حال ، وأن يضم إليه عمله .

فسار خالد إلى المدينة وقال لعمر حين التقى به : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر . فقال عمر : فمن أين هذا الثراء ؟ ومن أين هذا اليسار الذى تجيز منه بعشرة آلاف؟ فقال خالد : من الأنفال والسهمان ، ستين ألفاً فى أيام أبى بكر ، وما زاد عليها ففى أيامك ، فإن شئت فهى لك . فقوّم عمر عروضه فبلغت ثمانين ألف درهم ، فترك له منها ستين وأخذ الباقى لبيت المال ، وقد كلمه بعض الصحابة فى رده له فأبى وقال : إنما أنا تاجر للمسلمين ، والله لا أردُّه عليه أبداً . وقيل إنه ردّ عليه كل ما أخذه منه ، والظاهر أنه لم يرده عليه ، لأن هذا لم يفعله مع خالد وحده ، وإنما فعله مع كل عماله على ما سبق من محاسبته لهم ، وإن لم يكن هذا عن ظاهر خيانة منهم ، ولكنه أراد بهذا أن يحمل عماله على الاقتصاد فى أمر الدنيا ، كما كان يقتصد فيها أيضاً ، ومن العلماء من يرى أنه لم يكن من حقه أن يأخذ عماله فى ذلك بمجرد الظن .

ولم يمكث خالد بعد عزله إلا أربع سنوات ، وكان قد أتى على كل ماله ، فلم يترك غير فرسه وغلامه وسلاحه ، فلما عرف عمر ذلك قال : يرحم الله أبا سليمان ، كان على غير ما ظنناه به . ثم سمع أمه ترثيه وتقول :

أنت خير من ألف ألف من القو م إذا ما كبت وجوه الرجال

فقال : صدقت ، والله إنه لكذلك . وقد اجتمع نساء قريش يبكينه فقيل لعمر : ألا تنهاهن ؟ فقال : وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة (1) على مثله تبكى البواكى . ولعل ما فعلنه من ذلك كان دون ما فعله نسوة أبى بكر حين نهاهن عنه ، وضرب أخته أم فروة بدرّته حين أبين الامتثال لنهيه ، ولعله تساهل فى البكاء على خالد لما كان بينهما قبل موته ، ولحسن السياسة حكمها مع الدين أيضاً .

تحرير مصر وإسلامها باختيارها :

انتهى المسلمون من تحرير الشام من استعمار الروم وهى جزء من الوطن العربى ، وقد سبق بيان حقّ المسلمين فى تحريرها من استعمارهم ، وها أنذا أبين الآن حقهم فى تحرير مصر أيضاً من هذا الحكم الأجنبى وذلك أن حالة الحرب كانت لا تزال قائمة بين المسلمين والروم ، وقد انتقل قسم كبير من جيش الروم إلى مصر ليحاول الهجوم على الشام من الجنوب ، وكان هناك فى تخوم الشام الشمالية جيوش رومية متحفزة للهجوم عليه من الشمال ، فكان هناك خطر محدق به من الجهتين ، وقد

---

(1) صياح وجلبة .

آثر المسلمون أن يتركوا الروم بأرضهم ويتجهوا نحو مستعمراتهم فى شمال أفريقية من مصر وبلاد المغرب .

وهذا إلى أن مصر كانت فى ذلك الوقت مرهقة بحكم أجنبى ظالم ، وقد وصل حين فكر المسلمون فى أمرها إلى منتهى القسوة والوحشية ، فيكون من حق من يمكنه إنقاذها منه أن يبادر إليه ، إن لم يكن هذا من الواجب عليه ، وذلك أنها كانت تدين فى المسيحية بمذهب اليعقوبيين القائلين بأن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا فى المسيح فصارتا فيه طبيعة واحـــدة ، وهو يخالف مذهب الملكية الذى يأخذ به الروم ، لأنهم يقولون : إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، والابن هو الذى اتحد بالإنسان المولود من مريم، فصارا واحداً هو المسيح . وقد أراد هرقل قيصر الروم توحيد المذاهب المسيحية فى مذهب واحد يجمع بينها ، ولما أراد حمل مسيحي مصر عليه أباه بنيامين كبير أساقفتها ، وفرَّ من الإسكندرية إلى قوص بالصعيد ، فأقام بدير قريب منها يقوم فى الصحراء وتحميه الجبال .

فأخذ حكام مصر من الروم يضطهدون أهلها ليحملوهم على ترك مذهبهم ، ومكثوا على هذا عشر سنوات لا يتركون تعذيبهم ، وكان تعذيبا وحشياً قاسيا ، أخذ فيه أخ لكبير أساقفتهم بنيامين ، فأوقدت له المشاعل وسلطت على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض ، ثم خلعت أسنانه ووضع فى غرارة وألقى فى البحر ، إلى غيره ممن لاقى من التعذيب مالاقاه ، حتى هاجر كثير من أهل مصر إلى بلاد النوبة والحبشة .

وقد أراد الله تعالى أن ينقذ مصر من هذا الظلم الذى بلغ نهايته ، لتنعم بالحرية الدينية فى الإسلام الذى جعل شعاره — لا إكراه فى الدين — وتنعم بالعدل الذى يستوى الناس فيه جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، فبعث المسلمين إلى إنقاذها من ذلك بعد إنقاذ الشام ، فسار عمرو بن العاص من فلسطين إليها فى أربعة آلاف من المسلمين أو أقل ، فلما وصل إلى مدينة الفَرَما — وكانت تقع على هضبة قريبة من البحر الأبيض تبعد عن مدينة بور سعيد بأربعة وعشرين ميلا — وجد فيها جيشا من الروم متحصنا بها ، فحاصره فيها شهرا حتى استولى عليها ، ثم سار بعدها حتى بلغ مدينة بلبيس على ثلاثة وثلاثين ميلا من مدينة مصر ، فحاصرها شهرا أيضا حتى استولى عليها ، ثم سار منها إلى مصر وأخذ يحاصر حصونها ، وكان قد بعث إلى عمر يطلب مدداً فأمده بثمانية آلاف عليهم الزبير بن العوام ، وهو من المسلمين السابقين إلى الإسلام فتعاونوا جميعا واستولوا على هذه الحصون ، وباستيلائهم عليها أمكنهم الاستيلاء على مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها ، بل أمكن عمراً بعد أن أقامه عمر واليا عليها أن يتجاوزها إلى ما بعدها ، فسار بجنوده إلى برقة وطرابلس فانتزعهما أيضاً من استعمار الروم ، ثم استأذن عمر أن يجتازهما إلى أفريقية — تونس — فلم يأذن له لئلا يتسع الأمر عليه فيضيع منه ما استولى عليه .

ولولا أنها كانت حرب تحرير ما أمكن عمراً أن يسير بأربعة آلاف من الشام إلى أن يبلغ مدينة مصر ، فلا يثور عليه المصريون ويقطعون عليه خط الرجعة ، ولا يجد من يقاتله إلا جيش الروم فى الفرما وبلبيس ، فإذا فرّ أمامه سار وراءه وهو آمن أن ينتقض أحد من المصريين فى

البلاد التي تركها وراءه ، وكأنهم هم الذين طلبوه لإنقاذهم من هذا الحكم الظالم ، ولو أن مؤرخا ذهب إلى هذا لم يكن ما ذهب إليه بعيداً ، بل يؤيده ما يروى أن بنيامين كبير أساقفتهم كتب إليهم حين بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فوقف جمهورهم موقف الحياد بين المسلمين والروم ، ولم يحارب مع الروم منهم إلا قليل من أعوان الاستعمار ، ثم كان أن رأوا من المسلمين عدلا في حكمهم، وعفة عن أموالهم وإقراراً لحريتهم الدينية ، فأخذوا ينظرون من أنفسهم عن هذا الدين الجديد الذي طرأ عليهم ، ووجدوا في أهله من أخذهم بالعدل والحرية ما لم يجدوه من الروم الموافقين لهم في دينهم ، فأخذوا يدخلون فيه أفواجاً حتى صار هو الدين الغالب عليهم ، وبهذا استردوا به حريتهم السياسية والدينية ، لأنهم دخلوا به في وطن جامع لا يعلو فيه جنس على جنس ، بل يكون لكل جنس فيه من الحقوق الدينية والوطنية مثل ما للجنس الآخر ، وإنه لمن الخطأ كل الخطأ أن يقاس الحكم الإسلامي في مصر بالحكم الأجنبي قبله ، فيجعل حكما أجنبيا أيضا كما يراه بعض من المؤرخين في عصرنا الحديث ، وهم متأثرون في هذا بما يراه مؤرخو أوربا في تاريخنا ، وما كان ينبغي لهم أن يتأثروا به لتعصبهم الديني والجنسي فيه .

هذا وقد كانت مصر آخر ما أنقذه المسلمون من المستعمرات الرومية في خلافة عمر، وقد انتهت خلافته وحالة الحرب قائمة بين الفريقين ، والروم كما سبق هم البادئون بالاعتداء على المسلمين ، فتكون تبعة استمرار الحرب واقعة عليهم ، ولا شيء على المسلمين إذا استمروا فيها للقضاء على حكمهم الاستبدادي ، وعلى ظلمهم في بلادهم ومستعمراتهم .

انتهاء خلافة عمر

قتل عمر وترشيحه ستة للخلافة بالشورى :

مات النبي صلى الله عليه وسلم قبل عمر على فراشه ، ومات بعده أبو بكر على فراشه أيضاً ، ولم يكن لكل منهما حرّاس يقفون على أبوابهما أو يمشون فى غدوهما ورواحهما بجوارهما ، ليحفظوهما من أعداء الاسلام بالمدينة وما حولها ، لأنهما كانا يعتمدان على حفظ الله تعالى ، وقد وهبا حياتهما للدفاع عن دينه ، وكانا يشتركان فى القتال بأنفسهما ، ولا ينظران إلى أنفسهما بأكثر من غيرهما ، فليكن شأنهما مثل شأن غيرهما من المسلمين ، لا جند يقف بأبوابهما ، ولا حرس يتبعهما فى غدوهما وراحهما ، لأن هذا مظهر من مظاهر الملوك الذين يخافون الناس لظلمهم ، ويتعالون بمثل هذا المظهر عليهم ، ولم يكن شأنهما مثل شأنهم ، وإنما كان نبوة وخلافة مثل النبوة .

فلما آلت الخلافة إلى عمر مشى على منهاجهما فى هذا التواضع للناس ، وفى الاطمئنان من قصدهم له بسوء ، لأنه يمشى بينهم بمرقّعته كأقل واحد منهم ، ويرعى حالهم بنفسه فى نهارهم وليلهم ، ويعمل بكل ما فى وسعه على إنصافهم ، ويفتح بابه لكل من يريد إنصافه من المسلمين وغيرهم ، وكانت المدينة قد فتحت أبوابها لكل قاصد ، فوجد بين أهلها

كثير من غير العرب كالفرس والروم ، وكثير من غير المسلمين كالنصارى واليهود ، وهم لا يهمهم تواضع عمر وعدله فى الناس ، ولا يؤمن أن تحدث واحدا منهم نفسه بالانتقام منه تعصبا لجنسه ، والتعصب الجنسى يغطّى على نفس صاحبه ، فيرى العدل ظلماً ، ويرى الحسن قبيحا ، ولكن عمر يمضى فى اقتدائه بصاحبيه ، ويعتمد على حفظ الله مثلهما ، ويرى أنها خلافة مثالية تضرب لحكام الأرض جميعا ، فليكن لها مظهرها الذى يليق بها ، لتؤدى رسالتها على وجه الأرض ، ويعلم بشأنها القاصى والدانى فلعل عهد الطغيان ينتهى ، ولعل عهد الجبروت ينقضى ، فيسير الحكام بين الناس على أنهم بشر مثلهم ، ولا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم آلهة أو أشباه آلهة ، وعلى أن رعاياهم عبيد لهم ، فإذا سولت نفس حاقد عليه بذلك التعصب أن ينوى له شراً فإنه يذهب فيه شهيداً ، والشهادة هى أمنيته وأمنية غيره من الصحابة فى حياتهم .

وقد نال عمر هذه الشهادة على يد معتد أثيم من الفرس بالمدينة ، وهو أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وكان فارسيا نصرانياً من أسرى نهاوَند ، وقد بعثه المغيرة إلى المدينة ليعمل فيها على خراج يدفعه له ، وهو درهمان فى كل يوم ، وكان نجاراً نقاشاً حداداً ، فبينما عمر يطوف بالسوق بين الناس يتفقد أحوالهم بنفسه ، ويفتح صدره لمن يريد الإنصاف منهم ، قصده أبو لؤلؤة فقال : يا أمير المؤمنين ، أعدنى على المغيرة بن شعبة ، فإن علىّ خراجاً كثيراً . فقال له : وما صناعتك؟ فقال : نجار نقاش حداد . فقال له عمر : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، وقد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحى

تطحن بالريح فعلت . فقال : نعم . فقال له عمر : فاعمل لى رحى . فقال : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بهـا من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً .

ولعل عمر أخذ هذا التوعد من قوله — لئن سلمت — لأنه يدلّ على أن فى نفسه شيئاً يخشى منه على سلامتها ، ومن قوله — يتحدث بها من بالمشرق والمغرب — لأن الرحى التى تدور بالريح لا يبلغ شأنها ذلك ، وإنما هو شر أراده بعمر الذى انتصر على مملكتى الفرس والروم معاً ، ولكن ماذا يفعل عمر به وقد يكون مخطئاً فى أنه يتوعده بذلك، والإسلام لا يبيح الاعتداء على حرية الناس بمثل هذا الظن ؟ فتركه ولم يفعل معه شيئاً ، ولو كان هذا الغلام منصفاً لوازن بين عمر يمشى فى السوق ويسمع له ، ويعجب بمقدرته فى صناعته ويقدّرها له بطلبه منه أن يصنع له تلك الرحى ، وبين ملوكه الأكاسرة الذين كانوا يدعون الألوهية لأنفسهم ، لخرج من هذه الموازنة بالرضا بحكم عمر عليه ولو كان خطأ فى نظره ، لأن الحاكم يحكم باجتهاده ، فإن أصاب فهو مأجور وإن أخطأ فهو معذور .

ولكن الله تعالى أراد له الشر حين أبت نفسه إلا أن يقتل عمر لأنه لم يحكم له على ما يهوى ، مع أن الحكم لو تبع هوى كل خصم لضاعت به حقوق كثيرة ، فأخذ خنجراً واندس بين الناس فى صلاة الفجر ، وخرج لعمر وهو ينوى الصلاة ليكبر فطعنه بخنجره طعنات جاءت إحداها تحت سُرته ، ثم اندفع يريد الفرار فتكاثر الناس عليه، وجعل يطعنهم يمنة ويسرة حتى مات منهم ستة ، وأتى رجل من ورائه فألقى

عليه رداءه وطرحه أرضاً . فلما أيقن أنه مقتول بمن قتله طعن نفسه بخنجره فقضى عليها ، ومضى بسر فعلته لا يعلمه إلا الله تعالى ، فقد يكون ما فعله عن مؤامرة اشترك فيها هو وغيره ، وقد يكون انتقاماً لنفسه من حكم عمر الذى لم يصادف هواه ، وقد بحث الصحابة فى هذا فلم يثبت لهم بيقين أنه كان عن مؤامرة ، ولم يتهموا به أحداً غيره ، لأن الإسلام لا يبيح اتهام الناس بالظن ، وهو أعدل من أن يتهم به أناساً قد يكونون أبرياء منه ، وإن استباح بعض مؤرخى عصرنا اتهام غيره بما لا يخرج عن الظن ، مع أن شهود الحادث أقوى منهم فى الحكم .

وقد غشى على عمر من الطعنة فلم يفق إلا حين أسفر الصبح ، فلما أفاق قال : أصلى الناس الصبح ؟ وكان عبد الرحمن بن عوف قد صلى بهم ، فقالوا له : نعم . فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة . ثم أمر ابن عباس أن يخرج إلى الناس فينادى فيهم : أعن ملإ منكم هذا ؟ فقالوا : معاذ الله ، ما علمنا ولا اطلعنا . فقال لهم : فمن طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فرجع إلى عمر وذكر له حديثهم ، فقال : الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجّنى عند الله بسجدة سجدها له قط ، ما كانت العرب لتقتلنى .

ثم دعا عبد الله بن عمر طبيباً فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض لم يتغير لونه ، فقال يا أمير المؤمنين : اعهد . يعنى أنه ميت ، فبكى الناس حين سمعوا قول الطبيب . فقال لهم عمر : لا تبكوا علينا ، من كان باكيا فليخرج . وهذه قوة إيمان تدل على مقدار ما بلغ الإسلام بعظمة نفوسهم ، ثم قال : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وإن أترك فقد ترك من

هو خير مني . يعني أبا بكر والنبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : إنك لو أشرت برجل من المسلمين ائتمنك الناس . فقال : إني قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً ، ولو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به : سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح . وهذا يدل على أن الخلافة لا تقتصر عنده على قريش ولا على العرب ، بل يدخل فيها مثل سالم مولى أبي حذيفة ونحوه ممن يصلح لها من غيرهم ، فقيل له : فأين أنت من عبد الله بن عمر ؟ فقال لمن قالها : قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا . فلم يرض أن يؤثر بها ابنه ، ثم دعا عبد الرحمن ابن عوف وقال له : إني أريد أن أعهد إليك . فقال له : ياأمير المؤمنين إن أشرت عليّ قبلت منك . فقال له عمر : وما تريد ؟ فقال له : أنشدك الله أتشير علي بهذا ؟ فقال له عمر : اللهم لا . فقال له : والله لا أدخل فيه أبداً . فلم يجد عمر إلا أن يجعل الخلافة شورى بعده في هؤلاء الستة : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . فوقعت الشورى على عثمان بن عفان على ما سيأتي بيانه بعد .

ثم فكر عمر في أمر نفسه بعد أن فكر في أمر المسلمين ، وكان عليه دين قد استسلفه من بيت المال يبلغ ستة وثمانين ألف درهم ، لأن ما فرضه لنفسه وآل بيته كان لا يكفي نفقتهم ، فدعا إليه ابنه عبد الله فذكرها له وقال: بع فيها أموال عمر ، فإن وفت فسل بني عدي ، فإن وفت فسل قريشاً ولا تعدهم ، فلم يدفن حتى دفعها عبد الله عنه . ثم أمره أن يذهب إلى عائشة ليستأذنها أن يدفن مع صاحبيه فأذنت في دفنه معهما ،

وكان عبد الله يجلس إلى فراشه وقد وضع رأسه على فخذه ، فلما شعر بدنوّ أجله قال له : ضع خدى بالأرض . فقال عبد الله : هل فخذى والأرض إلا سواء . فقال له : ضع خدى بالأرض لا أم لك . فلما وضعه على الأرض شبّك بين رجليه وجعل يقول : ويلى وويل أمى إن لم يغفر الله لى . وجعل يكرر هذا حتى فاضت روحه ، وكان هذا لثلاث بقين من ذى الحجة سنة (٢٤ هـ . ٦٤٤ م) فكانت مدة خلافته عشر سنين ، وكان فى الثالثة والستين من عمره .

وقد دخل عليه على بن أبى طالب وهو مسجّى بثوب فى ناحية من غرفته فقال : رحمك الله أبا حفص ، ما أحد أحب إلىّ بعد النبى صلى الله عليه وسلم أن ألقى الله بصحيفته منك .

ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتمونى بالصلاة عليه لا تسبقونى بالثناء عليه ، نعم أخو الإسلام كنت يا عمر ، جوادا بالحق ، بخيلا بالباطل ، ترضى حين الرضا ، وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرْف ، طيب الظرف ، لم تكن مداحا ولا مغتابا .

اختيار عثمان للخلافة :

لما دفن عمر اجتمع أهل الشورى الستة لاختيار خليفة من بينهم ، واجتمع معهم عبد الله بن عمر يشير عليهم ، ويكون له حق الترجيح بينهم إذا اختار ثلاثة رجلا وثلاثة آخر ، وقد أمروا أبا طلحة الأنصارى أن يحجبهم ، وكانت مدة الشورى ثلاثة أيام قدرها عمر لهم قبل وفاته ، ثم أخذوا يتشاورون فاشتد الجدال بينهم وارتفعت أصواتهم ، فدخل

عليهم أبو طلحة وقال لهم : أنا كنت لأنْ تدافعوها أخوف منى لأن تنافسوها ، والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ، ثم أجلس فى بيتى فأنظر ما تصنعون ؟ فقال عبد الرحمن لهم : أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فسكتوا ولم يرض واحد منهم أن يخلع نفسه منها ، فقال عبد الرحمن : فأنا أنخلع منها . فقال عثمان : فأنا أول من رضى . وقال سعد والزبير رضينا . وكان طلحة غائبا ، وسكت على فلم يجب بلا أو نعم ، فقال له عبدالرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال له على : أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذارحم ، ولا تألو الأمة نصحا . وقد خشى على أن يؤثر عثمان لأنه كان صهراله ، فقال عبد الرحمن : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدّل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعلى ميثاق الله ألاّ أخصّ ذارحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين نصحا . فرضوا بذلك ووافقوا على أن يختار لهم .

فأخذ عبد الرحمن يتعرف آراء الناس فيمن يختاره خليفة عليهم من الخمسة الباقين ، وبدأ بعلى فقال له : تقول إنك أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ، ولم تبعد ، ولكن لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضره ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ فقال : عثمان . ثم ثنى بعثمان فقال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه(1) ولى سابقة

(١) لأن بنى هاشم وبنى أمية من عبد مناف .

وفضل ، فأين يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لم تحضر أى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ فقال : على .

وإنما بدأ عبد الرحمن بهما لأنه رأى أن كلا من الزبير وسعد وطلحة لا أمل له فى الخلافة معهما ، لأنه لا يدلى بمثل ما ذكره عبد الرحمن فى كل منهما ، ولا سيما قرابة على للنبى صلى الله عليه وسلم ، وشيخوخة عثمان التى روعيت فى اختيار أبى بكر وعمر ، فلا يصح أن يغفل عنها فى عثمان أيضاً ، وقد كان أكبرهم سناً ، وبهذا انحصر هذا الأمر عنده فيهما ، وقد أخذ رأى كل منهما فى الآخر فآثره على غيره من أهل الشورى ، فاختار على عثمان دون غيره إذا صرف هذا الأمر عنه ، واختار عثمان علياً دون غيره إذا صرف عنه أيضاً .

ثم أخذ عبد الرحمن يتعرف رأى الناس فى كل من على وعثمان ، وكان يلتقى فى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلقى من وافى المدينة من أمراء الأجناد ورؤوس الناس ، فرأى أن أكثرهم يميل إلى عثمان دون على ، وقد راعوا فى هذا شيخوخته وأنه أكبر من على سناً ، لأن أبا بكر وعمر إنما أوثرا عليه لأنهما كانا أكبر منه سناً ، فينبغى أن يراعى هذا فى عثمان أيضاً ، وهذا إلى أن قريشاً كانت تخاف إذا ولى عليهم على أن يستأثر بنو هاشم بالخلافة أبداً ، وترى أنها إذا بقيت فى غيرهم تداولوها فيما بينهم ، وكان استناد على إلى قرابته من النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يثير فيهم هذا الخوف ، لأن غيره من بنى هاشم يدلى بهذه القرابة أيضاً ، وقد فاتهم أن عليا كان يدلى بقرابته وسابقته

فى الإسلام لا بقرابته وحدها ، لأنه لو أدلى بقرابته وحدها لكان عمه العباس أولى بالخلافة منه ، لأن العم أقرب من ابن العم ، ولأنه كان أكبر منه سناً .

وهذا عندي هو الذى جعل عبد الرحمن لا يبادر باختيار عثمان للخلافة بعد أن رأى ميل أكثر الناس إليه ، بل يؤثر أن يدعو عثمان وعليا ليبايع منهما من يسير على سنّة أبى بكر وعمر إذا تولى الخلافة ، فلا يؤثر بها أحداً من أقاربه بعده ، ولا يميل فيها إلى هؤلاء الأقارب ، فيقدمهم فى الولايات وما إليها على غيرهم ، لأن عليا له قرابته من بنى هاشم ، وقد خاف بعض الناس إذا تولاها منهم ، وكذلك كان عثمان له قرابته من بنى أمية ، وقد كانوا رؤساء قريش فى الجاهلية ، فيخاف من طمعهم فى الخلافة أيضاً ، فمن يعاهده منهما أن يسير على سنة أبى بكر وعمر فى ذلك بايعه بالخلافة ، لأن كلا منهما يستوى عند الناس إذا عاهدهم أن يأخذ بهذه السنة .

وقد آثر أن يبدأ علياً بذلك لعله يرضى به فيبايعه بالخلافة ، حتى لا يتهمه بأنه آثر بها عثمان صهره ، وقد كانت رغبته فيها أشد من رغبة عثمان ، فتكون مبايعته بها أبعد عن الخلاف والفتنة ، فلما بدأ بعلى قال له : هل أنت مبايعى لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ فأجابه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأنه يرجو أن يفعل بمبلغ علمه وطاقته ، فلا يتقيد بعمل الخليفتين قبله ، فأرسل عبد الرحمن يده من يده وأخذ بيد عثمان وطلب منه أن يبايعه على ذلك ، فقال : اللهم نعم . فبايعه بالخلافة وبايعه الناس بعده ، ولم ير على إلا أن

يبايعه أيضا وفى نفسه ما فيها من عبد الرحمن ، حتى يروى أنه شق الصفوف ليبايع وهو يقول : خدعة وأيما خدعة .

ورأيي أن عبد الرحمن لو ترك الشورى على ما رتبها عمر ولم يخلع منها نفسه ليكون له الخيار فيها وحده لما كان لعلى أن يتهمه بهذا ، لأنها كانت عملية ظاهرة فى لا يمكن الاتهام فيها ، إذ يختار للخلافة من يكون أكثر الستة معه ، ولا يكون لغيره كلام فى عدم اختيارهم له ، لأن هذه هى قاعدة الشورى ، ولها حكمها الذى يجب الرضا به .

الخليفة الثالث
عثمان بن عفان

عثمان وخلافته

التعريف بعثمان :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو الجد الثالث للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه أروى بنت كريز ، وأمها أم حكيم بنت عبد المطّلب ، وهو الجد الأول للنبي صلى الله عليه وسلم . وكان حسن الوجه ، رقيق البشرة ، كبير اللحية ، أسمر اللون ، ليس بالطويل ولا القصير ، وقد أسلم في أول من أسلم من المسلمين السابقين ، وزوجه النبي صلى الله عليه وسلم بنته رقية ، فلما ماتت زوجه بنته أم كلثوم وتزوج بعدهما أم عمر وبنت جندب الدوسية ، فولدت له عمراً وخالدا وأبان وعمر ومريم ، وتزوج فاطمة بنت الوليد ، فولدت له الوليد وسعيدا وأم سعيد ، وتزوج رملة بنت شيبة ، فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو ، وتزوج نائلة بنت الفرافصة ، فولدت له عنبسة وأم البنين .

وكان عثمان سهلا لينا على خلاف ما كان عليه عمر ، فأخذ الناس في خلافته باللين ، ولم يشدد عليهم في أمر الدنيا كما كان عمر يشدد عليهم ، فأحبوه وفضلوا أيامه على أيام عمر ، حتى قال الشعبي : لم يمت عمر حتى ملته قريش ، وقد كان حصرهم بالمدينة وقال : أخوف ما أخاف

على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد . فإن جاء الرجل منهم ليستأذنه فى فى الغزو فيقول : قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك ، وكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة ، فلما ولى عثمان خلى عنهم ، فانتشروا فى البلاد ، وانقطع إليهم الناس ، وكان أحب إليهم من عمر .

وقد سار فى خلافته على الشورى كما كان عليه أبو بكر وعمر ، فأخذ بها من أول يوم من خلافته حين جمع أصحاب الراى ليستشيرهم فى عبيد الله ابن عمر ، وكان قد قتل الهرمزان حينما قيل إنه رؤى مجتمعاً بأبى لؤلؤة ومعهما الخنجر الذى قتل به عمر ، فقال لهم : أشيروا علىّ فى هذا الرجل الذى فتق فى الإسلام ما فتق . فقال على : أرى أن تقتله . وقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! وقال عمرو بن العاص . إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان . فقال عثمان : أنا وليه ، وقد جعلتها دية ، وأحتملها فى مالى .

كما سار فيها على أخذ الناس بالعدل والإنصاف ، فكان يكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال فى الموسم ومن يشكو منهم ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وأنه مع الضعيف على القوى مادام مظلوماً ، فإذا حضروا فى الموسم وحضر من يشكو منهم أنصفهم فى شكواهم ، وأخذ لهم حقهم من عماله إذا كان الحق لهم ، لأنه لم يكن يخشى فى الحق كبيراً ولا صغيراً ، ومن هذا أنه بدأ خلافته بتولية سعد ابن أبى وقاص على الكوفة ، وكان سعد ممن رشحه عمر معه للخلافة ،

وكان عبد الله بن مسعود على بيت مال الكوفة ، فاقترض سعد من بيت المال قرضاً ، فلما تقاضاه عبد الله لم يتيسر له ، فألح عليه عبد الله وارتفع بينهما الكلام ، فقال له سعد : ما أراك إلا ستلقى شراً ، هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل ؟ فقال له عبد الله : أجلْ والله إنى لابن مسعود ، وإنك لابن حمينة . ثم استعان بأناس على استخراج المال ، واستعان سعد بأناس على إنظاره ، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً . فلما بلغ هذا عثمان غضب عليهما لأنهما صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس ينظرون إليهما . وعزل سعداً عن الكوفة ولم يهمه ماله من عظيم المنزلة بين الناس . ومن هذا أيضاً أن محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس كان أبوه قد قتل فى حرب الردة ، فكفله عثمان وأحسن تربيته ، ثم أصاب شرابا فحدّه فيه ولم يتهاون فى أمره . وقد تنسك بعد هذا وصلح حاله ، وطلب من عثمان أن يوليه عملا . فقال : لو كنت أهلا لذلك لوليتك .

خلافة رعاة لا جباة :

وكان مما أخذ به عثمان نفسه وعماله أن يكونوا رعاة لا جباة ، فكتب إليهم فى أول خلافته : أما بعد — فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يكونوا جباة ، ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والأمانة والوفاء ، الا وإن أعدل العدل أن تنظروا فى أمور المسلمين ، وفيما عليهم ، فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنّوا بالذمة ، فتعطوهم

الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدوّ الذى تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء. وفى هذا الكتاب من حسن السياسة أمور :

أولها أن يكون الولاة رعاة لا جباة ، والرعاة جمع راع مأخوذ من قولك — راعيته إذا لاحظته محسنا إليه — وفى الحديث « نساء قريش خير نساء ، أحناه على طفل فى صغره ، وأرعاة على زوج فى ذات يده » من المراعاة وهى الحفظ والرفق وتخفيف الكلف والأثقال عنه ، وهذا هو ما أراده عثمان من ولاته أن يكونوا رعاة لا جباة ، لأن الجباة لا يهمهم إلا جمع المال من الرعية ، فيثقلونها بالضرائب ، ولا ينفقون شيئا منها فى مصالحها ، بل يؤثرون بها أنفسهم ، وينفقونها فى ملذاتهم وشهواتهم .

وثانيها أن يسوّوا بين المسلمين وغيرهم من أهل ذمتهم ، فيما لهم من حقوق ، وفيما عليهم من واجبات ، فيعطى كل منهم ما له من حقوق ويؤخذ من كل منهم ما عليه من واجبات ، ولأهل الذمة من الحقوق مثل ما للمسلمين سواء بسواء ، كما أنهم مثلهم فيما عليهم من الواجبات ، فكلهم سواء فى وطنهم ، لأن الوطن للناس جميعا على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، ومثل هذا لم يكن معروفا فى حكام ذلك العصر من الفرس والروم . بل كان الفرس ينظرون إلى جنسهم على أنه فوق الناس جميعاً ، وكان الروم ينظرون كذلك إلى جنسهم ، وكذلك ينظر الآن خلفاؤهم فى أوربا وأمريكا إلى أهل القارات المخالفة لهم فى أجناسهم وألوانهم ، ولو كانوا موافقين لهم فى دياناتهم ، لأن سياستهم جنسية متعصبة ، كما كانت سياسة الروم قبلهم .

وثالثها أن يأخذوا فى سياستهم بالوفاء مع عدوهم من المحاربين لهم ، ليكون العدل رائدهم مع جميع الناس ، ويستوى فيه من يسالمهم ومن يحاربهم ، فمن اعتدى عليهم لا يقابلون عدوانه إلا بمثل ما اعتدى به عليهم ، ولا يزيدون فى دفع عدوانه شيئا ، والأخذ مع هذا بالعفو أفضل من مقابلة العدوان بالمثل ، لأن الإسلام يؤثر السلم على الحرب .

وبهذا تكون خلافة عثمان خلافة مثالية فى عصرها وفى جميع العصور السابقة عليها واللاحقة لها حتى عصرنا الحديث ، وهى فى هذا مثل خلافة أبى بكر وخلافة عمر قبلها ، لأنه قد أخذ فيه بسنة من قبله ، وعمل على ان يكون هو وولاته رعاة لا جباة مثله ، يعلمون الرعية ويرشدونها إلى ما فيه صلاحها فى دنياها وأخراها ، وينظرون إلى مصالحها فيقدمونها على مصالح أنفسهم ، ويأمرونها بالمعروف وينهونها عن المنكر ، ويكونون قدوة لها فى العمل الصالح ، والبعد عما حرمه الله تعالى من الملذات والشهوات .

وقد يكون لهؤلاء الولاة من المسلمين هنات ، لأنهم بشر غير معصومين ، ولكن أين منها ما كان عليه الفرس والروم على عهدهم ، وقد سبق بيان ما كان من مفاسد الفرس ، وكانت مفاسد الروم لا تقل عنها ، حتى قيل إن سيرتهم كانت قصة مزعجة من مكائد القسس والخصيان والنساء ، ومن دس السم والمؤامرات ونكران الجميل ، ومن قتل القياصرة لإخوتهم عندما يصير الملك إليهم ، وهذا قيصرهم هرقل الذى أنقذ بلادهم من الفرس ، وكان بهذا موضع تقديسهم وتعظيمهم ، فإذا هو يتخذ زوجة

ثانية مع زوجته الأولى على خلاف ما تقضى به المسيحية ، وكان ابنه الأول — قسطنطين — صاحب الحق فى عرشه ، ولكن زوجته غير الشرعية لم تزل به حتى جعل ابنها هرقليوناس شريكا له ، فلما مات انقسم الروم بين ابنيه ، ولم يلبث قسطنطين أن مات بعد ثلاثة أشهر من موت أبيه ، فاتهموا زوجة أبيه بدس السم له ، ولم يلبثوا أن عزلوا ابنها من الحكم ، ولم يكتفوا بهذا بل قطعوا لسان الأم وأنف الابن ، ولم يكن هذا إلا نتيجة لما ارتكبه هرقلهم المقدس من تلك الفضيحة ، هرقلهم الذى أراد أن يجمع المسيحية على مذهب واحد يصلح به أمرها ، فإذا هو خارج عليها ذلك الخروج الشنيع ، وإذا به فى حاجة إلى إصلاح أمره قبل أن يصلح أمرها .

السياسة الداخلية فى خلافة عثمان

١ ـــ نشر وسائل الحضارة فى الخلافة

كان مظهر الدولة قبل خلافة عثمان مظهر نسك ، دعا إليه ما جاء به الإسلام من ذم الإسراف فى أمور الدنيا ، وهذا إلى ما كان من قلة المال بأيديهم ، لما توالى عليهم من الحروب التى جاهدوا فيها بأنفسهم وأموالهم ، فكانت بيوتهم فى المدينة من اللبن ، وكانت ملابسهم من رخيص الملابس ، وكان مسجدهم فى المدينة من اللبن أيضاً ، وكان سقفه من سعف النخيل ، فلما أراد عمر تجديده فى خلافته لم يتجاوز توسعة رقعته وزيادة عدد أبوابه ، وما عدا هذا بقى على ما كان عليه ، فكان أساس جدره من الحجارة وما فوقه من اللبن ، وكانت العمد من الخشب والسقف من الجريد .

ولكن ما جاء به الإسلام من ذم الإسراف فى أمور الدنيا لا يراد به إلا البعد عما حرمه من شهواتها ، فلا يمنع هذا من تناول ما أحل من طيباتها فى غير إسراف ، ولا يمنع المسلمين من التجمل والتزين فى ملابسهم ومساكنهم بقدر ما يمكنهم ، وبحسب ما تقضى ظروف الزمان والمكان بينهم ، وإذا كان عمر قد بنى مسجد المدينة من اللبن واتخذ منه مجلساً

للنظر فى شؤون الدولة ، فإن سعد بن أبى وقاص لما استولى على المدائن فى عهده اتخذ من إيوان كسرى مقراً لسلطانه ، وكان هذا الإيوان يبلغ من عظمة البناء ما يبلغ ، فلما أنشأ الكوفة بجوار المدائن وانتقل إليها بنى لنفسه فيها قصراً سماه الناس قصر سعد ، وجعل منه مقراً لسلطانه بدل إيوان كسرى ، لأن وجوده بين الفرس يقضى عليه بهذا المظهر ليفهموا أن الإسلام دين حضارة لا دين بداوة ، فلا ينظروا إليه وإلى أهله نظرة استخفاف ، ولا يفهموا أنه دين لا يعنى بشؤون الدولة ، ولا شك أن هذا يكون أدعى لاطمئنانهم إليه ، ولفهم نهضة العرب به على حقيقتها ، ولتغيير نظرتهم إليهم بعد نهوضهم به ، لأنهم كانوا كما سبق قبل الإسلام يضعون العرب فى أدنى المراتب ، لما كانوا عليه من الفوضى والوحشية والهمجية ، فلا بد أن تتغير بمثل ما فعله سعد نظرتهم إليهم ، ليستقيم أمرهم معهم .

فلما صارت الخلافة إلى عثمان لم ير أن يبقى الحال فى المدينة على مثل ما كان عليه قبله ، لأن ظروف المسلمين قد تغيرت كل التغيير ، فصاروا إلى غنى بعد فقر ، وكثرت الأموال بأيدى أفرادهم ، وامتلأت بها خزائن بيت المال ، وقد صارت المدينة مقصد الوفود من جميع الأمم ، وصار سكانها خليطاً من جميع الشعوب ، ولم يبق أمرها مقتصراً على العرب وحدهم . بل اختلط بهم كثير من الأجناس والديانات المختلفة ، فلابد أن يتغير مظهرها أيضاً أمام هؤلاء السكان الجدد ، لتأخذ بمظهر الحضارة بعد البداوة ، ويظهر عليها آثار التنعم بعد الخشونة ، ليفهم أولئك السكان أن الإسلام دين حضارة لا بداوة ، ويعرفوا أن أهله

الذين قاموا به لم يبقوا على بداوتهم وخشونتهم، ويشاهدوا أثر الإسلام في قاعدته الأولى، لأنه أدل عليه من قصر سعد في الكوفة.

فبدأ عثمان بالمسجد فزاده أكثر مما زاده عمر، وبناه بالجص والحجارة، ثم اتخذ له دارا بناها بالحجر والكلس[1] وجعل أبوابها من الساج والعرعر، ثم اقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها وكان يأكل لين الطعام، ويلبس فاخر الثياب، ويشد أسنانه بالذهب، واقتدى به في ذلك كبار الصحابة وغيرهم، حتى اتسع عمران المدينة، وصارت إلى مظهر جديد يليق بعظمة الدولة التي صارت قاعدة لها، ويأخذ بنفوس من يقصدها من وفود الشعوب، فلا يستخفون بهذه الدولة الناشئة ولا يطمعون في القضاء عليها لحقارة مظهر قاعدتها. وكان هذا أول مظهر من مظاهر الحضارة أخذ به عثمان في دولة الإسلام الناشئة. ليبني من يأتي بعده على أساسه، حتى تصل الدولة الإسلامية في الحضارة إلى ما قدّر لها، ولا تكون أقل في تقدير الحضارة من الدول السابقة عليها. ولكنها حضارة دينية ليس فيها شيء من المآثم، وحضارة طاهرة لا يشوبها شيء من الرجس.

---

(١) يقال — كلس البيت طلاه بالكلس — وهو ما يقوم به الحجر والرخام ونحوها، ويتخذ منها بإحراقها.

٢ – مشكلة تحديد الملكية

جاء الإسلام بنظام الزكاة التي جعلها حقاً دينياً للفقراء في أموال الأغنياء، فإذا أداها الأغنياء للفقراء لم يكن عليهم حرج في غناهم، ولكن لولي الأمر أن ينظر في تنظيم الغنى حتى لا يصل إلى حد يحصر المال في طبقة من الناس، ويرجع بهم إلى نظام الطبقات الذي ألغاه الإسلام، فلابد أن يكون المال في أيدي جميع الناس، ولابد أن يكون تفاوتهم بحيث لا يصل بهم إلى نظام الطبقات، من أغنياء لا يحصى مالهم ولا يعد، وفقراء لا يجدون ما يكفيهم للقوت، وتنظيم الغنى إذا وصل إلى هذا الحد يكون إما بزيادة ما يجب في الزكاة إلى الحد الذي يقرّب التفاوت بين الناس في الغنى والفقر، وإما برد فضول الأغنياء إلى الفقراء، وكل منهما حق لولي الأمر يختار منهما ما يشاء، وكان عمر قد عزم في خلافته على الحق الثاني، وهذا فيما روى عنه أنه قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء. وقد قال هذا في آخر خلافته حين وجد أنه لم يبق منها ما يتسع لهذا العزم الخطير، لأنه يثير مشاكل كثيرة تحتاج إلى زمن طويل، ولم يبق من خلافته في نظره إلا زمن قصير، فليتركه لمن يأتي بعده من الخلفاء. إذ يكون أمامهم من الزمن ما يتسع له، والظاهر أنها كانت أمنية عابرة من عمر لم يشدد فيها على من يأتي بعده من الخلفاء، فلم يهتم بها عثمان في خلافته،

ولو أنه اهتم بها لكان فيها ما يحل هذه المشكلة على وجه معتدل لا يلغي الملكية ، ولا يمنع السعي في الغنى على الوجه الذي لا يضايق الناس ، ولكنه مضى في خلافته لا يهتم بهذا إلى أن خرج له أبو ذر الغفاري من المسلمين السابقين برأي يخرج عن حد الاعتدال في تحديد الملكية، ويقضي فيها على الحرية الفردية .

وكان أبو ذر قد أتى من البادية في أوائل البعثة إلى مكة فأسلم ، ثم رجع إلى باديته فأقام بها إلى أن قدم المدينة بعد غزوة أُحُد ، وكان لنشأته بالبادية أثر في أخذه بالتقشف والزهد في الدنيا ، ولما استولى المسلمون على الشام آثر الإقامة بها ، وكان معاوية بن أبي سفيان والياً عليها ، فأخذ ينكر عليه احتجان الأموال في بيت المال[1] وينكر عليه تسميته له مال الله ، لأنه يريد بها أن يحتجنه دون المسلمين ، وأن يمحو اسمهم عنه ، ثم ذهب إليه فقال له : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ فقال معاوية له : يرحمك الله يا أبا ذر ! ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ، فقال أبو ذر : فلا تقله . فقال معاوية : فإني لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول إنه مال المسلمين .

ولكن هذا لم يرض أبا ذر ، لأنه لا يريد من معاوية أن يسمي ما في بيت المال مال المسلمين ثم يبقى على احتجانه له دونهم ، بل يريد أن يوزعه عليهم جميعاً حتى لا يبقى شيئا منه ، ولا يحتجنه

---

(١) احتجن المال ضمه واحتواه .

دونهم ليتصرف فيه على حسب ما يراه ، لأن هذا يجعله أشبه بملك له ، وهو لا يملك منه شيئا ، وإنما هو ملك المسلمين جميعاً .

ولم يكتف أبو ذر بهذا الرأى فى بيت المال ، بل أخذ يتعداه إلى الأموال الخاصة ، ويرى أنه لا يصح للشخص أن يجمع من الأموال ما يشاء ، بل يجب أن يكون ما يقتنيه الشخص بحيث لا يتجاوز قوت يوم وليلة ، ثم أخذ يدعو إلى هذا بين أهل الشام وجعل يقول : يا معشر المسلمين ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

ومكث أبو ذر يدعو إلى هذا حتى ولع به الفقراء فى الشام ، وجعلوه أمراً واجبا على الأغنياء ، ووقع بين الفريقين فتن وخلافات ، فشكا الأغنياء إلى معاوية ما يلقونه من الناس ، فكتب إلى عثمان : إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك . فكتب عثمان إليه: إن الفتنة قد أخرجت خطمها(1) وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر ، وابعث معه دليلا ، وزوده وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت .

فلما أرسل معاوية أبا ذر إلى عثمان قال له : يا أبا ذر ، ما لأهل الشام يشكون ذربك (2) ؟ فقال له : إنه لا ينبغى أن يقال مال الله، ولا ينبغى

(1) الخطم : الأنف .

(2) ذربك : حدة لسانك .

للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال له عثمان: يا أبا ذر ، عليّ أن أقضى ما على، وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد .

ولكن أبا ذر أصر مع هذا على رأيه ، حتى دخل على عثمان يوماً وعنده كعب الأحبار ، فقال لعثمان :لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغى للمؤدى للزكاة ألاّ يقتصرَ عليها ، حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ، ويصل القرابات . فقال كعب الأحبار : من أدى الفريضة — الزكاة — فقد قضى ما عليه . فرفع أبو ذر محجنه — عصاه — فضربه فشجه ، ثم قال له : يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا؟ فقال عثمان : يا أبا ذر ، اتق الله ، واكفف يدك ولسانك. ثم استوهب كعبا ما فعله معه فوهبه له .

وفى رواية أنه لما أتى به إلى عثمان من الشام ودخل عليه كان فى ذلك اليوم قد أتى إلى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف ليقسمها على ورثته ، فنضّت البدر[1] حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم على قسمتها ، فقال عثمان : إنى لأرجو لعبد الرحمن خيراً ، لأنه كان يتصدق ، ويقرى الضيف ، وترك ما ترون . فقال كعب الأحبار :صدقت يا أمير المؤمنين. فشال أبو ذر عصاه فضرب على رأس كعب ، وقال : يا ابن اليهودى، تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك ، أنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . «ما يسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطا » فغضب منه عثمان وقال له :

---

(١) واحده بدرة وهى عشرة آلاف درهم أو قدر عظيم من المال أو ما توضع فيه

دار وجهك عنى . ثم أمر أن يتجافاه الناس .

وهذا رأى قد تغالى فيه أبو ذر إلى حد كبير ، كما تغالى فى الدفاع عنه إلى حد الضرب بالعصا لمن يخالفه ، والإسلام لا يعرف التغالى فى الرأى ، ولا يعرف التغالى فى الدفاع عنه إلى هذا الحد ، وما كان لأبى ذر أن يحمل الناس على ما آثره لنفسه من التقشف والزهد ، ولا أن يقيد الملكية بما لا يجاوز قوت يوم وليلة ، ليقضى على حرية الأفراد فى العمل والكسب ، ويفرض عليهم جميعاً عيشة الفقر ، وكان خيراً له من هذا أن يفكر فيما يجعلهم جميعاً يعيشون عيشة الغنى ، لأن الغنى ليس بمذموم فى الإسلام بل هو ممدوح فيه ، وقد امتن الله تعالى به على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الآية — ٨ — من سورة الضحى (ووجدكَ عائلا فأغنى) ولا يمتن به عليه إلا إذا كان ممدوحاً عنده .

وإنما الرأى ما تمنى عمر فيما سبق أن يستقبل من أمره ما استدبر ليأخذ فضـــول الأغنياء فيردها إلى الفقراء ، فلا يأخذ من الأغنياء إلا فضولهم فقط ، وهو ما يفضل بعد وجود أصل الغنى . وتقدير هذا يرجع إلى اجتهاد ولى الأمر ، وإلى تقدير ظروف كل شخص ،وإلى تقدير ظروف كل زمان ومكان ، حتى لا يكون فيه إفراط ولا تفريط ، ولا ينحرف عن الجادّة انحراف رأى أبى ذر .

ومع هذا جعله عمر أمنية له لا أمرا واجبا عليه ، وإنما هو حق له يتصرف فيه على حسب ما يراه ، وبعد أن يزن ما يترتب عليه من المصالح والمفاسد ، ويعرف مقدار حاجة الناس ، وما يحدثه من الآثار فيهم ، ولعله رأى أن الناس قد ألفوا ما هم عليه ، وربما يحدث تغييره

ما يحدث من الفتن ، ولعله رأى أن يصل إلى ما يتمناه من نواح أخرى تقرب هذا التفاوت فى الغنى والفقر ، فقد روى عنه مع ذلك ما يفيد أنه فكر فيه من ناحية أخرى غيره ، وهى أن يسوى بين الناس فى العطاء على خلاف ما جرى عليه فى خلافته ، وكان أبو بكر يسوى بين الناس فى العطاء ، ومن هذا قوله : والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحداً . يعنى آخر الناس إسلاما وأولهم فيه ، فلا يفضل بينهم بالسابقة كما جرى عليه ، وقال أيضاً : لئن عشت حتى يكثر المـــال ، لأجعلن عطاء الرجل ثلاثة آلاف : ألف لكراعه[1] وسلاحه ، وألف نفقة له ، وألف نفقة لأهله. وبهذا يرتفع عطاء جمهور الناس ، ويقل التفاوت بارتفاعه بينهم وبين أغنيائهم ، ولكنه مات قبل ذلك الحول الذى عزم على تحقيق هذا فيه ، فلما بايع عبد الرحمن بن عوف لعثمان اجتمع الناس ليبايعوه ، فصلى بهم وزاد فى عطاء كل واحد منهم مائة ، فأقبلوا عليه يبايعونه ، والظاهر أنه زاد هذا فى عطائهم جميعاً ، ولم يكن هـذا هو الذى أراده عمر ، لأنه كان يريد الزيادة فى العطاء الأقل ، ليجعله قريباً من العطاء الأكثر .

---

(١) الكراع : الخيل والبغال والحمير ، والمراد به هنا خيل الجهاد

٣ - ترك شؤون الزكاة للأفراد

جعل الزكاة من شؤون الدولة قبل خلافة عثمان :

كانت الزكاة من شؤون الدولة فى عهد النبوة ، وفى خلافتى أبى بكر وعمر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم بلغ من اهتمامه بأمرها أن جعلها من أهم ما بعث به ، فقال « إنما بعثت لآخذ صدقة من الأغنياء فأردّها على الفقراء » وبهذا كان للزكاة عمال يرسلهم إلى بلاد العرب ليحصلوها من أهلها ، ويقوموا بتوزيعها على فقرائها ومصالحها ، فإن بقى شىء منها أرسلوه إلى المدينة ليوضع فى بيت المال ، وينفق منه على المصالح العامة للمسلمين جميعا ، وكان لهؤلاء العمال أجر يأخذونه على عملهم مما يحصلونه من الزكاة ، كما جاء فى بيان مصارفها فى الآية — ٦٠ — من سورة التوبة (إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينَ والعاملين عليها والمؤلفة قلوبُهم وفى الرقاب والغارمينَ فى سبيل الله وابن السبيلِ فريضةً من الله واللهُ عليم حكيم) .

وإذا كانت الزكاة فريضة دينية يثاب عليها ويعاقب على تركها فى الآخرة فإنها مع هذا هى الضريبة الأساسية فى الدولة الإسلامية ، ولهذا جعل تحصيلها من شؤونها ، وهى لا تصرف للفقراء وحدهم ، ولا تجمع باسمهم وحدهم ، وإنما تجمع باسم المصالح العامة التى يدخل نصيبهم فيها ،

وفى هذا ما فيه من صون كرامتهم عن جمع شيء باسمهم من مواطنيهم ، وعن إلجائهم إلى مد أيديهم إلى الأغنياء لأخذها منهم، وعن مد الأغنياء أيديهم لإعطائها لهم .

ولما قامت خلافة أبي بكر أرادت بعض القبائل أن تستقل بأمر الزكاة ، ولا تدفع شيئاً منها لبيت المال فى المدينة ، وامتنع بعضها فعلا عن دفعها لأبي بكر ، وكان امتناعها منها مقارنا لارتداد كثير من قبائل العرب عن الإسلام، فاختلف الصحابة فى أمر مانعي الزكاة ، وكان رأى أبي بكر كما سبق أن يقاتلهم عليها ، وكان رأى عمر وأكثر الصحابة ألا يقاتلوهم ، فلم يزل أبو بكر بهم حتى وافقوه على رأيه ، وقاتلوا مانعي الزكاة كما قاتلوا المرتدين عن الإسلام ، لأنها كانت حركة عصيان من الفريقين ، ولأن المانعين للزكاة لو كانوا مخلصين للإسلام لما قاموا بحركتهم فى هذا الوقت العصيب ، ولما انتهزوا هذه الفرصة لقيامهم بها ، بل كانوا يؤثرون عليها الانضمام إلى المسلمين فى قتال المرتدين ، أو التزام السكون على الأقل حتى تنتهى حروب الردة ، لأن قيامهم بحركتهم فيه مساعدة كبيرة لهم، إن لم يكن فيها شيء من التحريض لهم على الاستمرار فى ردتهم .

على أن هنا أمراً يجب التنبيه عليه فى خلاف الصحابة فى قتال مانعي الزكاة ، لأنى لم أعثر على أحد نبه عليه مع أن له أثراً كبيراً فى شأن الزكاة ، وهو أن من خالف أبا بكر فى قتالهم لم يكن خلافه لأنه يرى عدم وجوب الزكاة عليهم ، لأن وجوب الزكاة على المسلمين جميعاً مما لا يخفى أمره على أحد كالصلاة والصوم والحج ، وإنما كان يرى أن تترك شؤون الزكاة للقبائل والأفراد ، ليكون شأنها فى هذا كشأن غيرها من العبادات،

وتكون حقاً دينياً بينهم وبين الله تعالى ، يثيبهم على تأديتها ، ويعاقبهم على تركها ، ولا يكون للدولة حق إكراههم على تأديتها بالسيف ونحوه ، وهذا رأى لا يوجد نص صريح يمنع منه ، ولم يرجح عليه رأى أبي بكر فى مانعى الزكاة إلا الظروف السابقة التى لابست حركتهم ، فإذا لم يكن هناك مثـــل هذه الظروف لم يكن هناك مانع من الأخذ بالرأى المخالف له .

ولما قامت خلافة عمر طلب نصارى العرب منه أن يعاملهم بنظام الزكاة بدل نظام الجزية ، حتى يؤخذ ما يؤخذ منهم باسم الزكاة كالمسلمين من العرب ، لأنهم رأوا فى اسم الجزية ما يضعهم فى منزلة دون منزلة مواطنيهم من المسلمين ، وهم يرون أنهم أبناء وطن واحد ، وقد جعل الإسلام لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأجابهم عمر إلى ذلك وجعلها ضعف ما يؤخذ من المسلمين ، لأنهم عرضوا عليه ذلك على أساس أن يأخذ منهم هذا الضعف ، فأخذه منهم كما عرضوا عليه ، لأنه كان يرى نفسه تاجرا للمسلمين ، والتاجر فى مثل هذا لا يترك شيئاً مما عرض عليه ، فيكون أخذ الضعف منهم لهذا السبب وحده ، ولهذا يجوز عندى أخذ ما يؤخذ منهم باسم الزكاة ولو كان مثل ما يؤخذ من المسلمين لا ضعفه .

ولا شك أن عمر حين فعل هذا لم يغب عليه أن أخذ الجزية منهم جاء به القرآن فى الآية — ٣٩ — من سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنونَ بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق منَ الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية

عن يدٍ وهم صاغرونَ) ولكنه فهم أن الجزية غرامة حربية تؤخذ من المقاتلين من أهل الكتاب ، فإذا دخلوا فى عهدنا زالت عنهم صفة المقاتلين ، وكان لنا أن نعاملهم كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم يهود المدينة حين هاجر إليها ، فلم يفرض عليهم جزية لأنهم لم يكونوا مقاتلين ، وإنما عقد معهم معاهدة جعل لهم فيها مثل ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وهذا إلى أن الجزية لم يبين مقدارها فى الآية ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد فرضها على الرقاب ولم يفرضها على الأموال ، فإن هذا لا يمنع أن تفرض على الأموال كزكاة المال ، فإنها تفرض على الأموال بخلاف زكاة الفطر التى تفرض على الرقاب ، ولا شك أن الزكاة إنما سميت بذلك لأنها تزكى النفس وتطهرها من رذيلة البخل ، وهذا المعنى موجود فيما يؤخذ من أهل الكتاب ، فلا مانع لغة من إطلاق اسم الزكاة عليه ، ولا فرق حينئذ إلا أنها تؤخذ من المسلمين باسم الدين ، وتؤخذ من أهل الكتاب باسم الدولة ، ولهذا فائدته فى توحيد الضريبة بين أهل الوطن على اختلاف أديانهم ، حتى لا يشعروا فيه بفوارق فى معاملتهم من هذه الناحية ، وحتى يكون لهذا أثره فى التقريب بين أبناء الوطن ، وفى شعورهم بأنهم أمة واحدة لا يفرق بينهم اختلاف فى دين أو نحوه .

جعل الزكاة من شؤون الأفراد :

ثم جاءت خلافة عثمان بعد خلافة عمر فخطت خطوة أخرى فى هذا السبيل ، وهى خطوة جعلت الزكاة المفروضة على المسلمين من شؤون الأفراد لا من شؤون الدولة ، واكتفى بيت المال بالخراج الذى يجبى

من الأرض وغيرها ، ولا يؤخذ باسم الزكاة التي تعد من عبادات الإسلام، وبهذا يستوى فى هذا الخراج المسلمون وأهل الكتاب وغيرهم، ويؤخذ منهم جميعاً باسم الدولة لا باسم الدين ، بخلاف الزكاة بعد إطلاقها على ما يؤخذ من غير المسلمين فى عهد عمر ، فإنها كانت تؤخذ من المسلمين باسم الدين ، وتؤخذ من غيرهم باسم الدولة ، وفى هذا شيء من التفرقة بين الفريقين .

وهذه الخطوة التي خطاها عثمان فى خلافته بجعل الزكاة من شؤون الأفراد لا من شؤون الدولة لم تكن ميسرة قبله ، لأن الزكاة كانت هى المورد الوحيد الثابت لبيت المال ، بخلاف الغنائم والفيء لأنها موارد غير ثابتة ، فلم يكن من المتيسر استغناء بيت المال عنها حتى فى خلافة عمر، لأن الأرض الخراجية التي كان يستولى عليها فى العراق والشام لم تصل إلى حالة الاستقرار ، وإنما وصلت إلى هذه الحالة فى خلافة عثمان ، ففيها صار لبيت المال مورد ثابت من خراج هذه الأرض ، وكان موردا وفيرا أغنى بيت المال عن الزكاة ، فتركها للأفراد يؤدونها بأنفسهم ، ويوزعها أهل كل بلد على فقرائها وعلى مصالحها الخاصة بها ، وتكون بهذا حقاً دينياً خاصاً بالمسلمين وحدهم ، ويكون إنفاقه فى مصالحهم الخاصة بهم ، وقد جرى العمل على هذا من خلافة عثمان إلى عهدنا الحاضر ، وهو الرأى الذى رآه الصحابة فى خلافة أبى بكر ، ومنع منـه ظروف المسلمين فى ذلك الوقت .

ولكن ترك شؤون الزكاة للأفراد ليؤدوها بأنفسهم يفوّت ما فى

قيام الدولة بها من حفظ كرامة الفقراء ، ومن صون أيديهم عن مدها لأخذ الزكاة من الأغنياء ، ولهذا أرى أن تؤلف فى كل بلد جماعة تقوم بجمع الزكاة وتوزيعها على مصارفها ، وتكون هى التى تتولى إعطاء نصيب الفقراء لهم ، لتصون بذلك كرامتهم عن مد أيديهم إلى أغنيائهم

وإذا كنت أرى هذا فى تحصيل الزكاة فإنى أرى أن يبقى ما جرى العمل عليه أخيرا من الاكتفاء بنظام الخراج بلا فرق بين المسلمين وغيرهم ، وبلا تفريق بينهم باسم الزكاة والجزية ، لأن ما فعله عثمان من جعل تحصيل الزكاة من شؤون الأفراد لم يكن إلا تمهيداً له

وبعد فإن ما سبق من تصرفات عمر وعثمان فى شأن الزكاة والجزية وكذلك ماروى عن عائشة أنها رأت زيادة زكاة الفطر إلى صاع بعد توسعه الله على الناس — الإحكام فى أصول الأحكام جـ ٦ ص ١٣٧ » ١٣٨ — وكذلك ما ذهب إن بعض الفقهاء من عدم اجتماع الزكاة والخراج ، كل هذا يدل على أن شأن الزكاة ليس كالصلاة ونحوها من العبادات ، وعلى أنها مع كونها عبادة ضريبة مالية تخضع لما تخضع له الضرائب المالية من الظروف والأحوال .

٤ ـــ الخارجون على عثمان

موازنة بين خلافة عمر وخلافة عثمان :

كان عمر يأخذ الناس فى خلافته بشىء من الشدة ، حتى يقضى على ما بنفوسهم من أسباب الفتنة ، وكانت الحروب التى قامت فى خلافته وخلافة أبى بكر بين المسلمين ودولتى الفرس والروم لا تزال فى أوائلها ، ولا تزال نتائجها غير معروفة ، وكانت العرب قريبة عهد بحركة الردة ، فكانت هذه الشدة من عمر لازمة لتوحيد كلمة المسلمين فى هـــذه الحروب الطاحنة .

فلما قامت خلافة عثمان كانت أمور المسلمين قد استقرت فى بلاد العرب ، وفى البلاد التى استولوا عليها من دولتى الفرس والروم ، بل كانت دولة الفرس فى أيامها الأخيرة ، لأن المسلمين استولوا على جميع بلادها ، وكان عثمان سهل الأخلاق ، سخىّ اليد ، فلم يضيق على الناس كما كان عمر يضيق عليهم ، بل بسط لهم فى العطاء ، وأباح لأهل المدينة وغيرهم من العرب أن ينزحوا إلى البلاد الجديدة التى استولى المسلمون عليها ، ليندمجوا فى أهلها ، ويقتنوا ما يشاءون من أموالها ، فعم الرخاء واليسر فى عهده بين الناس ، حتى قال الحسن البصرى : شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم ، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجها ولا أحسن نضرة منه ، فسمعته يقول : أيها الناس ، اغدوا على أعطياتكم .

فيأخذونها وافية ، أيها الناس ، اغدا على كسوتكم . فيغدون فيجاء بالحلل فتقسم بينهم ، حتى والله سمعت أذناى : يامعشر المسلمين ،اغدوا على السمن والعسل ، فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل ، ثم يقول : يا معشر المسلمين ، اغدوا على الطيب . فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبروغيرهما ، والعدوان والله منفى ، والأعطيات دارّة ، والخير كثير ، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا ، من لقى مؤمنا فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره ومؤويه

وقد مكث المسلمون ستة أعوام من خلافة عثمان وجيوشهم توغل فى بلاد الفرس والروم ، وأعلام النصر ترفرف عليها ، والهزائم تتوالى على أعدائها ، حتى استولوا على بلاد الفرس ، وعلى قسم كبير من بلاد الروم ، وعلى مستعمراتهم فى شمال قارة أفريقية ، من مصر إلى بحر الظلمات — المحيط الأطلنطى — فتدفق الخير على المسلمين من كل مكان، ورتع فيه فقراؤهم وأغنياؤهم ، كل على قدر نصيبه منه ، لأن عثمان آثر أن يترك الناس كما سبق أحراراً فى اقتناء المال ، ولم يشأ أن يحمل الناس على الأخذ بالزهد بعد هذه الأموال الوفيرة التى أفاءها الله عليهم ، وبعد أن هيأ لهم من أسباب الرفاهية ما هيأه لهم ، من السمن والعسل والطيب وفاخر الثياب والمساكن ، فليس من حسن السياسة أن يتلفوه أو يتركوه لغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، ليبقوا بمظهر الخشونة والتقشف على مرأى منهم ، ولا شك أن هذا ليس فى شىء من الإسلام، لأنه أحل الطيبات لأهله فى غير إسراف ، حتى تتقارب فى اعتدالهم فيها مظاهر الناس ، ولا يكون فيها كبير تفاوت بين الأغنياء والفقراء .

دوافع الخارجين على عثمان :

ولكن لين عثمان جعل بعض الناس ممن لم يصله من هذا الخير الكثير ما يطمع فيه بغير حق يتجنى عليه في ذلك ، وكانوا خليطاً من شبان قرشيين لم يتهيأ لهم من أسباب الظهور ما تهيأ لغيرهم ، ومن قبائل العرب الذين نظروا بعين الحسد إلى ما بلغته قريش دونهم ، وممن أعمتهم التعصبات السياسية لبعض كبار الصحابة ، ممن يرونهم أحق بالخلافة ، فتوزعوا في الأمصار البعيدة عن المدينة ، ليؤلبوا أهلها على عثمان ، ويحملوهم على الخروج عليه .

فكان منهم بمصر محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر ، وكان الأول كما سبق قد قتل أبوه في حرب الردة ، فكفله عثمان لأنه من بني عبد شمس قومه ، فلما شب أصاب شرابا فحده فيه ، ثم تنسك وأقبل على العبادة ، وطلب من عثمان أن يوليه عملا فقال له : لو كنت أهلا لذلك لوليتك . فلما لم يجبه إلى ذلك طلب منه أن ينتقل إلى مصر ، فأذن له وجهزه إليها ، وكان الوالي عليها عبد الله بن سعد ، وقد عظمه أهلها لما رأوا من عبادته وصلاحه ، فغره تعظيم الناس له ، وظهر به ما كمن في نفسه من الحقد على عثمان بحده له في الشراب وعدم إجابته إلى طلبه من الولاية ، فأخذ يعيب عثمان أمام من اغتر بصلاحه من الناس ، وكان مما يعيبه عليه توليته عبد الله بن سعد ، لأنه كان ممن أباح النبي صلى الله عليه وسلم دمه في فتح مكة ، ومثل هذا لا عيب فيه بعد أن أسلم وحسن إسلامه ، وبعد أن أبلى بلاء عظيما في ولايته على مصر ، كما سيأتي في الكلام على الحرب بين المسلمين والروم في خلافة عثمان ، وقد شاركه في تأليب الناس على عثمان محمد بن

أبى بكر ، وهو من الشبان الذين لم يتهيأ لهم الظهور أيضا ، وكان مع هذا ممن يتشيع لعلى بن أبى طالب .

فكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان : إن محمدا قد أفسد علىّ البلاد هو ومحمد بن أبى بكر . فكتب عثمان إليه : أما ابن أبى بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة ، وأما ابن أبى حذيفة فإنه ابنى وابن أخى وتربيتى ، وهو فرخ قريش (١) فكتب إليه عبد الله بن سعد : إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ، ولم يبق إلا أن يطير . فبعث عثمان إلى ابن أبى حذيفة بثلاثين ألف درهم ، وبجمل عليه كسوة ، فوضعها فى المسجد ثم قال : يا معشر المسلمين ، ألا ترون إلى عثمان يخادعنى عن دينى ويرشونى عليه ؟ فازداد أشياعه تعظيما له وطعنا على عثمان ، وبايعوه على رياستهم ، فكتب إليه عثمان يذكره برّه به وتربيته إياه ، وقيامه لشأنه ، ويقول: إنك كفرت إحسانى أحوج ما كنت إلى شكرك. فلم يزده هذا إلا إصرارا على تأليب الناس عليه ، ونحن لا نلوم عثمان على هذه السياسة السلمية ، لأنها السياسة التى أمر الإسلام بها ، وإنما نلوم هذا الجاحد لنعمته عليه، لأنه لم يقدّر له مع هذا ذلك التسامح العظيم ، وأنه كان يمكنه أن يأخذه بأقصى الشدة ، وكان جديراً بها على سعيه فى تفريق كلمة المسلمين ،ولكن عثمان كما سيأتى أراد فى هذه الفتنة أن يصون نفسه عن دم أصحابها ، ولو لم يصونوا أنفسهم عن دمه .

وكان منهم بالكوفة الأشتر النخعى وعمير بن ضابىء البرجمى وغيرهما

---

(١) فتاها .

من بعض أبناء قبائل العرب ، وكان بعضهم يتشيع لعلى بن أبى طالب ، وبعضهم يحقد على قريش ما وصلت إليه فى الإسلام دونهم ، وكانوا يرون أن شأنها زاد فى خلافة عثمان ، وأنه لابد من خليفة غيره يأخذها ويأخذ الناس بالزهد على مثل ما كانوا عليه قبل خلافته ، وقد سبق مثل هذه النزعة من أبى ذرّ الغفارى فى الكلام على مشكلة تحديد الملكية ، ولكنه لم يكن يخص قريشاً وحدها بنزعته ، وإنما كان يقصد الناس جميعاً بها ، وكان الوالى على الكوفة سعيد بن العاص ، فجعلوا فى مجالسهم يشتمون عثمان وسعيدا ، ويطعنون على قريش ويظهرون حقدهم عليها ، فافتتن الناس فى الكوفة بهم ، وكثر فيها أشياعهم ، فكتب سعيد إلى عثمان فى إخراج نفر منهم إلى معاوية بالشام ، لأنها كانت بعيدة عن الفتنة بعد أن أخرج أبو ذر منها إلى المدينة .

فكتب عثمان إلى سعيد أن يلحقوهم بمعاوية ، ثم كتب إلى معاوية : إن نفراق خلقوا للفتنة ، فأقم عليهم وانههم ، فإن آنست منهم رشدا فاقبل ، وإن أعيوك فارددهم علىّ . فلما قدموا على معاوية أكرمهم وأجرى عليهم ما كان لهم بالكوفة ، وكان يتغدى ويتعشى معهم ، وكان فيهم الأشتر النخعى ، وثابت بن قيس الهمدانى ، وكميل بن زياد ، وزيد ابن صوحان وأخوه صعصعة ، وجندب بن زهير الغامدى ، وجندب بن كعب الأزدى ، وعروة بن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعى ، وعبد الله ابن الكواء . فقال لهم معاوية يوما : إنكم قوم من العرب ، لكم أسنان وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفا ، وغلبتم الأمم ، وحويتم مواريثهم ، وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشا ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة ، إن أئمتكم

لكم جُنّة ، فلا تفترقوا عن جنتكم . فقال له صعصعة بن صوحان : أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها فى الجاهلية، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا احترقت خلص إلينا. فقال معاوية : عرفتكم الآن ، وعلمت أن الذى أغراكم على هـذا قلة العقول ، وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا ، أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرنى بالجاهلية ؟ أخزى الله قوما عظموا أمركم، افقهوا عنى ولا أظنكم تفقهون، إن قريشا لم تعز فى جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى. ثم قال لهم: اذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحدا أبدا ولا يضره ، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة .

رجوع عثمان إلى أهل الشورى فى الخارجين عليه :

فلما أخذهم عثمان بذلك اللين مضوا فى فتنتهم ، وعملوا على إذاعتها فى جميع الأمصار ، حتى وجد بكل مصر جماعة ناقمة على أميره ، وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها فى عيب أمرائهم ، ويكتب جماعة كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، حتى تناولوا المدينة بذلك ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، فيقول أهل كل مصر : إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء . وكان أهل المدينة يقولون : إنا لفى عافية مما فيه الناس . لأن الكتب كانت تأتيهم من جميع الأمصار ، فأتوا عثمان فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟ فقال : ما جاءنى إلا السلامة ، وأنتم شركائى وشهود المؤمنين ، فأشيروا علىّ. فقالوا: نشير عليك أن تبعث رجالا تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

فأخذ عثمان برأيهم ، ودعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وأرسل رجالا سواهم إلى من بقى من الأمصار، فرجعوا جميعاً وقالوا : ما أنكرنا شيئا أيها الناس ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم . وقال عبد الله بن عمر : لقد عيبت على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

ولم يتخلف من هؤلاء الرسل إلا عمار بن ياسر، فإنه استماله الناقمون فيها على عثمان ، فكتب عبد الله بن سعد إليه : إن عمارا قد استماله قوم وانقطعوا إليه ، منهم عبد الله بن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان ابن حمران ، وكنانة بن بشر . وما كان لعمار على سابقته فى الإسلام أن يستميله أمثال هؤلاء النفر ، وما كان له أن يتخلف دون جميع من أرسلهم عثمان ، بل كان عليه أن يرجع إلى المدينة ويخبر بما رآه ،سواء أكان لعثمان أم كان عليه .

ومع هذا كتب عثمان إلى أهل الأمصار : إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم ، وقد رفع إلىّ أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون ، فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان، منى أو من عمالى ، أو تصدّقوا فإن الله يجزى المتصدقين .

فلما قرىء هذا الكتاب فى الأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان ، ثم قدم عليه عمال الأمصار فى الموسم : عبد الله بن عامر عامله على البصرة ، وعبد الله بن سعد عامله على مصر ، وسعيد بن العاص عامله على الكوفة، فقال لهم : ويحكم ، ماهذه الشكاية والإذاعة؟ إنى والله لخائف أن تكونوا

مصدوقا عليكم . فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن العوام ؟ ألم يرجع إليك رسالك ولم يشافههم أحد بشيء ؟ والله ماصدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ، ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة . فقال لهم : أشيروا على . فقال سعيد : هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس ، ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم . وقال عبد الله بن سعد : خذ من الناس الذى عليهم إذ أعطيتهم الذى لهم ، فإنه خير من أن تدعهم . وقال معاوية : قد وليتنى فوليت قوما ولا يأتيك عنهم إلا الخير ، والرجلان أعلم بناحيتهما ، والرأى حسن الأدب . وقال عمرو بن العاص — وكان ممن حضر هذا المجلس : أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك ، فتشد فى موضع الشدة ، وتلين فى موضع اللين.

فقال عثمان : قد سمعت كل ما أشرتم به على ، ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن ، فنكفكفه باللين والمواتاة إلا فى حدود الله ، فإن فتح فلا يكون لأحد علىّ حجة ، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيراً ، وإن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، سكنوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم رجع من الموسم إلى المدينة ومعه أولئك الأمراء ، فدعا عليا وطلحة والزبير ليأخذ رأيهم فى هذه الفتنة ، فلما حضروا قال لهم : أنا أخبركم عنى وعما وليت ، إن صاحبىّ اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى

قرابته ، وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شىء من ذلك لما أقومُ به فيه ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع . فقالوا له : فقد أصبت وأحسنت ، قد أعطيت عبد الله بن خالد ابن أسيد خمسين ألفا ، وأعطيت مروان بن الحكم خمسة عشر ألفا . فأخذ منهما ذلك ، فرضوا وخرجوا راضين

ولما أراد معاوية الخروج إلى الشام قال لعثمان : اخرج معى إلى الشام ، فإنهم على الطاعة ، قبل أن يهجم عليك مالا قِبل لك به. فقال له: لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء وإن كان فيه خيط عنق . فقال له معاوية : فأبعث إليك جندا منهم يقيم معك لنائبة إن نابت . فقال له : لا أضيق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا شك أن عثمان تصرف بهذا كله تصرفا يدل على حسن إخلاصه للإسلام والمسلمين ، وعلى أنه سلك الطريق الصحيح فى هذه الفتنة التى لم يكن هناك ما يدعو إليها ، ولا إلى المثابرة عليها بعد أن عمل كل ما فى وسعه فى سبيل إرضاء أهلها ، ولكنهم كانوا متجنّين بها عليه ، والمتجنى لا يرضيه شىء ممن يتجنى عليه

اشتداد الفتنة والمطالبة بعزل عثمان :

فمضى أصحاب الفتنة فيها بعد هذا كله ، وكانوا يقصدون منها عزل عمال عثمان أولا ، ثم عزله عن الخلافة ثانيا ، لأنه إذا أجابهم إلى عمال يرضونهم من أشياعهم صار من السهل عزله بمساعدتهم ، وقد ابتدأ

أصحاب الفتنة بالكوفة فخرج منهم ألف ليردوا سعيد بن العاص عن دخول الكوفة بعد أن قصد إليها من المدينة ، وساروا حتى نزلوا الجرعة وهى قريب من القادسية ، وفيهم الأشتر النخعى وغيره من أصحاب الفتنة، فلما وصل إليهم سعيد قالوا له : لا حاجة لنا بك . فقال لهم : إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلا ، وإلىّ رجلا ، وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد ؟ ثم رجع سعيد حتى قدم على عثمان فأخبره بما فعلوا ، وأنهم يريدون أبا موسى الأشعرى عاملا عليهم ، فأجابهم إلى هذا وجعل أبا موسى أميراً على الكوفة ، فلما وصل إليها خطبهم وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان ، وما كان لأبى موسى مع سابقته إلا أن يأمرهم بهذا وإن كانوا هم الذين طلبوا تأميره عليهم .

وأخيراً رأوا أن تفرقهم بالأمصار يضعف من أمرهم ، ورأوا أن عمالهم معهم من الجيوش ما يقضى على فتنتهم إذا خرجوا بها عليهم ، فكاتب بعضهم بعضا أن يقصدوا إلى المدينة لخلوها من الجيوش، فيبغتوا أهلها بالخروج على عثمان والمطالبة بعزله، وكان بعض أهلها قد مال إليهم ، وأوهمهم أن عليا وطلحة والزبير لا يريدون عثمان أيضا ، لأنهم آخذوه فيما سبق على بعض تصرفاته ، وإن كان قد أجابهم إلى ما طلبوا منه وأرضاهم ، فاتفقوا على موعد يخرجون فيه إلى المدينة ، وقد أظهروا أنهم يريدون الحج ، وأن يسألوا عثمان عما يأخذونه على عماله ، ويعرضوا عليه شكواهم بأنفسهم ، ليقضى فيها بنفسه ، ولا يكون هناك وسطاء بينهم وبينه ، فلم يهتم عمال الأمصار بأمرهم لهذا ولاستخفافهم بهم ، لأنهم لم يكونوا من أصحاب الرأى فى أمصارهم ، ولأنهم لم يعرفوا نواياهم .

فخـــرج المصريون وعلى رأسهم الغافقى بن حرب العكى ، وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ، وكنانة بن بشر الليثى ، وسودان بن حمران السكونى ، وكانوا فى خمسمائة ، وقيل فى ألف. وخرج الكوفيون وفيهم زيد بن صوحان العبـــدى ، والأشتر النخعى ، وزياد بن النضر الحارثى ، وعبد الله بن الأصم العامرى ، وكانوا فى عدد أهل مصر . وخرج البصريون وعلى رأسهم حرقوص بن زهير السعدى ، وفيهم حكيم بن جبلة العبدى ، وذريح بن عباد ، وبشر بن شريح القيسى، وكانوا أيضا فى عدد أهل مصر ، وسيأتى بيان ما حصل منهم مع عثمان فى الكلام على انتهاء خلافته .

السياسة الخارجية فى خلافة عثمان

١ — بين المسلمين والفرس

إصرار ملك الفرس على الحرب :

قامت خلافة عثمان وقد استولى المسلمون على أكثر بلاد الفرس ، ولكن ملكهم يزدجرد كان لا يزال فى البلاد التى لم يستولوا عليها يعمل لاستعادة ما استولى عليه المسلمون ، ويحرض أهلها للانتقاض عليهم ، فانتقض أهل فارس ونكثوا بعبيد الله بن معمر ، فسار إليهم حتى التقوا على باب إصطخر ، فانهزم المسلمون وقتل عبيد الله ، وكان عثمان قد ولى على البصرة عبد الله بن عامر ، فلما بلغه خبر انهزام المسلمين بفارس استنفر أهل البصرة وسار بهم إليها فالتقوا بإصطخر ، وكان على ميمنته أبو برزة الأسلمى ، وعلى ميسرته معقل بن يسار ، وعلى الخيل عمران ابن الحصين ، ولثلاثتهم صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستعاد فارس بعد أن وطىء أهلها وطأة لم يزالوا منها فى ذل لانتقاضهم ونكثهم لعهدهم .

وكان عثمان قد ولى على الكوفة الوليد بن عقبة بعد سعد بن أبى وقاص ، ثم عزله عنها وولى عليها سعيد بن العاص ، وكان الوليد قد اتهم من خصوم له فى الكوفة بشرب الخمر ، فعزله عثمان مع قرابته له وأقام عليه

الحد بشهادتهم ، وجرى فى هذا على سياسته فى اتقاء أسباب الفتنة بكل ما فى وسعه ، ولو كان هذا على حساب أقاربه ، وقد غزا سعيد فى ولايته على الكوفة طبرستان من بلاد الفرس ، ولم يغزها أحد قبله ، وكان معه فى غزوها الحسن والحسين وابن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص وحذيفة بن اليمان وابن الزبير وناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا أكبر دلالة على رضاهم بإمارته والقتال تحت رايته ، فسار حتى نزل بقومس وكانت على صلحها مع المسلمين ، وأخذ يوغل فى بلاد طبرستان حتى استولى عليها ، ثم صالح أهل جرجان ، وكانت تتاخم بلاد طبرستان على بحر قزوين .

وقد سار عبد الله بن عامر إلى خراسان بعد استعادة فارس وكان أهلها قد نقضوا عهدهم ، فاستولى ثانيا عليها ، ثم أوغل فى غيرها من بلاد الفرس حتى فتح له ما لم يفتح لأحد قبله ، ووصل إلى خوارزم على نهر جيحون وكان الذى وصل إليها جيش من جيوشه بقيادة الأحنف بن قيس ، وقد أراد الاستيلاء عليها فلم يقدر لأن جيشه قد أبعد كثيراً فى هذه البلاد ، فاستشار أصحابه فقالوا له : قال عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعْهُ وجاوزه إلى ما تستطيع

فعاد إلى بلخ وكان قد ترك عليها أسيد بن المتشمس ، وقد قبض ما صالحوا عليه أهلها ، ووافق وهو يجبيهم يوم المهرجان ، فأهدوا له هدايا كثيرة من دراهم ودنانير ودواب وأوانى وثياب وغير ذلك ، فقال لهم : ما صالحناكم على هذا . فقالوا له : لا ، ولكن هذا شىء نفعله فى

هذا اليوم بأمرائنا . فقال لهم : ما أدرى ما هذا ؟ ولعله من حق ، ولكن أقبضه حتى أنظر . فقبضه حتى أتى الأحنف بن قيس فأخبره به ، فسألهم عنه فقالوا له ما قالوا لأسيد ، فحمله إلى عبد الله بن عامر فقال له: خذه يا أبا بحر — كنية الأحنف — فقال له : لا حاجة لى فيه . فضمه عبد الله بن عامر إلى ما استولى عليه من الغنائم . ولما تم لعبد الله هذا الفتح العظيم قال له الناس : مافتح لأحد مافتح عليك : فارس وكرمان وسجستان وخراسان . فقال : لاجرم لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج محرماً من موقفى هذا . فأحرم بعمرة من نيسابور، واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم ، فسار قيس بعد شخوصه إلى عمرته فى أرض طخارستان ، فلم يأت بلدا منه إلا صالحه أهلها وأذعنوا له .

وكان عبد الله بن عامر قد استعمل مجاشع بن مسعود السلمى على كرمان فاستولى على بلادها ، وبنى له قصراً عرف بقصر مجاشع ، وقد هرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ، فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنىّ ، وأدوا العشر منها .

واستعمل أيضا الربيع بن زياد الحارثى على سجستان ، فأتم الاستيلاء على باقى بلادها ، وقد أقام على ولايتها سنة كان كاتبه فيها الحسن البصرى ، فقام بعده فيها عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، وسار فى الفتح حتى استولى على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند ، وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداون ، ودخل فى الداون على صنم لهم يقال له الزور ، وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان ، فقطع يده وأخذ الياقوتتين ،

ثم قال المرزبان : دونك الذهب والجوهر ، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع . ثم استولى على كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة ، وأقام فى ولايته إلى أن اضطرب أمر عثمان ، فاستخلف عليها أمير بن أحمر اليشكرى .

قتل الملك وانتهاء دولة الأكاسرة :

كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز آخر ملوك الفرس ، فلما ضيق المسلمون عليه فى خلافة عمر كتب إلى خاقان الترك وملك الصين يستعين بهما على المسلمين ، فأبطأت رسله إليهما ولم يعودوا إليه بجواب منهما ، فلجأ إلى خاقان الترك فى بلاده وطلب منه أن يعينه على حرب المسلمين ، فأمده بجند من بلاده ، وسار معه إلى خراسان فى جيش كبير من الترك والفرس ، فالتقوا بالمسلمين فى هذه الجموع ببلخ، واضطروهم أن ينسحبوا إلى مرو الروز ، وكان فيها الأحنف بن قيس بجنده ، فاضطر أن ينسحب بهم إلى موضع يجرى نهر مروالروز أمامه ، ويقوم جبل من خلفه ، ليكون النهر خندقا بينه وبين هذه الجموع الكثيرة من الترك والفرس ، فحال النهر بين الفريقين حتى طال مقام خاقان الترك خارج بلاده ، وكان الأحنف قد أذاع فى جيش الترك أنه لا يقصدهم بشيء ، وإنما يريد الفرس وحدهم ، فزال خوفهم من ناحية هجوم المسلمين على بلادهم ، ورجع بهم خاقانهم وترك يزدجرد بمن معه من الفرس .

وكان يزدجرد قد ذهب فى قوة من الفرس إلى مرو الشاهجان فحاصر حارثة بن النعمان وجيشه من المسلمين ، واستخرج خزائنه من مواضعها ،

وكانت تحوى جواهر الأكاسرة وكل ما جمعه من خزائنهم فى فراره أمام جيوش المسلمين ، فلما علم بانسحاب خاقان الترك إلى بلاده أراد أن يلحق به ويحمل هذه الخزائن معه ، فخالفه وجوه قومه وقالوا له : إن هذا رأى سوء ، فإنك إنما تأتى قوما فى مملكتهم وتدع أرضك وقومك ، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم — يعنون المسلمين — فنصالحهم ، فإنهم يلون بلادنا ، وإن عدوا يلينا فى بلادنا أحبُّ إلينا مملكةً من عدو يلينا فى بلاده . وكانت بين الترك والفرس عداوة قديمة ، ولم يجمع بينهم فى حرب المسلمين إلا عداوة الفريقين لهم ، فأبى يزدجرد أن يسمع لهذه النصيحة منهم ، فثاروا به وقاتلوه وحاشيته وأخذوا خزائنه ، ففر منهم إلى خاقان الترك ، وأقام معه بفرغانة عاصمته بسمرقند .

ولما أقام يزدجرد بفرغانة عند خاقان الترك كان يكاتب بعض من يطمئن إليهم بخراسان وغيرها لينتقضوا على المسلمين ويعود إليهم ، فلما كانت خلافة عثمان انتقض أهل خراسان فسار من فرغانة إليها ، ونزل بمرو فاجتمع به بعض من كان يكاتبهم من أهلها ، وكان أن عاد المسلمون إلى الاستيلاء على خراسان وغيرها على ما سبق ، فاضطر إلى أن يختفى ويسير متنكراً من بلد إلى بلد ، حتى أوى إلى بيت طحان ينقر الطواحين على فرسخين من مرو ، فرأى حلته تحت ثيابه فلما نام قتله وأخذها ، وتبين الناس بعد قتله له أنه يزدجرد ، وكان قتله سنة (٣١ هـ : ٦٥١ م) فمكث فى ملكه عشرين سنة ، وبقتله انتهت دولة الأكاسرة ، وأخلدت بلاد الفرس إلى السكينة .

دخول الفرس في الإسلام وارتفاع شأنهم فيه :

فكّر الفرس أولا بعد انتهاء دولة الأكاسرة في أمر ما كانوا عليه معهم ، فإنهم كانوا ينظرون إليهم على أنهم من الآلهة ، وينظرون إلى أنفسهم على أنهم عبيد لهم ، فإذا بهؤلاء الآلهة ينتهى أمرهم إلى أسوإ ما يكون من الفساد ، وإذا بآخرهم يقتل شر قتلة على يد ذلك الطحان السابق ، فرأوا أنهم كانوا في غفلة شـديدة عن حقيقة أمرهم ، وعن تفريطهم في حريتهم لهم ، إلى أن أضعفوا نفوسهم ، وجعلوا منهم عبيدا لهم ، يشقون في سبيل راحتهم ، ويعيشون في حرمان ليتمتعوا بملذاتهم ، وكانت نتيجة هذا كله ذهاب دولتهم ، وحق على دولة هذا شأنها أن تذهب إلى غير رجعة ، وألاّ يفكروا في عودتها ليعود ملوكها آلهة لهم ، وقد وضح أمرهم كل الوضوح ، وظهر أنهم لم يكونوا إلا جبابرة في الأرض ، وأن حكمهم لم يكن إلا حكم طغيان وظلم ، وأنهم لم يكن لهم أن يذعنوا لحكمهم ولو كانوا فرسا مثلهم ، لأن صلاح الحكم يجب أن يقدم على التعصب للجنس .

ثم فكر الفرس ثانيا في دين الإسلام الذى سما بالعرب إلى ذلك الحد ، وقد كانوا يشبهونهم قبله بالكلاب تحقيراً لهم ، فإذا هم يقابلون عدوان ملوكهم عليهم بعدوان يتحرون فيه العدل ، ويقصدون فيه إلى مجرد الدفاع عن دينهم ، فلا يقصدون به إكراههم على الدخول في دينهم ، بل يتركونهم أحراراً يدخلون فيه أو يبقون على دينهم القديم ، وإن كانوا لا يقصرون في الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما فعل

عبد الرحمن بن سمرة فى صنم الزوز ، وكان على ما سبق من ذهب وعيناه ياقوتتان ، فقطع يده وأخذ الياقوتتين ، ثم قال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر ، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع . ثم تركه بعد هذا حراً يسلم أو لا يسلم ، لأن الإسلام لا يصح إلا أن يكون عن طواعية ممن يسلم . ثم لا يقصدون به أيضا طمعاً فى أموالهم ، فلا يأخذون منهم إلا ما عاهدوهم عليه برضاهم ، وهو إنما ينفق فى مصالحهم لا فى شهوات الحكام وملذاتهم ، فإذا أخذوا منهم ما عاهدوهم عليه تعففوا عن غيره كل التعفف ، كما حصل من أسيد بن المتشمس فيما سبق مع أهل بلخ فى يوم مهرجان لهم ، وكانوا قد أهدوا إليه فيه هدايا كثيرة ، فأبى أن يأخذها وقال لهم : ما صالحنا كم على هذا . وكان من أمره فيها وأمر الأحنف بن قيس وعبد الله بن عامر ما سبق .

فلما فكر الفرس فى هذا وذاك هداهم تفكيرهم إلى الدخول فى هذا الدين الذى يسمو على العصبيات ، وينظر إلى الناس نظرة واحدة على اختلاف أجناسهم ، فلا يرفع من أمر العرب الذى ظهر بينهم أولا على غيرهم ، ولا يؤثرهم بشىء على من يدخل فيه من الشعوب الأخرى ، لأنه لا فضل فيه لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى، ليعيش الناس فى سلام وكأنهم أسرة واحدة ، فليدخلوا فى هذه الأسرة الجديدة ليعيشوا فيها هم والعرب إخوانا فى الدين ، وليذهب عهد الأكاسرة الذى كان يجعل منهم عبيداً لهم إلى غير رجعة ، وليرتفع شأنهم بعد إسلامهم إلى أن يكون منهم ملوك مسلمون أعظم من الأكاسرة، وإلى أن يكون منهم فى الإسلام أكابر الفقهاء والعلماء ، وأعاظم الحكماء والأدباء، ممن كان لهم أعظم فضل على الدين والأدب والعلم ، وكان لعلمهم فضله على نهضته فى عصرنا الحاضر .

٢ — بين المسلمين والترك

بدء الترك بالعدوان على المسلمين :

سبق فى الكلام على ما بين المسلمين والفرس أن يزدجرد ملكهم التجأ إلى خاقان الترك ليساعده فى حرب المسلمين ، وأن هذا الخاقان أجاب دعوته لحربهم ، مع أنهم لم يكونوا فى ذلك الوقت يفكرون فى محاربة الترك ، ولو أنهم لم ينضموا إلى الفرس ما فكروا يوماً ما فى حربهم ، لأنهم لا يحاربون إلا من حاربهم ، وقد حارب الفرس الروم حروباً كثيرة ، فلم يساعدهم الترك فى حرب من هذه الحروب ، وكان عليهم أن يقفوا هذا الموقف فى الحرب بين المسلمين والفرس ، ولعلهم ظنوا — وبعض الظن إثم — أن المسلمين سيهاجمون بلادهم بعد أن يستولوا على البلاد الفارسية ، ولكن هذا الظن لا يبيح لهم الاعتداء عليهم ، بل كان يجب عليهم أن يبحثوا عمن ابتدأ بالعدوان على الآخر من المسلمين والفرس ، فإذا كان الفرس هم البادئين بالعدوان لم يكن لهم حق فى مساعدتهم على المسلمين ، ولم يكن لهم حق فى الخوف من اعتدائهم عليهم ، لأنهم إنما يقابلون العدوان بالعدوان ، ولا يبتدئون أحدا بالعدوان أصلا ، فلم يبق إلا حسدهم للعرب على انتصارهم على الفرس ، وهم أمة قليلة العدد ، ولم يكن لهم شأن يذكر بين الأمم ، ولكنه فضل الله يؤتيه

من يشاء ، ولا رادّ لفضله ، وحينئذ يكون الترك هم البادئين بالعدوان على المسلمين ، ولا يكون هناك سبب صحيح يدعو إلى عدوانهم عليهم .

وسبق أيضاً أن المسلمين أفهموا الترك حين شاركوا الفرس فى قتالهم أنهم لا ينوون شيئاً من الشر لهم، وأن هذا كان له بعض الأثر فى نفوسهم حين انصرفوا عن قتالهم وتركوا الفرس وحدهم ، ولكنهم لم يتركوا القتال إلا بعد أن طال عليهم ولم يمكنهم أن ينالوا من المسلمين شيئاً ، ولو أنهم أمكنهم أن ينالوا منهم شيئاً لمضوا فى قتالهم ، ومما يؤيد سوء نيتهم فى انصرافهم عن القتال أنهم أخذوا يزدجرد معهم إلى فرغانة عاصمتهم بسمرقند ، وكان يشتغل فيها بتحريض أهل مملكته على المسلمين ، حتى أمكنه أن يحمل خراسان وغيرها على الانتقاض عليهم ، ثم يسير من فرغانة للانضمام إليهم فى انتقاضهم ، ومثل هذا لم يكن ليخفى على خاقان الترك إن لم يكن بتدبيره معه .

غزو المسلمين للترك :

فلما استولى المسلمون على الباب[1] فى خلافة عمر تهيأ لهم منها غزو الترك ، وكان على الباب ملك يقال له شهريار ، وقد قصد إليه سراقة ابن عمرو بجيش على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ، فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه شهريار وطلب منه الصلح على جزية يدفعها لهم ، فأرسله عبد الرحمن إلى سراقة فقبل منه دفع الجزية ، ثم غزا بلاد

(١) الباب أو الأبواب ثغر الخزر على بحر قزوين .

الترك وفتح موقان وغيرها ، وتولى أمرها وسار فيها بالعدل ، فاطمأن أهلها إلى الإسلام وعدله .

ثم مات سراقة فخلفه عبد الرحمن بن ربيعة ومضى فى غزو الترك ، فخرج بالناس إليهم من الباب حتى انتهى إليهم ، فقال له شهريار ملك الباب : ما تريد أن تصنع ؟ فقال له : أريد غزو بلنجر والترك . فقال له شهريار : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب . فقال له : لكننا لا نرضى حتى نغزوهم فى ديارهم ، وإن معنا أقواما صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا فى هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الأمر لهم دائما ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم . فلما وصل إلى بلنجر قال أهلها : ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت . فهربوا منه وتحصنوا ، فرجع بالغنيمة والظفر وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مائتى فرسخ من بلنجر ، ثم عادوا جميعاً ولم يقتل منهم أحد .

ثم تتابعت غزوات عبد الرحمن عليهم فى خلافة عثمان إلى سنة (٣٢ هـ : ٦٥٢ م) وكانوا قد تذامروا وعزموا على قتال المسلمين بعد أن كانوا يهابونهم ، وهم قوم أولو بأس ونجدة وأهل خشونة مثل العرب ، وكان جيرانهم يتحامونهم لقسوتهم فى قتالهم ، وكان حال المسلمين قد تغير شيئا باشتغالهم بأسباب الفتن ، فكتب عثمان إلى عبد الرحمن وهو على الباب : إن الرعية قد أبطرها البطنة ، فلا تقتحم بالمسلمين ، فإنى أخشى أن يقتلوا . فلم يسمع عبد الرحمن لهذه النصيحة ، وقصد إلى غزوهم فى هذه السنة ، وكانوا لما تذامروا من غزواته قالوا : كنا لا يقربنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة ، فصرنا لا نقوم لها . فقال بعضهم : إن

هؤلاء لا يموتون ، وما أصيب منهم أحد فى غزوهم . وقال بعضهم : أفلا تجربون ؟ فكمنوا للمسلمين فى الغياض ، فلما مر بالكمين نفر من جند المسلمين رموهم فقتلوهم ، وبهذا علموا أنهم يقتلون مثل غيرهم ، فتجمع الترك والخزر لقتال عبد الرحمن ، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا حتى هزموهم ، وقد قتل عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وقتل معه كثير من خيار المسلمين ، وكان سعيد بن العاص أمير الكوفة قد بعث سلمان بن ربيعة — وهو أخو عبد الرحمن — مددا لهم ، فسار حتى لقى المهزومين ونجاهم الله به ، ولما بلغت هزيمتهم عثمان قال : انتكث أهل الكوفة ، اللهم تب عليهم . يعنى ما كان من مخالفتهم لنهيه لهم عن غزو الترك .

فلما مات عبد الرحمن استعمل سعيد أخاه سلمان على الباب واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان ، وأمدهم عثمان بجيش من أهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة ، فاختلف هو وسلمان على الإمارة ، وتعصب لحبيب أهل الشام ، وتعصب لسلمان أهل الكوفة ، حتى قال أهل الشام : لقد هممنا بضرب سلمان. فقال الكوفيون: إذن والله نضرب حبيبا ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم . وقال أوس بن مغراء فى ذلك :

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أمير فى الكتائب مقبل

ونحن ولاة الأمر كنا حماته ... ليالى نرمى كل ثغر ونعكل(1)

---

(1) عكل الرجل : صرعه .

فكان هذا أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وكان الخلاف قبل هذا يقع بين القبائل العربية ، فصار يقع بين أهل الأمصار أيضاً ، ليزيد أمر المسلمين فسادا ، وتقوى بينهم أسباب العصبية ، بعد أن أماتها الإسلام فيهم ، وجعل منهم أمة واحدة لا عصبيات فيها ، ثم يكون بعد هذا قضاء الله فيهم .

وقد غزا حذيفة بن اليمان الترك بعد هذا ثلاث غزوات ، وأتاهم مقتل عثمان فى الثالثة ، فقال حذيفة : اللهم العن قتلته وشتامه ، اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا ، فاتخذوا ذلك سلما إلى الفتنة ، اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف .

وبهذا انقضت خلافة عثمان وحالة الحرب قائمة بين المسلمين والترك ، وكان الترك هم البادئين بالعدوان على المسلمين كما سبق ، ولو أنهم لم يبدؤوهم بالعدوان ما قاتلوهم ، ولم يفكروا يوما فى قتالهم ، لما ورد من بعض الآثار فيهم : اتركوا الترك ما تركوكم .

٣ — بين المسلمين والروم

إصرار الروم على الحرب :

ابتدأت خلافة عثمان ومعاوية بن أبى سفيان على الشام ، وعمرو ابن العاص على مصر ، وابتدأ الروم فكاتبوا من كان منهم بالاسكندرية أن ينقضوا الصلح مع المسلمين ، فأجابوهم إلى ذلك وسار إليهم جيش من القسطنطينية بقيادة منويل الخصى ، فسار اليهم عمرو بجيش من المسلمين، ووقعت بينهما موقعة شديدة انتهت بهزيمة الروم وقتل قائدهم ، وكان الروم قد أخذوا أموال أهل القرى المجاورة للإسكندرية من وافقهم ومن خالفهم ، فلما ظفر المسلمون بهم جاء أهل القرى الذين خالفوهم فشكوا إليهم ما فعل الروم بأموالهم ، فردوها عليهم بعد إقامة البينة منهم على صدقهم .

تحرير بلاد المغرب :

ثم عزل عثمان عمراً عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وأمره بغزو أفريقية — تونس — وقال له : إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلا . وكان قد استشار أهل الرأى من الصحابة فى غزوها فأشاروا عليه به ، ولما أمر عبد الله بغزوها أمده بجيش من المدينة فيه جماعة من أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، منهم

عبد الله بن عباس وغيره ، فسار عبد الله بهم إلى برقة وعليها عقبة ابن نافع ، فانضم إليهم فيمن معه ، وساروا إلى طرابلس فاستولوا عليها وهزموا من بها من الروم، ثم ساروا إلى أفريقية وكان ملكها جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، وكان هرقل ملك الروم قد ولاه عليها بخراج يحمله إليه كل سنة ، وكانت دار ملكه مدينة سبيطلة ، فالتقى المسلمون به فى مكان بينه وبينها يوم وليلة ، فأقام الفريقان به يقتتلان كل يوم من البكرة إلى الظهر ، فإذا أذّن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه .

فلما طال هذا القتال بين الفريقين أرسل عثمان عبد الله بن الزبير بمدد إلى عبد الله بن سعد ، فسار حتى وصل إليه وهو على ذلك الحال ، فقال لعبد الله بن سعد : إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم فى أمداد متصلة وبلادهى لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم إلى أن يضجروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ويقصدونهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فوافقه أعيان الصحابة بالجيش على ذلك ، فلما كان الغد فعلوا ما اتفقوا عليه وتم به النصر لهم ، فقتلوا من الروم مقتلة عظيمة ، وقتل عبد الله بن الزبير ملكهم جرجير ، ووقعت ابنته فى الأسر ، فأعطاها عبد الله بن سعد لعبد الله بن الزبير نفلا ، ثم ساروا إلى سبيطلة فاستولوا عليها ، وغنموا فيها أموالا عظيمة لا تحصى ولا تعد ، ودانت لهم بعدها أفريقية كلها ، وهى بلاد تونس كما سبق .

وكذلك كان أمر معاوية بالشام ، فإنه بلغه أن الروم أجلبوا فى جموع كثيرة يقصدون المسلمين ، فكتب إلى عثمان فأمده بجند من أهل الكوفة عليهم سلمان بن ربيعة الباهلى ، فساروا مع أهل الشام إلى أرض الروم ، فأصابوا منها ماشاءوا وافتتحوا حصوناً كثيرة ، ثم قصدوا إلى أرمينيَّة فاستولوا عليها ، إلى بلاد كثيرة بنواحيها مثل مدينة تفليس وغيرها .

غزو الروم فى البحر :

ثم كتب عثمان إلى معاوية يستأذنه فى غزو البحر إلى قبرس ، فأذن له فيه، وهى أول غزو للمسلمين فى البحر ، وقد قصدها معه جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر ، وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام ، وأبو الدرداء وشداد بن أوس ، وقصدها أيضا عبد الله بن سعد من مصر ، فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها كل سنة ، ويؤدون للروم مثلها لايمنعهم المسلمون من ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم ممن وراءهم ، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم .

وكان أبو الدرداء حين أخذ المسلمون السبي من قبرس ينظر ويبكى ، فقيل له : مايبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فضرب بيده على منكب من سأله وقال : ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره ، بينما هى أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك ، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ماترى ، فسلط عليهم السباء ، وإذا سلط السباء على قوم فليس له فيهم حاجة فبخ بخ للقلوب الرحيمة ، وبخ بخ لمن تبكيهم فى حربهم مأساة عدوهم .

ثم غزا معاوية فى البحر بعد ذلك غزوة الصوارى ، وذلك أن

المسلمين لما استولوا على أفريقية خرج قسطنطين بن هرقل ملك الروم إليها في جمع لم يكن لهم مثله منذ كان الإسلام ، وكانوا في خمسمائة مركب أو ستمائة ، فخرج إليهم معاوية من الشام بسفنه وخرج عبد الله بن سعد من مصر بسفنه أيضاً ، وقد أراد محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة المشاركة في هذه الغزوة ، فقال لهما عبد الله : لا تركبا معنا . لأنهما كانا يعيبان عليه وعلى عثمان ، فركبا في مركب مامعهما إلا القبط من أهل مصر ، والتقت سفن معاوية وسفن عبد الله ، وكانت لعبد الله قيادة البحر ، فلما التقوا بسفن الروم قربوا سفنهم منها ، وربطوا بعضها مع بعض ، واقتتلوا بالسيوف والخناجر ، وقتل من المسلمين خلق كثير ، وقتل من الروم مالا يحصى ولا يعد ، ثم أنزل الله النصر على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحاً ، ولم يبق من الروم إلا الشريد ، وكان محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة أقل المسلمين نكاية وقتالا ، فقيل لهما في ذلك ، فقالا : كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد ؟ استعمله عثمان ، وعثمان فعل كذا وكذا . فأرسل إليهما عبد الله ينهاهما ويتهددهما ، وما كان لهما أن يفعلا هذا وقد قاتل معه في أفريقية من الصحابة من هو خير منهما ، وكذلك قاتل من الصحابة من قاتل مع معاوية وعبد الله بن عامر من عمال عثمان أيضا ، ولو فعل غيرهما فعلهما لتفرقت كلمة المسلمين ، ولم يصلوا إلى ماوصلوا إليه من هذه الفتوح العظيمة .

وبهـــذا انقضت خلافة عثمان وحالة الحرب قائمة بين المسلمين والروم . كما كانت قائمة قبله في خلافتي أبي بكر وعمر ، وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

انتهاء خلافة عثمان

اشتغال عثمان بالجهاد واشتغال القاعدين عنه بعزله :

ها نحن أولاء الآن فى سنة خمس وثلاثين من الهجرة — ٦٥٥ م — والحرب دائرة بين عمال عثمان وأعداء الإسلام شرقا وغربا ، وبرآ وبحرآ ، وعثمان معهم فى الجهاد بنصحه وإرشاده ، وجيوشه منتصرة على الأعداء ، هنا وهناك ، وقد استولت على بلاد الفرس كلها ، وابتدأت تشتبك بالترك ، وهم أقسى وأشد فى القتال من الفرس ، وكذلك استولت على مستعمرات الروم فى بلاد المغرب من برقة إلى طرابلس إلى تونس ، ولكن الروم لايزالون ماضين فى الحرب ، وسيمضون فيه إلى ماشاء الله تعالى ، لأن دولتهم فى القسطنطينية لاتزال قائمة ، وقد رسخ فى أذهانهم من قديم الزمان أنهم سادة العالم ، فلا يمكنهم أن يمدوا يد الصلح لهؤلاء المسلمين من العرب الذين لم يكونوا شيئآ قبل هذا الدين الذى نهض بهم ، وهم لايتعصبون للدين مثل تعصبهم للجنس ، ولايزال خلفاؤهم فى أوربا وأمريكا على مثل هذا التعصب .

وبينما عثمان وعماله على هذا الحال من الجهاد ، وبينما كان عثمان يعمل هذا كله لله ولايأخذ عليه شيئآ من بيت المال لغناه — المبسوط جـ ٣ ص ١٩ — كان هناك أصحاب الفتنة الذين ذكرنا أمرهم فى الكلام على

السياسة الداخلية إلى تواعدهم على القدوم إلى المدينة لإكراهه على اعتزال الخلافة ، وقد نسوا أن مثلهم فى القعود عن الجهاد لايصح له أن يشتغل بالعيب على أولئك المجاهدين ، وقد كان من رأى عبد الله بن عامر أن يشغلهم عثمان عن الفتنة بإرسالهم للجهاد ، ولكن مثلهم إذا أرسل إلى الجهاد فانه لايشتغل إلا بالفتنة بين المجاهدين ، فيكون ضرره بينهم أكثر من ضرره فى القعود مع القاعدين ، وقد سبق ما كان من محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة حين طلبا الاشتراك فى غزوة السوارى فى البحر ، فكان اشتغالهما بالفتنة بين المجاهدين أكثر من اشتغالهم بقتال أعدائهم .

قتلهم لعثمان :

وقد ذكرنا فى الكلام على السياسة الداخلية ما كان من خروج من أصحاب الفتنة من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة ، وقد خرجوا جميعاً فى شوال من السنة السابقة ، فلما قربوا من المدينة نزل البصريون ذا خشب ، وكان هواهم فى طلحة بن عبيد الله أن يكون خليفة ، ونزل الكوفيون الأعوص ، وهواهم فى الزبير بن العوام ، ونزل المصريون ذا المروة وهواهم فى على بن أبى طالب ، فاجتمع نفر من المصريين فأتوا علياً ليعرضوا عليه الخلافة فنهرهم وطردهم ، واجتمع نفر من البصريين بطلحة ونفر من الكوفيين بالزبير ليعرضا عليهما الخلافة ، فنهر كل منهما من عرضها عليه أيضا ، فلما رأوا هذا اتفقوا على أن يبغتوا أهل المدينة قبل أن يستعدوا لهم ، فلم يشعر أهلها إلا والتكبير فى نواحيها منهم ،

وهم ينادون من كفّ يده فهو آمن ، ثم أحاطوا بدار عثمان ولزم الناس بيوتهم ، وكانوا أولا يتركونه يصلى بالناس ، ولا يمنعون من يريد كلامه والدخول عليه فى داره ، وكانوا يطلبون منه أن يعتزل الخلافة فيأبى أن يعتزلها ، لأنه أخذها بإجماع من المسلمين ، فلا يصح أن يعتزلها لهؤلاء الخارجين على إجماعهم ، ولما جاءت الجمعة التى تلى دخولهم المدينة خرج عثمان للصلاة بالناس وفيهم أولئك الخارجون عليه ، فقال لهم فى خطبته : ياهؤلاء ، الله الله ، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فامحوا الخطأ بالصواب . فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا أشهد بذلك . فأقعده حكيم بن جبلة منهم ، وقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبى قتيرة ، ثم ثاروا بأجمعهم وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، ، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه فأدخل داره ، واستقتل نفر من أهل المدينة فى الدفاع عنه . منهم سعد بن أبى وقاص ، والحسين بن على ، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، فأرسل إليهم عثمان بعد أن أفاق من غشيته يعزم عليهم بالانصراف ، فسمعوا له وانصرفوا إلى دورهم .

ومع هذا مكث عثمان يصلى بالناس ثلاثين يوماً ، ولا يجيبهم إلى مايطلبون من اعتزال الخلافة ، فمنعوه بعدها الصلاة بالناس ، وصلى أميرهم الغافقى بن حرب بالناس بعده ، وتفرق أهل المدينة فى حيطانهم ولزموا بيوتهم ، ولا يجالس أحد ولا يخرج إلا بسيفه ليتمنّع به ، إلى أن مضى على حصارهم لعثمان أربعون يوماً ، وقدم ركبان من الأمصار فأخبروهم بأن أهلها يستعدون للخروج إلى المدينة لقتالهم ، فشددوا الحصار على

عثمان ، ومنعوه كل شيء حتى الماء ، فكان آل حزم جيرانه يسقونه في الغفلات ، ولزم ناس من أهل المدينة بيته ليحموه منهم ، فأقسم عليهم أن يرجعوا إلى دورهم ، لأنه لا يريد قتالهم ، فرجعوا إلا الحسن بن علي ، وابن عباس ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ، وأشباها لهم.

ولما قدم موسم الحج أشرف عثمان من داره على الناس ، واستدعى ابن عباس فأمره أن يحج بالناس ، فقال له : جهاد هؤلاء أحب إليّ من الحج . فأقسم عليه فانطلق بالناس يحج بهم ، واستمر أولئك الخوارج يحاصرونه إلى أن بلغهم أن أهل الموسم يريدون قصدهم لقتالهم ، وأن يجمعوا هذا إلى حجهم ، وهذا إلى ما سبق من استعداد أهل الأمصار للخروج إليهم . فقال بعضهم لبعض : لا يخرجنا من هذا الأمر الذي وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل ، فيشتغل الناس عنا بذلك. وحينئذ قصدوا باب دار عثمان ليدخلوها عليه فيقتلوه أو يعتزل الخلافة ، فمنعهم الحسن ابن علي ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، ومن معهم من أبناء الصحابة ، فزجرهم عثمان وقال لهم : أنتم في حل من نصرتي . فأبوا ولزموا باب الدار ، فتركوهم وأتوا الدار من خلفها ، ودخلوا من دار عمر بن حزم إليها ، حتى امتلأت الدار بهم ولا يشعر من بالباب من أبناء الصحابة السابقين .

وكان عثمان بحجرة منها يقرأ في المصحف ولا يبالي بهم ، فندبوا رجلا منهم ليدخل عليه فيقتله ، فانتدب له رجل فدخل عليه وقال له : اخلعها وندعك . فقال له : لست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ، ويهين أهل الشقاوة . يعني عثمان أنها نعمة من الله عليه

كفيرها من نعمه ، ولا يعنى أنه أخذ الخلافة بتفويض من الله تعالى ، لأنهم كانوا يأخذونها بالشورى ، وتفويض الأمة . فهاب الرجل أن يقتله حين سمع هذا منه ، ثم دخل عليه آخرون فهابوا أن يقتلوه أيضاً ، فثار الغافقى ودخل عليه فضربه بحديدة معه وضرب المصحف برجله ، وكان معه عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات ، وأقبل عمير بن ضابىء البرجمى فوثب عليه وكسر ضلعا من أضلاعه ، وصاح نساء عثمان فتركوه وهربوا من حيث دخلوا عليه ، ودخل من بالباب فلم يجدوا إلا نساءه يبكينه ، وكان قتله لثمانى عشرة من ذى الحجة سنة (٣٥ ﻫ — ٦٥٥ م) ، وقيل أنه قتله كان غيلة ولم يكن هناك حصار له كما هو مشهور ، وهو قول له قيمته على عدم شهرته .

وكان عمره اثنتين وثمانين سنة ، وكانت مدة خلافته اثنى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً ، وقد بقى ثلاثة أيام لا يدفن لاضطراب أمر الناس بعد قتله ، ثم دفنوه بالبقيع بعد أن صلوا عليه ، وقد كفن فى ثيابه ولم يغسل ، لأنه قتل شهيداً .

وقد رثاه حسان بن ثابت فقال :

أتركتم غزو الدروب وراءكم ... وغزوتمونا عند قبر محمد[1]

فلبئس هدى المسلمين هديتم ... ولبئس أمر الفاجر المتعمد

إن تقدموا نجعل قرى سرواتكم ... حول المدينة كل لين مذود[2]

(١) يعنى دروب الروم .

(٢) المذود : ما يدافع به

أو تدبروا فلبئس ما سافرتم ... ولمثل أمر أميركم لم يرشد
وكأن أصحاب النبي عشية ... بدن تذبح عند باب المسجد
أبكى أبا عمرو لحسن بلائه ... أمسى ضجيعا فى بقيع الغرقد

تحذير ابن سلام لهم عاقبة قتله :

جاء عبد الله بن سلام إلى أولئك الخارجين على عثمان وقد عزموا على قتله فنهاهم عنه وقال لهم: ياقوم ، لا تسلّوا سيف الله فيكم ، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه ، ويلكم ، إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ــ العصا الصغيرة ــ فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف ، ويلكم ، إن مدينتكم محفوفة بالملائكة ، فإن قتلتموه لتتركنها . فقالوا له : يا ابن اليهودية ، ما أنت وهذا ؟ فرجع عنهم وتركهم بعد أن نصحهم نصيحة عالم يعرف العواقب ، ويدرك ما يؤدى إليه قتلهم له من تفرق كلمة المسلمين ، وانقلاب الخلافة التى تقوم باختيارهم إلى ملك يقوم بالتغالب ، وينهض بالسيف ، فيأخذ الناس به بعد أن كانت الخلافة تأخذهم بالدرة ، وهى كما سبق فى درة عمر عصا هينة لينة ، ولكنها تفعل فى الكريم مالا يفعله السيف ، وتكفى فى تقويم أهل الطاعة والاستقامة إذا بدرت منهم هفوة من الهفوات ، فلم يكن جزاء هذا العالم منهم إلا هذه الكلمة المنتنة من دعوى الجاهلية ــ يا ابن اليهودية ، ما أنت وهذا ؟ ــ مما يدل على قلة حظهم من الإسلام ، لأنه قضى على مثل هذه الدعوة المنتنة ، وجعل الناس إخوة فى الدين على اختلاف أجناسهم ، وحرم مثل هذه العصبية الجنسية .

رد على من ينتصر لهم فى عصرنا :

ومثل هؤلاء النفر لا يصح أن يصوروا بغير ما ذكرناه فى أمرهم ، ولا يصح أن يلتمس لهم من الأسباب ما يخفف من جنايتهم على الإسلام والمسلمين بإيقاع الفتنة بينهم ، كما فعل الأستاذ العقاد فى كتابه « عبقرية الإمام » إذ يقول فيه : كان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حانقين متبرمين ، لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة ، وشرع لهم شريعة الإنصاف ، ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرومين، فلما طولب على بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟

فيجعلها الأستاذ العقاد ثورة من هؤلاء المحرومين على أصحاب الضياع والأموال التى لا تحصى ولا تعد ، من عثمان بن عفان ، إلى الزبير ابن العوام ، إلى طلحة بن عبيد الله ، إلى سعد بن أبى وقاص ، إلى المقداد بن الأسود ، إلى غيرهم من المسلمين السابقين الذين يضعهم الأستاذ العقاد فى كفة مقابلة لكفة أولئك المحرومين فى نظره ، فيا لضيعة الإسلام إذا وضعنا أبطاله السابقين فى هـــذه المنزلة الزرية كما يريد الأستاذ العقاد .

والحقيقة أنه لم يكن هناك فى ذلك العهد محرومون بالمعنى الذى يريده

الأستاذ العقاد ، لأن الأموال كانت موفورة لجميع الناس على تفاوتهم فيها ، وكانت صدقات أولئك السابقين إلى الإسلام عظيمة كل العظمة بمقدار غناهم ، وقد فتحت ممالك كسرى وقيصر أمام أهل المدينة وغيرهم، فكانت أسباب الغنى متهيئة لمن يطلبه ، وكان الفيء يأتى من هذه الممالك ، فلا يلبث عثمان أن يجمع الناس كلهم ، ويقول لهم : هلموا إلى أعطياتكم .

والحقيقة أن أولئك الخارجين على عثمان كانت لهم أعطيات تكفيهم وتفيض عنهم بأمصارهم التى أتوا منها إلى المدينة ، أما أولئك العبدان والموالى من أهل المدينة الذين ثاروا معهم — والظاهر أنهم كانوا طائفة قليلة منهم — فلا يعدو أمرهم أن يكونوا من أمثال أبى لؤلؤة الفارسى الذى طعن عمر، وبهذا يكون الذى أثارهم مع أولئك الأعراب ما صاروا إليه من الرق بعد أن كانوا سادة فى بلادهم . لا حرمان أو شبه حرمان ، لأن المسلمين كانوا يعاملون أرقاءهم أحسن معاملة ، وكانوا لا يبخلون عليهم بشيء مما أنعم الله به عليهم ، وكان كثير منهم يسوونهم بأنفسهم فى مآكلهم وملابسهم .

ولا أدلّ على فساد ما ذهب إليه الأستاذ العقاد من أن الكوفيين من أولئك الخوارج كان هواهم مع الزبير بن العوام ، ومن أن البصريين منهم كان هواهم مع طلحة بن عبيد الله ، وكل منهما كان مثل عثمان فى اقتناء الأموال ، وقد بقيت المدينة بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقى بن حرب ، وكان المصريون منهم يطلبون إلى على أن يلى الخلافة فيهرب منهم، وكان هواهم معه كما سبق، وكان الكوفيون يطلبون الزبير فلا يجدونه، وكان البصريون يطلبون طلحة فيهرب منهم ، فلو كان خروجهم على عثمان

لما ذكره الأستاذ العقاد لما طلبوهما ، لأنهما كان من أصحاب الضياع والأموال مثله ، فإذا توليا الخلافة سارا فيها على منواله .

مبايعة علي بالخلافة :

كان علي بن أبي طالب يرى أنه أحق بالخلافة من عهد أبي بكر ، لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولسابقته في الإسلام ، وقد آثر الصحابة أبا بكر وعمر وعثمان عليه لأنهم كانوا أسن منه ، ولهم مثل سابقته وفضله ، ولأنهم كانوا يخشون إذا أخذها أن يستأثر بها قومه بنو هاشم ، لأنهم يدلون بمثل قرابته للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان علي مع رأيه هذا يرى أن يكون له هذا برضا من المسلمين ، ولا يرى أن يفرضه عليهم بوسيلة من الوسائل ، وبهذا يكون من أهل الشورى أيضاً ، وإني بهذا أكرمه عما يراه بعض شيعته من أنه سكت عن حقه تقية ، لأنه كان أكبر من الأخذ بهذا الضعف .

فلما قتل عثمان كان في رأي جمهور الصحابة أولى الناس بالخلافة إلا قليلا منهم ، وهناك روايتان في مبايعتهم له بالخلافة .

فقيل : إنه لما قتل عثمان اجتمع الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير ، فأتوا عليا فقالوا له : إنه لابد للناس من إمام . فقال لهم : لا حاجة لي في أمركم ، فمن اخترتم رضيت به . فقالوا له : ما نختار غيرك . وترددوا إليه مرارا وهو يأبى إلى أن أجابهم ، فبايعه الناس بالخلافة ، وكان أول من بايعه منهم طلحة ثم الزبير ، وعلى هذا يكونان قد بايعاه طائعين ، وقد جاءوا بسعد بن أبي وقاص ليبايعه ، فقال له علي : بايع . فقال : لا ، حتى يبايع الناس ، والله ما عليك مني بأس . فقال علي : خلوا سبيله . وجاءوا بعبد الله بن عمر ليبايع ، فقال له علي : بايع

فقال : لا ، حتى يبايع الناس . فقال له : ائتنى بكفيل . فقال : لا أرى لى كفيلا . فقال لهم على : دعوه ، أنا كفيله . ثم بايعت الأنصار إلا نفراً قليلا ، منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومحمد بن مسلمة ، وزيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير ، وكذلك لم يبايعه من غيرهم صهيب بن سنان ، وعبد الله بن سلام ، وأسامة بن زيد ، وقدامة بن مظعون ، فلم يكره أحداً ممن لم يبايعه على مبايعته ، وقد هرب منهم النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان الذى قتل فيه إلى معاوية بالشام ، ليثير به أهله على محاربة على بعد مبايعة الناس له بالخلافة .

وقيل : إن عثمان لما قتل بقيت المدينة خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب ، وكان هو ومن معه من الخوارج على عثمان يلتمسون من يقوم بالأمر فلا يجدونه ، بل وجدوا طلحة فى حائط له [1] ووجدوا سعدا والزبير قد خرجا أيضاً ، فأتى المصريون علياً فباعدهم ، وأتى الكوفيون الزبير فباعدهم ، وأتى البصريون طلحة فباعدهم ، وكانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيمن يلى الخلافه ، فأرسلوا إلى سعد يطلبونه ، فقال : إنى وابن عمر لا حاجة لنا فيها . فجمعوا أهل المدينة وقالوا لهم : ياأهل المدينة ، أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وحكمكم جائز على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع ، وقد أجّلنا كم يومكم ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيرا

فغدا الناس إلى على فقالوا له : نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى . فقال لهم : دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا

---

(١) الحائط : البستان .

مستقبلون أمرا له وجوه ، وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . فقالوا له : ننشدك الله ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا تخاف الله . فقال لهم : قد أجبتكم ، واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ، إلا أنى من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه . ثم افترقوا على ذلك واتّعدوا الغد ، وتشاور الناس فيما بينهم ، وقالوا : إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت .

فبعث البصريون جبلة بن حكيم إلى الزبير فجاءوا به مكرها فبايع ، وبعثوا الأشتر النخعى إلى طلحة ، فأتوا به مكرها فبايع ، ثم جىء بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا : نبايع على إقامة كتاب الله فى القريب والبعيد ، والعزيز والذليل ، فبايعهم ثم قام العامة فبايعوا ، وصار الأمر أمر أهل المدينة ، وكأنهم كما كانوا فيه قبل قتل عثمان .

وهذا القول أقرب من الأول ، لأن هؤلاء الخوارج مكثوا ظاهرين على أهل المدينة إلى أن قتلوا عثمان ، وكانت لهم غاية فى تولية على أو طلحة أو الزبير بعده ، فلا يعقل أن يقتلوه ويقفوا دون الوصول إلى غايتهم ، ولا يعقل أن يقتل هؤلاء عثمان ويبادر أهل المدينة إلى تولية غيره وكأن لم يقتل خليفتهم ، إذ لابد من وقوع اضطراب كبير بينهم بعد قتله ، ولابد أن ينتظروا حتى تهدأ نفوسهم ، وحتى يعرفوا نوايا هؤلاء الذين غلبوهم على أمرهم .

تنبيه : ذكرنا أن ترك الزكاة للأفراد حصل فى خلافة عثمان ، وقيل إنه لم يحصل إلا بعد مقتله ، والمهم أنه حصل فى عهد الخلفاء الراشدين .

الخليفة الرابع

على بن أبى طالب

علي وخلافته

التعريف بعلي :

هو علي بن أبي طالب ، واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب ابن هاشم ، فهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة بنت أسد ابن هاشم ، فهي بنت عمه أيضا ، فهو من أب هاشمي وأم هاشمية ، وبهذا كان ذا قرابة قريبة للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه ومن جهة أمه .

وكان آدم شديد الأدمة (١) ثقيل العينين عظيمهما ، كبير البطن ، أصلع ، عظيم اللحية ، كثير شعر الصدر ، أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، وقيل كان فوق الربعة (٢) وكان ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، وكان من أحسن الناس وجها ، وأحسنهم شيبة ، كثير التبسم للناس ، شجاعا قوياً ، فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض ، لم يصارع أحدا إلا صرعه ، ولم يبارز أحدا إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه رجال ، ويحمل الباب الكبير لا يحمله الأشداء ، ويصيح الصيحة في الحرب فتنخلع لها قلوب الأعداء ، وكان فصيحاً حكيما تقياً زاهداً سمحاً ذا دعابة كريمة ، وكان فطناً ذكياً عالما فقيها

---

(١) الأدمة : السمرة (٢) الربعة : الوسيط القامة

على قسط عظيم من الفهم والدهاء فى عفة ونزاهة ، وقد وازن بين دهائه ودهاء معاوية بن أبى سفيان الذى نازعه فى خلافته ، فقال: والله مامعاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .

وقد أسلم وهو فتى صغير دون العشر ، ويقال إنه كان أول من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان من أقوى أصحابه نصرة له ، ولما بلغ زوَّجه النبى صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة ، ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد أبيها بستة أشهر ، وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى ، ثم تزوج بعدها أم البنين بنت حرام الكلابية ، فولدت له العباس وجعفرا وعبد الله وعثمان ، وقد قتلوا مع الحسين بكربلاء ، وتزوج ليلى بنت مسعود النهشلية التميمية ، فولدت له عبيد الله وأبا بكر ، وقد قتلا مع الحسين أيضا ، وتزوج أسماء بنت عميس الخثعمية ، فولدت له محمدا الأصغر ويحي ، وقد قتلا مع الحسين أيضا ، وتزوج الصهباء بنت ربيعة التغلبية ، فولدت له عمر ورقية ، وقد عاش عمر حتى بلغ خمساً وثمانين سنة ، فحاز نصف ميراث أبيه ، وتزوج أمامة بنت أبى العاص بن الربيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس ، وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فولدت له محمدا الأوسط ، وتزوج خولة بنت جعفر الحنفية ، فولدت له محمدا الأكبر ، وهو المعروف بابن الحنفية ، وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية ، فولدت له أم الحسن ورملة الكبرى وأم كلثوم ، وكان له بنات من أمهات أولاد ، منهن أم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم سلمة

وأم جعفر وجمانة ونفيسة ، وجميع ولده أربعة عشر ذكراً وسبع عشرة امرأة ، وكان النسل منهم للحسن والحسين وابن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية ، وإنما كثر نساؤه ونساء غيره من الصحابة -وكانوا لا يجمعون أكثر من أربع - لأنهم كانوا يعيشون فى حالة حرب ، فكان عدد النساء يزيد كثيراً على عدد الرجال ، وكانوا فى حاجة إلى كثرة النسل ليعوضوا من يفقد منهم فى الحرب ، وقد ترك على من ترك من الأولاد ، فقتل أكثرهم مع الحسين فى كربلاء ، ولم يبق للحسين إلا ابنه على زين العابدين ، لأنه كان غلاماً صغيراً مريضا ، فتركه قتلة أبيه لذلك .

إعادة النظام بخلافته :

وقع الإسلام بقتل عثمان فى أكبر شدة وقعت به ، لأن المسلمين كانوا فى حالة حرب مع أكبر أمم الأرض ، وقد أكل الحقد قلوبها عليهم ، فلو انفرط عقدهم واختل نظامهم لضاع كل شىء كسبوه باجتماعهم ، فلا بد لهم من منقذ شجاع يعيد نظامهم ، ويتماسكون به على قدر ما يمكنهم ، فتقدم لهم على بعد أن هاب غيره هذا الموقف الخطير ، وبعد أن ألحوا عليه ولم يجدوا غيره ، ولو أنه لم يتقدم إليهم لتقدم الغافقى بن حرب رأس الفتنة ، فزاد الأمر اشتعالا ، وقتل غير عثمان من كبار الصحابة . وأراق دماءهم فى شوارع المدينة ، وتفرق المسلمون فى الأمصار بددا ، لأنهم لا يرضون أن يتولى أمرهم مثل هذا الغافقى . وكان من لطف الله أنه أدرك هذا المصير ، وأنه أدرك أنه هو والحفنة الذين معه لا يمكنهم أن يقودوا هذه الأمة التى هزمت الأكاسرة ، والقياصرة ، وأن العاقبة ستكون وبالا عليهم إذا حدثتهم بهذا أنفسهم ، فإذا كان على لم يفتتح فى خلافته مصراً

من الأمصار كما فتح من قبله من الخلفاء ، فإنه يكفيه أنه جمع أمصار الإسلام كلها حوله ماعدا الشام الذى خرج فيه معاوية عليه ، فعرف المتربصون للإسلام أن أمره لايزال إلى نظام ، وأن المسلمين لايزالون لهم إمام يجمع كلمتهم ، فبقيت نفوسهم متهيبة لهم ، ولم تحدثهم بالانتقاض عليهم إلا النادر منهم .

إعادة الخلافة إلى زى النسك :

وكان على يؤثر النسك والزهد فى حياته ، فأخذ نفسه بذلك فى خلافته ، وأخذ أهله والمسلمين به ، فلم يتوسع فى دنياه كما توسع عثمان قبله ، ولم يوسع للمسلمين فيها كما وسع عثمان لهم ، حتى قال سفيان : إن عليا لم يبن آجرّة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، وإن كان ليؤتى بحبوبه من المدينة فى جراب . وقيل : إنه أخرج سيفاً له إلى السوق فباعه وقال : لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه . وكان لايشترى إلا ممن يعرفه ، وإذا اشترى قميصا قدّركمه على طول يده وقطع الباقى ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير الذى يأكل منه ، ويقول : لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم . وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خازنا له على بيت المال ، فدخل عليه يوماً وقد زينت ابنته فرأى عليها لؤلؤة كان عرفها لبيت المال . فقال: من أين لها هذه ؟ لأقطعن يدها . لأنه ظن أنها سرقتها من بيت المال ، فلما رأى أبو رافع جدّه فى ذلك قال : أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها . فقال له : لقد تزوجت بفاطمة ومالى فراش إلا جلد كبش ، ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار (1) ومالى خادم غيرها . وقدم عليه مال

(1) الناضح : البعير يسقى عليه

من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ، ودعا أمراء الأسباع بالكوفة فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا .
وقدم عمرو بن سلمة بمال من أصبهان ، وكان فيه زقاق فيها عسل وسمن ، فأرسلت أم كلثوم بنت على إلى عمرو تطلب منه سمناً وعسلا . فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن ، فلما كان الغد خرج على وأحضر المال والعسل والسمن ليقسمها ، فعد الزقاق فنقصت زقين ، فسأل عمرا عنهما فكتمه ، وقال : نحن نحضرهما . فعزم عليه إلا ذكرهما له ، فأخبره بأمرهما ، فأرسل إلى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا ، فأمر التجار بتقويم مانقص منهما فكان ثلاثة دراهم ، فأرسل اليها فأخذها منها .

وكذلك سار بين الرعية بأوفى مايكون من الحزم والعدل ، حتى شمل عدله جميع أفرادها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، وقد سمع يوما صوتا يقول: ياغوثاه بالله. فخرج مسرعا نحوه وهو يقول : أتاك الغوث. فإذا رجل يلازم رجلا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بعت هذا ثوبا بسبعة دراهم ، وشرطت ألا يعطيني مغموزا ولا مقطوعا — وكان هذا شرطهم يومئذ — فأتاني بهذه الدراهم فأبيت ولزمته فلطمني . فقالوا للاطمه : ماتقول ؟ فقال : صدق يا أمير المؤمنين . فقال : اعطه شرطه . فأعطاه له ، فقال للملطوم : اقتص . فقال : أو أعفو يا أمير المؤمنين . فقال له : ذلك إليك . ثم قال : يامعشر المسلمين ، خذوه . فأخذوه فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتاب ، ثم ضربه خمس عشرة درة . وقال :

هذا نكال لما انتهكت من حرمته . ويمكننا أن نأخذ من هذا ماعليه التشريع الحديث الان من حق النائب العام ووكلائه فى الاقتصاص من أصحاب الجرائم ، وعدم تركها للأفراد يعفون عنها أولا يعفون ، لأن للأمة الحق فى صيانة نفسها من أصحاب الجرائم أيضا ، لأنهم يجنون عليها بها ، وينشرون الفساد بينها .

وقد وجد درعا له يوما عند نصرانى فلم يأخذه وهو أمير المؤمنين وله سلطته فيهم، بل أخذه إلى قاضيه شريح ليفصل بينهما ، ويقاضيه إليه على أنه فرد من الرعية ، لا على أنه أمير المؤمنين ، فسأله شريح فقال : إنها درعى ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح النصرانى : ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب . يعنى أنه أخطأ فظنها درعه ، فالتفت شريح إلى على وقال له : يا أمير المؤمنين ، هل من بينة ؟ فضحك وقال : أصاب شريح ، مالى بينة. فقضى شريح بالدرع للنصرانى . فأخذها ومشى وعلى ينظر إليه ، ولكنه لم يمش إلا قليلا ثم عاد فقال : أشهد أن هـــذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضيه وقاضيه يقضى عليه ؟ ثم أسلم واعترف بأن الدرع سقطت من على عند مسيره إلى صِفِّين ، ففرح على بإسلامه ووهب الدرع له وفرسا قاتل عليه الخوارج معه .

وبهذا بقى للإسلام رونقه فى خلافة على كما كان عليه قبله ، واستحق أن يرعاه الله بعنايته ويحفظه من أعدائه المحيطين به فى هذه المحنة الشديدة ، ليؤدى رسالته الجديدة فى العالم ، ويستمر فى الظهور حتى يصل إلى ماقدره له .

السياسة الداخلية فى خلافة على

١ — تغيير ولاة عثمان

كان على مكة حين قتل عثمان عبد الله بن عامر الحضرمى ، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفى وعلى صنعاء يعلى بن منية ، وعلى البصرة عبد الله ابن عامر الأموى ، وعلى الشام معاوية بن أبى سفيان ، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعرى ، وعلى مصر عبد الله بن سعد ، إلى عمال آخرين يدخلون فى هذه الإمارات العامة ، وكان بينهم كثير من بنى أمية قوم عثمان ، وأظهرهم معاوية بن أبى سفيان .

فأراد على أن يولى بدلهم عمالا آخرين يوافقونه على منهجه فى الخلافة ، وهو على ما سبق منهج يوافق طبعه فى الزهد والنسك ، ليرجع بالناس إلى مثل ما كانوا عليه فى خلافتى أبى بكر وعمر ، ولا تجرهم الدنيا إلى ما جرتهم إليه من الفتنة التى انتهت بقتل عثمان ، وهذا إلى ما كان من سوء ظن بنى أمية به أنه كان له يد فى هذه الفتنة أو أنه قصر فى الدفاع عن عثمان على الأقل ، فلا يصح أن يبقى من كان واليا منهم على ولايته مع سوء ظنه به ، وإن كان هذا ربما يثير مثل معاوية بن أبى سفيان عليه ، وكان قد قبض على الشام بيديه .

وقد دخل عليه المغيرة بن شعبة فقال له : إن لك حق الطاعة والنصيحة، وأنت بقية الناس ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، وإن الضياع اليوم يضيع به ما فى غد ، قرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ، ثم اعزل من شئت . فقال على له : لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الدنيـَّة فى أمرى . فقال المغيرة : فإن كنت أبيت علىَّ فانزع من شئت واترك معاوية ، فإن فى معاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يستمع منه ، ولك حجة فى إثباته ، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام . فقال على له : لا والله ، لا أستعمل معاوية يومين

وربما يبدو لبعض الناس أن رأى المغيرة كان صوابا ، والحق أنه كان خطأ ، لأن السياسة الصريحة خير من السياسة الملتوية ، ولو أن علياً طاوع المغيرة وأبقى معاوية على الشام ماغير هذا شيئا مما عزم عليه ، لأنه هو وبنو أمية أرادوا أن يستغلوا قتل عثمان إلى أبعد حد ، وأن يجعلوه طريقا إلى الوصول للملك ، وقد كانوا رؤساء قريش فى الجاهلية ، فرأوا أنهم لا يكثر عليهم أن يكونوا هم الرؤساء أيضا فى الإسلام ، وإنه لأشرف لعلى أن يعزل معاوية فيخرج عليه من أن يبقيه فيخرج عليه أيضا ، ويظهر للناس أنه أراد رشوته ليسكت عن دم عثمان فأبى السكوت عنه .

ولما أراد على تغيير عمال عثمان بعمال يختارهم لتنفيذ منهجه فى خلافته تجنب من خرج على عثمان ولو كانوا ممن أظهر التشيع له ، فلم يول منهم أحدا ولاية كبيرة ولا صغيرة ، وكان بهذا عدلا بين الفريقين : فريق عمال عثمان ، وفريق الذين خرجوا عليهم ، ولاشك أن هذه سياسة عادلة

حكيمة ، تنفى عنها الشبهات ، وتقطع أطماع أصحاب الفتنة ، وكان مما أثارهم على عثمان وعماله مآربهم فى الولاية ، وحقدهم على الولاة من قريش وبنى أمية ، مع أنهم كان بينهم كثير من قبائل العرب المختلفة ، فليحرمهم على من الولاية أيضاً .

فبعث على عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام ، فمضى عثمان بن حنيف إلى البصرة فوجد الناس مختلفين فيها ، فدخلت فرقة فيما دخل فيه الجماعة ، وخالفت فرقة وأنكرت قتل عثمان ، ولكنها لزمت الهدوء والسكون ، ومضى قيس بن سعد إلى مصر فوجد الناس مختلفين فيها أيضاً ، فدخلت فرقة فى الجماعة وهم أكثر أهلها ، وأنكرت فرقة قليلة قتل عثمان واعتزلت بقرية خربتا ، وقالت فرقة : نحن مع على ما لم يقد من إخواننا . وهم الذين كانوا يثيرون أهل مصر على عثمان من محمد بن أبى حذيفة وغيره ، ومضى عمارة بن شهاب إلى الكوفة فلقيه طليحة بن خويلد فقال له : ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا ، فإن أبيت ضربت عنقك . وأميرهم هو أبو موسى الأشعرى ، وكانوا قد اختاروه والياً عليهم فى عهد عثمان كما سبق ، فرجع عمارة ولم يدخل الكوفة ، ومضى عبيد الله بن عباس إلى اليمن ، فجمع يعلى بن منية كل شىء من الجباية وخرج به إلى مكة ، فقدمها بالمال ودخل عبيد الله اليمن ، ومضى سهل بن حنيف إلى الشام حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل منها فردوه عنها فلم يدخلها .

وقد أبقى على أبا موسى على الكوفة فكتب إليه بطاعة أهلها

وبيعتهم ، وبيَّن الكاره منهم للذى كان والراضى ومن بين ذلك ، حتى كان كأنه يشاهدهم .

ثم كتب إلى معاوية فجز رسوله عنده إلى أن كان الشهر الثالث من مقتل عثمان ، فدعا رجلا من بنى عبس يدعى قبيصة ، فدفع إليه طومارا مختوماً عنوانه — من معاوية إلى على — وأرسله به إلى المدينة ومعه رسول على إليه ، فلما أخذ على الطومار فضَّ ختمه فلم يجد فيه كتاباً ، وكان هذا إيذاناً من معاوية بخروجه عليه ، ولم يكن مع معاوية إلا الشام وحده ، وكان ما عداه من الأمصار مع على إلا من لا يذكر بين جمهور أهلها ، وقد آثر التزام الهدوء بينهم لقلتهم .

٢ — موقف طلحة والزبير وعائشة

مطالبتهم بدم عثمان :

لما رجع على إلى بيته بعد مبايعته دخل عليه طلحة والزبير فى عدد من الصحابة وقالوا له : يا على ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم. فقال لهم : يا إخوتاه ، إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم[1] وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلاطكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ فقالوا : لا . فقال لهم : فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً إلا أن يشاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا ، حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق ، فاهدؤوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا .

فخرجوا ينتظرون ما يفعله مع من اتهموهم بدم عثمان ، ولكن هذا

---

(١) سبق بيان سبب ثورة هؤلاء العبدان فى ردنا على الأستاذ العقاد فى الكلام على انتهاء خلافة عثمان .

دعاه إلى أن يشتد على قريش بالمدينة ويمنعهم من الخروج منها ، لأنه أخذ يرتاب منهم ، وقد زاد فى ريبته أن بنى أمية أخذوا يهربون منها إلى الشام ليجتمعوا بمعاوية ويعاونوه على خروجه عليه ، وبلغه أن من يشتد عليهم فى ذلك من قريش يقولون : إن علياً لمستغن برأيه، وليكونن أشد على قريش من غيره . فجمعهم وخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم، ونظره لهم وقيامه دونهم ، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذاك والأجر من الله عليه .

ثم بدأ يعالج ما طالبوه به ، فنادى فى العبدان الذين اشتركوا فى فتنة عثمان : برئت الذمة من عبد لا يرجع إلى مولاه . فتذامرت السبئية من شيعته[1] والأعراب الذين كانوا معهم على عثمان ، وقالوا : لنا غدا مثلها ، ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء . ثم قال : أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم . فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب فلم يخرجوا من المدينة .

فلما رأى على هذا دخل بيته ولزمه ، فدخل عليه طلحة والزبير وعدد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : دونكم ثأركم فاقتلوهم . فقالوا له : عتوا عن ذلك . فقال : هم والله بعد اليوم أعتى .

خروجهم إلى البصرة وسير على إليهم :

ومكث طلحة والزبير بالمدينة بعد قتل عثمان أربعة أشهر ثم هربا إلى مكة ، وكانت عائشة قد خرجت من مكة إلى المدينة بعد انتهاء موسم

(١) أتباع عبد الله بن سبأ .

الحج ، فعلمت فى طريقها بقتل عثمان ومبايعة على بالخلافة ، فرجعت إلى مكة تطالب بدم عثمان أيضاً ، وقد اجتمع الثلاثة بمكة ، واجتمع بهم بنو أمية بها ، وأظهروا المطالبة بدم عثمان ، فاستجاب لهم عبد الله بن عامر الحضرمى ، وكان والياً لعثمان على مكة ، وقدم عليهم عبد الله بن عامر الأموى من البصرة بمال كثير ، وقدم عليهم يعلى بن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، ثم تشاوروا فيما بينهم ، فقالوا : نأتى الشام . فقال ابن عامر : قد كفاكم الشام معاوية ، فأتوا البصرة فإن لى بها صنائع ، ولهم فى طلحة هوى . فاتفق رأيهم على البصرة وقالوا : بلداً مضيعاً . ولم يقيموا بمكة لقربها من على ، وكان عبد الله بن عمر قد خرج من المدينة أيضاً معتزلا للفتنة ، فدعوه للخروج معهم فأبى وقال : أنا من أهل المدينة، أفعل ما يفعلون .

وبلغ علياً خبرهم وكان يتجهز إلى أهل الشام ، فدعا وجوه أهل المدينة أن يخرجوا معه إلى قتالهم قبل أهل الشام فتثاقل كثير منهم، وكان يريد أن يلحقهم قبل أن يصلوا إلى البصرة ، فاستخلف على المدينة سهل ابن حنيف ، وعلى مكة قثم بن العباس ، وخرج من المدينة فى تعبيته التى تعباها لأهل الشام ، فلقيه عبد الله بن سلام وأخذ بعنانه وقال : ياأمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً . فسبه أصحاب على فقال لهم :دعوا الرجل فإنه من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . وقد خرج على من المدينة على كره منه ، لما رأى من تثاقل أهلها عنه ، وسار حتى وصل إلى الربذة فأتاه خبر سبق طلحة والزبير وعائشة وطلحة إلى البصرة ، فأقام بالربذة يأتمر ما يفعل ، فقام

إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال : يا أمير المؤمنين ، أىّ شىء تريد؟ وأين تذهب بنا ؟ فقال : أما الذى نريد وننوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه . فقال له : فإن لم يجيبونا إليه . فقال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر . فقال له : فإن لم يرضوا . فقال : ندعهم ما تركونا . فقال له : فإن لم يتركونا . فقال : امتنعنا منهم .

استنفار على أهل الكوفة واستجابتهم له:

ثم بعث على محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر إلى أهل الكوفة يستنصرهم، وكان عليها أبو موسى الأشعرى كما سبق ، فأخذ يثبطهم عن القتال ، ويكرّه إليهم الدخول فى الفتن، وقد بعث إليه على رجالا بعد رجال وهو مصر على رأيه فى اعتزال الفتن ، وكان ممن ذهب إليه الأشتر النخعى ، فأثار أهل الكوفة عليه ، وسار بجماعة إلى قصر الإمارة فأخرج غلمانه منه ، وكان يخطب الناس ويثبطهم عن القتال ، فلما رجع عن القصر تركه الأشتر على ألا يبيتَ فيه إلا ليلة ، ثم جمع الأشتر اثنى عشر ألفاً من الكوفة وخرج بهم إلى على .

إستيلاء طلحة والزبير وعائشة على البصرة :

وكان طلحة والزبير وعائشة قد سبقوا إلى البصرة فاستولوا عليها ، ودار قتال بينهم وبين عثمان بن حنيف قتل فيه خلق كثير من الفريقين ، وقد أرادوا قتل عثمان ثم خشوا غضب قومه من الأنصار ، فاكتفوا بحبسه ولكنهم عادوا فأطلقوه فسار إلى على .

ولما تم لهم الاستيلاء على البصرة وإخراج عثمان منها قام طلحة

والزبير خطيبين فى أهلها فقالا : يا أهل البصرة ، توبة لحوبة (١) إنما أردنا أن نستعتب أمير المؤمنين عثمان ، فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه . ثم أخذ الزبير فى عيب على ، فقام إليه رجل من عبد القيس فقال : أيها الرجل ، أنصت حتى نتكلم . فأنصت ، فقال العبدى : يامعشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس فى الإسلام ، كما دخلتم ، فلما توفى رســـول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم ، فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا فى شىء من ذلك ، فجعل الله للمسلمين فى إمارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا فى ذلك ، فرضينا وسلمنا ، فلما توفى جعل أمركم إلى ستة نفر ، فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورتنا ، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه من غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا ، فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفىء أو عمل بغير الحق أو أتى شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ وإلا فما هذا ؟

وهذا كلام حكيم رزين ، وهو يبين مدى طواعية العرب لأهل المدينة فى اختيار خلفائهم ، وأنهم كانوا مذعنين عن رضا منهم لاختيارهم ، لأنهم كانوا يؤثرون فيه مصلحتهم جميعاً ، ويختارون فيه للمسلمين جميعاً ، لا لأهل المدينة وحدهم ، ولكن هذا الكلام لم يعجب من كانوا يستمعون له ، فهمّوا بقتل ذلك الرجل فمنعته عشيرته ، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه فقتلوا منهم سبعين ، وهذا قليل من كثير مما أدى إليه الإلحاح

---

(١) الحوبة : الذنب

فى المطالبة بدم عثمان ، وأدى إليه الإسراع به قبل أن يستقر أمر المسلمين .

إشفاق طلحة والزبير من استمرار الانقسام الداخلى:

ولعل هذا وأمثاله جعل كلا من طلحة والزبير يفكران فيما وصل إليه أمرهما ، وينظران فى أمر هذه المأساة بعد سابقتهما فى الإسلام ، وحسن بلائهما وجهادهما ، فيندمان على ما صار إليه أمرهما ، ويقول الزبير فى حوار له مع مولى من مواليه : ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمى فيه غير هذا الأمر ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ؟ ويقول علقمة بن وقاص : لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها ، وهو ضارب بلحيته على صدره ، فقلت : يا أبا محمد ، أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على صدرك ، إن كرهت شيئاً فاجلس . فقال لى : يا علقمة ، بينا نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا ، إنه كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه . وسننظر ما يكون لتفكيرهما فى ذلك من أثر عند التقائهما بعلى فى البصرة .

نزول على بذيقار وإيثاره للصلح :

وقد سار على من الربذة إلى البصرة حتى نزل بذى قار (١) فأتاه إليها من استجاب له من أهل الكوفة وجموع كثيرة من العرب الذين كان يمر

(١) موضع بين الكوفة وواسط

عليهم فى طريقه ، وكان الأحنف بن قيس قد اعتزل القتال فى البصرة حين دعاه طلحة والزبير إلى القتال معهما ، فقال : والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين ، ولا أقاتل ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان قد بايع علياً بالمدينة حين قضى حجه وقدم إليها بعد قتل عثمان ، فاعتزل بالجلحاء ومعه زهاء ستة آلاف ، وهى من البصرة على فرسخين ، فلما نزل على بذى قار أتاه فقال له : اختر منى واحدة من اثنتين : إما أن أقاتل معك ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف . فقال له : فكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ فقال : إن من الوفاء لله قتالهم . فقال له على : فاكفف عنا عشرة آلاف سيف . وآثر أن يتركه على ما أعطى طلحة والزبير من الاعتزال ، وهى سماحة نفس لاسماحة مثلها ، وعلو همة يندر فى الناس وجودها ، وما كان لعلى فى سماحته وعلو همته إلا أن يختار له ذلك ، ويتركه على ما آثره أولا من اعتزال القتال ، لأنه لا يريد إلا الإصلاح ، ولا يقاتل شهوة فى القتال .

ولما أتى أهل الكوفة علياً رحب بهم وقال : يا أهل الكوفة ، أنتم قاتلتم ملوك العجم ، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم ، فمنعتم حوزتكم ، وأعنتم الناس على عدوهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك الذى نريد ، وإن يلجّوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بظلم ، ولم ندع أمراً فيه إصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد ، إن شاء الله .

إتفاق الفريقين على الصلح .

والحقيقة أن كلا من على وطلحة والزبير وعائشة كان بعيداً عن تلك

الفتنة ، وإنما هو قتل عثمان الذى ارتكبه أولئك السفهاء واكتوى بناره عقلاؤهم :

وجرم جــرّه سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقــاب

فقد كان كل من على وطلحة والزبير وعائشة فى نفسه شىء من بعض تصرفات عثمان، ولكن لا إلى الحد الذى يستبيحون فيه دمه ، وإنما هو الاجتهاد والخلاف فى الرأى والسياسة ، والاجتهاد يشتبه فيه الصواب والخطأ ، ولايدرى فيه الصواب بيقين ، فلما قتل أولئك السفهاء عثمان أثر فى نفس طلحة والزبير وعائشــة ما كان من خلافهم له فى الرأى ، ورأوا أنه كان له أثر فى تجرىء أولئك السفهاء عليه، وأنه لا يكفر هذا إلا تشددهم فى المطالبة بدمه ، ولو أدى هذا إلى سفك دمائهم ، وماكانوا يظنون أن الأمر يصل بهم إلى سفكها أو سفك غيرها من دماء الناس ، وقد أساءوا الظن بعلى حينما رأوا أولئك السفهاء يلتحقون به بعد مبايعة الناس له ، ولم يقبلوا اعتذاره لهم فى أمرهم بما سبق من أنهم يملكون الناس حين مبايعته ، وأن أمرهم يجب أن يؤخذ بالتؤدة ، ولكنهم رأوا ذلك العدد الكثير من القتلى فى استيلائهم على البصرة ، وأنهم إذا كانوا قد وصلوا إلى قتل بعض من كان من أهلها يؤلب الناس على عثمان فقد قتل بجانبهم عدد كثير ممن لم يكن يؤلب الناس عليه ، وإنما انضموا إليهم فى القتال عصبية لهم ، أو طاعة للخليفة الجديد الذى تجب طاعته عليهم ، وهنالك أدركوا أن المطالبة بدم عثمان ضررها أكثر من نفعها ، وأن عليا كان على حق فيما يراه من التؤدة فيها ، فمالت نفوسهم للصلح إذا طلبه على منهم ولم يقاتلهم .

فكانت هذه حال طلحة والزبير وعائشة حين نزل على بذيقار قريباً من البصرة ، وكان على كما سبق يريد الصلح لا القتال أيضا ، بل كان هو البادىء بعرض الصلح عليهما قبل أن يقاتلهما ، وهما زميلاه فى سابقة الإسلام والجهاد ، فدعا القعقاع بن عمرو التميمى ، وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسله إلى البصرة وقال له : ألق هذين الرجلين — طلحة والزبير — فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة . ثم سأله : كيف تصنع فيما جاءك منهما ما ليس عندك فيه وصاة ؟ فقال : نلقاهم بالذى أمرت ، فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا رأينا ، وكلمناهم كما نسمع ونرى أنه ينبغى . فقال : أنت لها .

فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة فسلم عليها وقال : أى أمه ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ فقالت له : أى بنى ، الإصلاح بين الناس . فقال لها : فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما فقال لهما : إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ فقالا : متابعان . فقال لهما : فأخبرانى ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فقالا : قتلة عثمان ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن . فقال لهما : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير ، فمنعه ستة آلاف . فقالت عائشة له : فماذا تقول أنت ؟ فقال : أقول إن هذا الأمر دواؤه التسكين ،

فإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بثأر ، وإن أبيتم إلا مكابدة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر ، وذهاب هذا المال ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم . فقالوا له : قد أصبت وأحسنت ، فارجع فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر .

فرجع القعقاع إلى على فأخبر بذلك فأعجبه ورضى به ، ورضيه معه أصحابه إلا من كان منهم من المؤتمرين على عثمان ، وأقبلت وفود العرب من أهل البصرة نحوه بذى قار لينظروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة ، وليعلموهم أن الذى عليه رأيهم هو الإصلاح ، ولا يخطر لهم قتالهم على بال ، فلما لقوا عشائرهم من أهل الكوفة قالوا لهم مثل مقالتهم وأخذوهم إلى على فأدخلوهم عليه وأخبروه بخبرهم ، ثم رجعت وفود أهل البصرة فأخبروا أهلها برأى أهل الكوفة ، فجمع على أصحابه وقال لهم : إنى راحل غداً فارتحلوا ، ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشىء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم . فلم يكن بين هذا الصلح الذى يجمع بين الفريقين إلا الغد ، ولم يكن بعده إلا حقن الدماء ، وتصافى النفوس ، والاتفاق على الإصلاح .

غدر الكارهين للصلح وموقعة الجمل:

وكان بين أنصار على جماعة كرهوا هذا الصلح بينهم ، وهم الذين أعانوا على عثمان ، لأنهم رأوا أنه إن تم فإنما يتم على حسابهم ، ولاسيما

بعد أن نهاهم على عن الارتحال معه إلى البصرة ، وكذلك كان بين أنصار طلحة والزبير وعائشة قوم كرهوا هذا الصلح أيضا ، لأنهم كان بينهم كثير من بنى أمية وأشياعهم بالبصرة ممن لم يكن هواهم فى على ولا فى طلحة والزبير وعائشة ، وإنما كان هواهم فى واحد من بنى أمية كمعاوية ، ومنهم مروان بن الحكم وغيره ممن سار معهم إلى البصرة من بنى أمية.

فلما نهى على من أعانوا على عثمان أن يرتحلوا معه اجتمع نفر منهم يتشاورون فى أمرهم ، وكان بينهم الأشتر النخعى وعدى بن حاتم الطائى وغيرهما ، فأخذ كل منهم يبدى رأيه فلا يرضونه إلى أن قال لهما ابن السوداء — عبد الله بن سبأ — : يا قوم ، إن عزكم فى خلطة الناس، فإذا التقى الناس فأنشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون . فرضوا بهذا الرأى ، وتفرقوا عليه .

وقد سار على إلى البصرة بمن معه حتى التقوا بطلحة والزبير ومن معهما ، واجتمع الثلاثة فلم يروا أمراً أمثل من الصلح ووضع الحرب ، فافترقوا على ذلك ، وبعث على من العشى عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير ، وبعثا محمد بن طلحة إلى على ، وأرسل على إلى رؤساء أصحابه وطلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما بذلك ، فباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعاقبة التى أشرفوا عليها والصلح ، وبات الذين أثاروا على عثمان بشر ليلة ، وقد أشرفوا على الهلكة ، ولم يروا إلا أن ينفذوا ما اتفقوا عليه ، وهم يعلمون أن النفوس لا يزال فيها شيء من التوتر ، وأن بين أصحاب طلحة والزبير من يكرهون الصلح مثلهم ، فما إن يباغتوا القوم بالقتال حتى يغلب أمره على الصلح ، فغدوا مع الغلس متسللين لا يشعر أحد بهم ، فوضعوا السلاح فى أهل البصرة ، فقابلهم أهل البصرة بمثله ، ودار القتال بين الفريقين بهذا الغدر ،

ونادى على فى الناس أن كفوا فلم يسمع أحد له ، وأقبل كعب بن سور إلى عائشة فقال لها : أدركى فقد أبى القوم إلا القتال ، لعل الله أن يصلح بك . وكانت خدعة منه لها ، لأنه كان يريد أن تقف معهم ليقاتلوا دونها ، ويثيروا الناس فى الدفاع عنها ، فركبت جملها وألبسوا هودجها الأدراع ، وإذا بها ترى قتـــال الناس وقد أحاطوا بهودجها ، فغلب أولئك السفهاء عقلاءهم على أمرهم ، وأوقعوهم فى القتال بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الصلح ، وكانوا يعملون على وقف القتال فلا يسمع لهم .

فلما رأى الزبير هذا أبى أن يستمر فى القتال ، وخرج معتزلا القتال إلى وادى السباع ، وبقى طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم فأصابه ، ثم نظر إلى أبان بن عثمان فقال له : قد كفيتك واحدا من قتلة أبيك . ولا يعقل هذا من مروان إلا لما رأى من ميله إلى الصلح ، وقد رأى القعقاع بن عمرو وهو من أصحاب على طلحة ودمه يسيل فأمره أن يدخل البيوت ، فنزل فى دار خربة وقد أشرف على الموت ، وقيل إنه اجتاز به رجل من أصحاب على فقال له : أنت من أصحـــاب أمير المؤمنين ؟ فقال له : نعم . فقال : أمدد يدك أبايعك له . فبايعه وخاف أن يموت وليس فى عنقه بيعة ، ثم أدركه أهله فى هذه الخربة .

وأما الزبير فإنه مر بعد اعتزاله القتال بعسكر الأحنف بن قيس ، وكان معتزلا للقتال كما سبق ، فقال : والله ما هذا انحياز ، يجمع المسلمين حتى إذا ضرب بعضهم بعضا لحق ببيته ! ثم قال : من يأتينى بخبره ؟

فقال عمرو بن جرموز : أنا . فلحقه حتى إذا حضرت الصلاة نزل الزبير ليصلى ، فوقف ابن جرموز خلفه ثم طعنه فقتله ، ورجع إلى الأحنف فأخبره بقتله له ، فقال : والله ما أدرى أحسنت أم أسأت ؟

انتصار على وحزنه على قتل الفريقين :

وقد انتصر على واستولى على البصرة بعد أن قتل من الفريقين مقتلة عظيمة بذلك الغدر السابق ، ولولاه لم تحصل هذه المقتلة ، ولا شك أن إثم ذلك القتال يعود على الكارهين للصلح بين الفريقين ، ولا يعود على من أرادوه وعملوا له حتى كانوا منه قاب قوسين أو أدنى ، وقد لقى القعقاع بن عمرو عائشة بعد الهزيمة فشكت إليه قول بعض أصحابه أثناء القتال :

يا أمتاه أعقّ أم نعلم   والأم تغذو ولداً وترحم

ألا ترين كم شجاع يكلم   وتختلى منه يد ومعصم(١)

فقال لها القعقاع : إنك لأبرّ أم نعلم ، ولكن لم تطاعى . فقالت : والله لوددت أنى مت من قبل اليوم بعشرين سنة .

وقد بلغ الحزن بعلى مبلغه على من قتل من الفريقين ، وكان يقول فى ذلك اليوم بعد الفراغ من القتال:

إليك أشكو عجرى وبجرى   ومعشراً أغشوا علىّ بصرى(٢)

قتلت منهم مضرى بمضرى   شفيت نفسى وقتلت معشرى

(١) تختلى : تقطع .

(٢) عجرى وبجرى : عيوبى أو أحزانى .

وهؤلاء المعشر الذين أغشوا بصره هم أولئك الذين كرهوا الصلح، وعملوا على إثارة القتال، ولكن ما يعمل فيهم وقد أبت ظروفه إلا أن يفرضوا عليه، وكان خصومه هم الذين فرضوهم عليه بعدم التؤدة في أمرهم.

ثم أخذ على يطرف بالقتلى من الفريقين ويرثى لهم، حتى مرّ على طلحة بن عبيد الله وهو صريع، فقال: لهفي عليك يا أبا محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى، أنت والله كما قال الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هوا استغنى ويبعده الفقر

وجاءه ابن جرموز يخبره بقتله للزبير فقال له: بشر قاتل ابن صفية بالنار. وهي صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم صلى على القتلى من الفريقين وأمر بهم فدفنوا، وجمع ما كان في في العسكر من شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان. وكان جميع القتلى عشرة آلاف: نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، وقيل في عددهم غير ذلك.

وأما المنهزمون من بني أمية فكان منهم عتبة بن أبي سفيان، فخرج هو وعبد الرحمن بن الحكم وأخوه يحيي وساروا في البلاد، فأجارهم بعض أشياعهم من العرب حتى برئت جراحهم، ثم سيرهم نحو الشام في أربعمائة راكب، وكذلك كان شأن مروان بن الحكم وعبد الله بن عامر من بني أمية وغيرهما.

وقد أخذ علي بعد هذا بيعة أهل البصرة ، ثم نظر في بيت المال فوجد فيه ستمائة ألف وزيادة ، فقسمها على من شهد القتال معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة ، فقال لهم : إن أظفركم الله بالشام فلكم مثلها إلى أعطياتكم . فخاض في ذلك من كان خرج على عثمان من أصحابه ، وطعنوا عليه من وراء وراء ، وطعنوا عليه أيضاً حين نهاهم عن أخذ أموال أهل البصرة ، وقالوا : يحلّ لنا دماءهم ، ويحرم علينا أموالهم . وهذا يدل على مقدار تزمتهم في الدين ، وعلى جهلهم بما يحسن من السياسة . وقد أراد علي المقام بالبصرة لإصلاح حالها ، فأعجله أولئك المنحرفون عن المقام فيها ، لأنهم ارتحلوا عنها بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن أرادوه له .

اتخاذ علي الكوفة دار خلافته :

وكان علي قد عزل أبا موسى الأشعري عن الكوفة على ما سبق، وولى عليها قرظة بن كعب الأنصاري ، فخرج أهلها إليه حتى صاروا أكثر جيشه ، ولهذا آثر أن يتخذها دار خلافته، فسار إليها من البصرة وأقام بها ، لأنه وجدها دار نصرته ، وقد سبق أن أهل المدينة تثاقلوا عنه حين دعاهم إلى الخروج معه ، وأن طلحة والزبير وعائشة إنما دبروا أمرهم بمكة على مرأى من أهلها قبل خروجهم إلى البصرة ، وكانت الكوفة عند حسن ظنه به ، فكان أهلها وأهل العراق أشد الناس تشيعاً له .

٣ — موقف معاوية

استغلاله المطالبة بدم عثمان لمآربه السياسية :

طالب طلحة والزبير وعائشة علياً بدم عثمان ، وكانوا مخلصين فى مطالبتهم به ، فلم يتخذوها وسيلة لمآرب سياسية لهم ، لأن لهم من السابقة فى الدين ما يجعلهم يخضعون السياسة له ، ولا يخضعونه للسياسة ، ولهذا صار أمرهم أخيراً إلى قبول الصلح مع على ، لأنهم وجدوه يريد الإصلاح مثلهم ، ولا يمنعه من المبادرة بإجابتهم إلى مطالبتهم بدم عثمان إلا ما يراه من مصلحة التريث فيها إلى أن تستقر الأمور ، وتهدأ الفتن ، ولولا غدر المؤتمرين بعثمان من فريق على وكراهة المنضمين من شيعة بنى أمية إلى فريق طلحة والزبير وعائشة للصلح لتم عقده بينهم ، ولم تكن موقعة الجمل التى سفكت فيها تلك الدماء الغزيرة .

وطالب معاوية بن أبى سفيان بدم عثمان أيضا ، ولكنه لم يكن مخلصا فى مطالبته به ، لأنه لم يكن له من السابقة فى الدين مثل ما لطلحة والزبير وعائشة ، بل كان يخضع الدين للسياسة ولا يخضع السياسة للدين ، فاتخذ المطالبة بدم عثمان وسيلة لا غاية ، لأنه كان يرى فى نفسه أنه ابن أبى سفيان بن حرب رئيس قريش قبل الإسلام ، ويرى أن الشام كله فى قبضة يده ، وقد طالت ولايته على أهله ، واستمالهم إليه بلينه لهم ودهائه

فى سياستهم ، فيمكنه أن يصل بهم إلى مآربه السياسية ، وأن يصل بهم إلى الإمارة على المسلمين بالقوة ، ولو أدى هذا إلى تفريق كلمة المسلمين، ولو أدى هذا إلى مهادنته الروم على إتاوة يدفعها كل سنة لهم ، وإلى أن تعلو كلمتهم عليه وعلى المسلمين بالشام بعد أن كانت كلمة المسلمين هى العالية عليهم ، وهذا قد يكون من حسن السياسة فى نظره لأنه يمكنه من مآربه فيها ، ولكنه ليس من حسن السياسة للمسلمين ، لأنه أضعف أمرهم أمام الروم ، وجعلهم يقبلون دفع إتاوة لهم ، وكان الأشرف له أن يؤثر على هذا وضع يده فى يد على ، وأن يؤثر مهادنتـــه على مهادنة الروم .

طلب على مبايعته وإصراره على قتاله :

فلما انتهى على من أمر طلحة والزبير وعائشـــة توجه إلى معاوية لينتهى منه أيضا ، وقد بدأ بعد موقعة الجمل يدعوه إلى مبايعته بالسلم قبل أن يبدأه بالحرب ، لأنه لا يريد حربه وإنما يريد أن يدخل فيما دخلت فيه جماعة المسلمين ، حفظا للوحدة ، وصونا للدماء، فكتب إليه مع جرير بن عبد الله البجلى :

« سلام عليك ، أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى ، وإن خرج على أمرهم خارج ردّوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه

على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاّه الله ماتولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان ، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكمت القوم إلىّ ، حملتك وإياهم على كتاب الله ، ولعمرى لئن نظرت بعقلك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان . وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله » .

فكتب إليه معاوية :

« سلام عليك، أما بعد فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان ، ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل ،وقوى بك الضعيف ،وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، فأما فضلك فى الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » .

وقد ناقض معاوية فى كتابه نفسه ، لأنه اعترف بفضل على فى الإسلام ، وكان من واجب هذا أن يقبل منه تبرؤه من دم عثمان ، وأن يقبل ما عرضه عليه من التحاكم إليه فيمن يتهمهم بدمه ، وكان له أن يطلب قاضيا محايدا كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ونحوهما ممن اعتزلوا هذه الفتنة ، فيقضى فيمن يتهمهم بكتاب الله تعالى ، ولكنه كما سبق لم يكن مخلصا فى المطالبة بدم عثمان ، ولهذا طعن فيمن بايع عليا

من الحجازيين وفيهم المهاجرون والأنصار ، ولم يجعلهم أهلا للشورى في الخلافة ، وإنما جعل هذا لأهل الشام ، وهنا يبدو طمعه واضحا في الإمارة على المسلمين ، لأن أهل الشام لا يختارون غيره أميراً عليهم، وقد أعذره على بكتابه إليه ، وبهذا تعين قتاله عليه ، ليجمع كلمة المسلمين ، ويمكنهم من تأدية رسالتهم في الأرض بعد اجتماع كلمتهم ، لأنهم لا يمكنهم تأديتها مع هذه الفتن التي توشك أن تقضي عليهم .

تجهز على لقتاله ونظرة في جيشيهما :

كانت الأمصار الإسلامية كلها مع على ما عدا الشام ، ولكن أكثر جيشه كان من أهل العراق وما إليه من البلاد ، وكانوا طوائف متنافرة أثرت فيهم دعايات مختلفة لا يزال لها شيء من الأثر في نفوسهم ، فكان منهم أولئك الأعراب الذين يحسدون على قريش ظهورها في الإسلام ، وكان منهم شيعة لعلى شارك بعضهم في التأليب على عثمان ، وكانوا ينتظرون منه أن يقدّر هذا لهم ، ولكن ظهر لهم أنه غير راض في نفسه عن مسلكهم ، فلم يول واحدا منهم على إمارة من إماراته ، ولم يكتف بهذا بل أظهر أنه إذا اجتمعت كلمة المسلمين نظر في أمرهم، وكان منهم معتزلة في السياسة أثرت فيهم دعوة أبي موسى الأشعري وغيره إلى اعتزال هذه الفتن ، وكان منهم أصحاب هوى في بني أمية ، لما نالوه من مصالحهم في طول ولاية أمرائهم عليهم في خلافة عثمان ، ولا بد أن فريقا منهم قد اندس بين جيش على ليكونوا عيونا عليه لجيش معاوية ، ولكن هذه الطوائف جميعا ما عدا من لها هوى في بني أمية رأوا مصلحتهم ومصلحة

المسلمين فى الانضمام إلى على دون معاوية ، لأنه صار إماما للمسلمين ، وهو الذى يرجى اجتماع كلمتهم عليه عن رضا واختيار منهم ، ليسير بهم فى طريق الشورى الذى سنَّه الإسلام لهم ، ومع هـذا سيكون لهذه النزعات المختلفة أثرها فى جيش على أخيراً ، فيضيع عليه ثمرة النصر أولا ، ثم يخرج بعض أصحابها عليه إلى أن يستبيح سفك دمه .

فإذا نظرنا بعد هذا إلى أهل الشام مع معاوية وجدناهم قد اتفقت أهواؤهم عليه ، ووجدناهم جميعاً على نزعة واحدة ، ووجدناهم يرددون نغمة واحدة هى المطالبة بدم عثمان ، ومعاوية بدهائه يستغل هذا فيهم أقوى استغلال ، وقد انضم إليه داهية آخر لا يقل عنه دهاء ، وهو عمرو ابن العاص ، مع أنه كان فى نفسه أشياء من عثمان قبل قتله ، ولكنه كان من أصحاب المطامع السياسية أيضا ، وقد وجد أن معاوية على شاكلته فى إيثار هذه المطامع على غيرها بخلاف على ، فانضم إليه ليمكنه الوصول معه إلى مطامعه ، وكان له هوى فى الإمارة على مصر التى كان له الفضل فى فتحها ، فمنَّاه معاوية بها إن تم الأمر لهم .

وكان عمرو قد خرج من المدينة حين قامت الفتنة فيها على عثمان ومعه ابناه عبد الله ومحمد فسكن فلسطين ، فلما بلغه قتل عثمان ومطالبة طلحة والزبير وعائشة بدمه انتظر ما يصنعون ، ولما بلغته موقعة الجمل ورأى أنه لم يبق إلا على ومعاوية جمع ابنيه فاستشارهما ، فقال له ابنه عبد الله : توفى النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون ، فأرى أن تكف يدك وتجلس فى بيتك حتى يجتمع الناس . وقال له ابنه محمد : أنت ناب من أنياب العرب ، ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس

لك فيه صوت . فاختار رأى ابنه محمد ، ثم خرج ومعه ابناه حتى قدم على معاوية ، فأعرض عنه أولا لما كان بينه وبين عثمان ، ثم رأى أن ينتفع برأيه أنفع من فضمّه إليه ، وقد كان عمرو لمعاوية برأيه أنفع من جيش كبير ، وسيأتى بيان هذا فى مواضعه .

موقعة صفين وبوادر انتصار على :

فلما تجهز على سار إلى قتال معاوية بعد أن رأى إصراره على الخروج عليه ، ولما بلغ معاوية مسيره إليه استشار عمراً فقال له : أما إذ سار على فسر إليه بنفسك ، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك . فتجهز معاوية وتجهز أهل الشام ، وحضهم عمرو وضعّف عليا وأصحابه ، وقال : إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم ، ووهنوا شوكتهم ، وفلوا حدهم ، وأهل البصرة مخالفون لعلى بمن قتل منهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار على فى شرذمة قليلة ، وقد قتل خليفتكم ، والله الله فى حقكم أن تضيعوه ، وفى دمكم أن تطلّوه .

فسار الفريقان حتى التقوا بصفين ، فأخذ على يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه ، ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعته ، فيقتتلان فى خيلهما ثم ينصرفان ، وكرهوا أن يلتقى جمع أهل العراق بجمع أهل الشام ، وخافوا مايكون فيه من الاستئصال والهلاك ، فلعل الله يهدى إلى الصلح بين الفريقين ، وكان على يقول للناس : لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وتركـكم قتالهم حجة أخرى ، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم

فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس .

فطال القتال بينهم على هذا المنوال ، وجرت رسل الصلح بين الفريقين ، ومعاوية يأبى إلا إصراراً على رأيه ، إلى أن اشتد القتال والتقت جموع أهل العراق بجموع أهل الشام ، ودار القتال بينهم يوماً بعد يوم إلى أن كان اليوم الأخير من هذه الموقعة ، فوصل القتال فيه إلى أقصى مايكون من الشدة ، وكان الأشتر النخعي فى الميمنة ، وابن عباس فى الميسرة ، وعلى فى القلب ، فأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها أشد قتال ، حتى بدا الظفر من ناحيته ، فأمده على بالرجال فقاتل بهم حتى ظهر الضعف على أهل الشام ، وكادوا يقعون فى الهزيمة .

خديعة معاوية وخيانة بعض جيش على :

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ فقال : نعم . فقال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم ، فان أبى بعضهم أن يقبلها وجد فيهم من يقول ينبغى لنا أن نقبل ، فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل . ويقيني أن عمرا لم ير هذا إلا وهو على اتصال بمن كان مندسا فى جيش على من خونة أهل العراق الذين كان لهم هوى فى بنى أمية ، ومن معتزلة السياسة الذين كانوا يرون اعتزال هذه الفتن ، ولم يدخلوا القتال مع على بنية صادقة ، فلم يكن تفكير عمرو فى رفع المصاحف

عفو الساعة ، وإنما كان عن تدبير سابق بينه وبين أولئك الخونة فى جيش على ، لأن هزيمتهم أوشكت أن تقع ، ولم يكن هناك وقت للتفكير فى مثل هذا الأمر ، ولم يكن هناك وقت لجمع المصاحف ، فلا بد أنها كانت معدة لمثل هذا الوقت بتدبير سابق .

إكراهه على قبول التحكيم :

ولهذا لم يكد أهل الشام يرفعون المصاحف ويقولون : هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهله ؟ من لثغور العراق بعد أهله ؟ حتى استجاب لهم ذلك الفريق من جيش على ، وكأنهم كانوا على ميعاد بينهم ، وقالوا : نجيب إلى كتاب الله . فقال لهم على : ويحكم ، والله ما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة . فقالوا : لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله . فقال لهم : فإنى إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونسوا عهده ونبذوا كتابه . فقالوا له : أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه ، وإلا دفعناك برمتك الى القوم . فقال لهم : فاحفظوا عنى نهيى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى ، فإن تطيعونى فقاتلوا ، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم . فقالوا له : ابعث الى الأشتر فليأتك . فبعث اليه يستدعيه فقال لمن بعثه اليه : ليست هذه الساعة بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى عن موقفى ، إنى قد رجوت أن يفتح الله لى . فبعث إليه ثانياً بعد أن اتهموه بمخادعته لهم وأنهم معتزلوه إن لم يستدعه : أقبل الىَّ ، فإن الفتنة قد وقعت . فلم يسعه إلا أن يكف عن القتال ، ولم يسع عليا إلا أن يقبل هذا التحكيم .

خطأ نسبة إكراهه عليه إلى الخوارج :

ويخطىء المؤرخون فيذكرون أن الذين استجابوا لرفع المصاحف هم الخوارج الذين شاركوا فى قتل عثمان ، وهذا عندى بعيد كل البعد ، لأنهم كانوا أسوأ أصحاب على ظناً بمعاوية ، فلا يعقل أن يكونوا أول من يستجيب لمكيدته ، وهذا إلى ما سيأتى من إنكارهم لقبول هذا التحكيم ، وهذا لا يستقيم مع مبادرتهم بالاستجابة له ، ولا يستقيم أيضاً مع اختيارهم للتحكيم أباموسى الأشعرى عن على مع معارضته فى اختياره عنه ، لأن أباموسى كان يرى خلاف رأيهم فى عثمان ، وكان كارهاً للفتنة التى أثاروها داعياً إلى اعتزالها ، فلا يعقل أن يختاره إلا من كان على رأيه فى اعتزال هذه الفتنة ، من الطوائف التى اندست فى جيش على بغير صدق نية فى القتال معه .

ولأمر ما يجمع الأشعث بن قيس قومه من كندة فى ليلة اليوم الذى بدا فيه ذلك النصر ورفعت المصاحف ، وكانوا يقاتلون مع على ، فيقول لهم : قد رأيتم يامعشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى ، وماقد فنى فيه من العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن تواقفنا غداً إنه لفنيت العرب ، وضيعت الحرمات ، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فنينا .

وكان الأشعث رجلا طموحاً على غرار معاوية وعمرو ، وقد أداه طموحه إلى أن يظهر الردة مع المرتدين بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ،

وكان آباؤه ملوك كندة ، فطمح أن يسترد ملكهم إذا ارتد عن الإسلام، ولما ظفر المسلمون به أتى أبا بكر فقبل توبته ، وزوجه أخته أم فروة تأليفاً له .

ولأمر ما تظهر المكيدة فى الغد الذى حذر منه الأشعث ، ألا يدل هذا على اتفاق بينه وبين معاوية وعمرو على هذه المكيدة ، وعلى أنه رأى أخيراً أن مثله لا يكون له شأن إذا ظفر على ، لأنه رجل طموح وعلى يكره أمثاله من الطامحين فى الظهور والإمارة ، فرأى أن يحدث فى جيشه هذه الفرقة ، ووافقه عليه من اندس فى جيش على ممن له هوى فى بنى أمية ، وممن كان رأيهم أولا اعتزال هذه الفتنة .

ولأمر ما يكون الأشعث أول من يذهب إلى على بعد الكف عن القتال فيقول له : ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى مادعوهم إليه من حكم القرآن ، فإذا شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت مايسأل . ثم يذهب إليه فيسأله : لأى شىء رفعتم هذه المصاحف؟ فيقول : لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه . فيقول له الأشعث : هذا هو الحق .

أما إن هذا كله ليدل على أن رفع المصاحف أمر دبر بليل على ماذكرت ، وعلى أنه كان من جيش على من كان يعلم به فبادر بالاستجابة له .

ويقينى كما سبق أن الأشعث وأمثاله كانوا هيوتا فى جيش على لمعاوية،

ومما يؤيد هذا أن الأشعث أتى علياً حين أراد المسير إلى صفّين فقال له : يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا ، وكلّت سيوفنا ، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا . فكان لكلامه هذا أثر فى نفوس الماكرين من أمثاله ، فتسللوا من جيش على معه ، فإذا كانوا قد عادوا بعد هذا إلى جيشه فليكونوا فيه عيوناً لمعاوية ، وليساعدوا فى تدبير تلك المكيدة ، على أنى مع هذا لا أمانع أن أفراداً من الخوارج كان رأيهم قبول التحكيم أيضا ، وإنما أمنع نسبة هذا إلى جمهورهم .

---

٤ ـ التحكيم بين علي ومعاوية

تعيين الحكمين وتأجيل اجتماعهما :

كان رفع المصاحف خدعة من عمرو ومعاوية ، ولم يرض به علي إلا مكرها ، لأنه رأى أنه إذا لم يقبله أوقع الفتنة بين أصحابه ، وقد سبق أن رفع المصاحف وما أدى إليه من التحكيم كان عن مؤامرة سرية اشترك فيها بعض الخونة من جيش علي ، ممن كان له هوى في بني أمية ، وممن دخل القتال معه من معتزلة السياسة بغير صدق نية فيه ، ممن أثرت فيهم دعاية أبي موسى الأشعري حين كان أميراً على الكوفة ، كما سبق أن الأشعث بن قيس الكندي كان بطل هذه المؤامرة ، وأن ما يذكره المؤرخون من أن الخوارج هم الذين أكرهوا عليا على ذلك غير صحيح .

وقد قام التحكيم على أن يكون من اثنين : واحد عن علي ، وواحد عن معاوية ، فأما معاوية وأهل الشام فقد اختاروا عنهم عمرا باتفاق بينهم عليه ، لأن أمر التحكيم كان من تدبيره ، فرأوا أن يسير فيه إلى نهايته ، ليصل به إلى الغاية التي دبره من أجلها ، وهي إشاعة الفرقة والفساد بين أصحاب علي ، وأما علي فقد فرض عليه الأشعث ومن ائتمر معه أبا موسى الأشعري ، وهذا يبين نزعتهم في ائتمارهم واختيارهم له ، وهي نزعة تخالف نزعة الخوارج الذين ينسب إليهم اختياره خطأ ممن ينسبه إليهم ، لأن نزعته لم تكن من نزعتهم .

فقال على لمن اختاروه نائباً عنه : قد عصيتمونى فى أول الأمر ، فلا تعصونى الآن ، لا أرى أن أولى أبا موسى . فقال له الأشعث ومن معه: لانرضى إلا به ، فإنه قد حذرنا ماوقعنا فيه . فقال على : فإنه ليس بثقة ، قد فارقنى وخذّل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى أمّنته بعد أشهر ، هذا ابن عباس أوليه ذلك . فقالوا له : والله لانبالى أنت كنت أم ابن عباس ، لانريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء . فقال لهم : فإنى أجعل الأشتر . فقالوا له : وهل سعّر الأرض غير الأشتر ؟ فقال لهم : قد أبيتم إلا أبا موسى فاصنعوا ما أردتم . فقبله على مكرها كما قبل التحكيم مكرهاً.

ولما فرض هذا الفريق الخائن من أصحاب على أبا موسى عليه أتاه الأحنف بن قيس فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رميت بحجر الأرض — يعنى عمراً — وإنى قد عجمت أبا موسى وحلبت أشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب القعر ، وإنه لايصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير فى أكفهم ، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلنى حكماً فاجعلنى ثانيا أو ثالثا ، فإنه لايعقد عقدة إلا حللتها ، ولايحل عقدة أعقدها لك إلا عقدت أخرى أحكم منها .

فأبى هذا الفريق إلا أبا موسى والرضا بالكتاب ، مما يدل على أنهم يريدونه فى غير مصلحة على عن عمد ، لتتم مؤامرتهم ويصلوا إلى غايتهم منها ، فلما أبوا إلا أبا موسى بعثوا إليه فحضر إلى على ، وحضر عمرو إليه أيضا ، ليكتبوا بما اتفقوا عليه من التحكيم كتابا بينهم .

فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين. فقال عمرو : هو أميركم ، وأما أميرنا فلا . فقال الأحنف : لاتمحوا

اسم أمير المؤمنين ، فإني أخاف إن محوتموه ألاّ يرجع إليه أبداً ، لا تمحوه وإن قتل الناس بعضهم بعضاً . فقال الأشعث للكاتب : أمح هذا الاسم . فمحاه ولم يسمع للأحنف ، وهذا يدل أيضا على سوء نية الأشعث ، وهذا هو نص الكتاب :

« هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم ، أننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، وألاّ يجمع بيننا غيره ، نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله — وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص — عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسُّنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وكتب لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين »

وقد أخذ الحكمان العهود من الفريقين أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لها أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وقد أجلا القضاء إلى شهر رمضان من هذه السنة — ٣٧ هـ — ٦٥٧ م — واتفقا على أن يكون موضع التحكيم دومة الجندل .

فلما انتهوا من هذا خرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس ، حتى مر على طائفة من بني تميم فيهم عمرو بن أديّة التيمي فقال له : تحكمون في أمر الله الرجال ! لا حكم إلا لله . ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة فاندفعت الدابة بالأشعث وغضب له قومه وناس كثير من أهل اليمن ، فمشى إليه الأحنف وغيره من وجوه بني تميم فاعتذروا إليه حتى رضي هو ومن غضب له ، وسيأتي أن ماقاله

عمرو بن أدية هو الذى يمثل رأى الخوارج فى هذا التحكيم ، فلا يصح أن ينسب إليهم أنهم هم الذين دعوا علياً إلى قبوله ، وهـذا يدل على مقدار غيظهم من الأشعث الذى أخذ على عاتقه هذا التحكيم من أوله إلى آخره ، وعلى أنهم لم يكن لهم يد فيما قام به من ذلك كله .

وكان الأشتر قد دعى ليشهد مع من شهد فى ذلك الكتاب ، فقال : لا صحبتنى يمينى ، ولا نفعتنى بعدها شمالى ، إنْ خُطَّ لى فى هذه الصحيفة . فقيل لعلى : إن الأشـتر لا يقر بما فى الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم ، فقال على : وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا ، فإذ أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت ، وإذ رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، إلا أن يعصى الله ويتعدى كتابه ، فقاتلوا من ترك أمر الله ، وأما ما ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ، فلست أخاف على ذلك ، يا ليت فيكم مثله اثنين ، يا ليت فيكم مثله واحداً، يرى فى عدوى ما أرى ، إذن لخفَّت على مؤونتكم، ورجوت أن يستقيم لى بعض أودكم ، وقـد نهيتكم فعصيتمونى ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

وهل أنا إلا من غزيَّة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

والحقيقة أن علياً ارتكب فى ذلك أخف الضررين ، وارتكاب أخف الضررين من الرشد أيضاً ، وإن لم يكن رشداً كاملا ، وقد كان الأشتر ممن ألب على عثمان ، وكان لعلى رأيه السابق فيهم ، ولكن حاجته إلى مثله فى عظيم بلائه وحسن إخلاصه له جعلته يتغاضى عن ماضيه ، والمضطر يركب الصعب ، وليس من حسن السياسة أن يصبح

الأشتر أقوى أنصاره ثم يستمر على مجافاته لاشتراكه فى التأليب على عثمان ، ويحرم نفسه من رجل لا يرى فى أصحابه مثله ، فإذا كان فى هذا شيء يؤخذ عليه فالذنب إنما يقع على من أحوجه اليه .

انقسام أصحاب على بعد التحكيم وخروج بعضهم عليه :

ثم رجع على إلى الكوفة وقد فشت قولة عمرو بن أدية السابقة فى أصحابه ، وأخذ بها كثير منهم ، فأنكروا تحكيم الرجال مثله فى أمر الله ، وبهذا انقسم أصحابه إلى قسمين : فريق رضى بالتحكيم عن اختيار أو كره ، وفريق أنكره وأظهر الخروج بسببه ، وسيأتى بيان أمرهم ، وبهذا رجع أصحاب على وهم أعداء متباغضون يشتم بعضهم بعضا فى طريقهم إلى الكوفة ، ويتضاربون بالسياط فيه ، فلما وصل إلى الكوفة سمع البكاء فى كثير من دورها ، فقال : ما هذه الأصوات ؟ فقيل : البكاء على قتلى صفين . فقال : أما إنى أشهد لمن قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة ، ألا تنهونهن عن هذا الرنين ، فقالوا : لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثة قدرنا على ذلك ، ولكن قتل من هذا الحى ثمانون ومائة قتيل ، فليس دار إلا وفيها البكاء ، فأما نحن معشر الرجال فإنا لا نبكى ، ولكنا نفرح بالشهادة . ثم مر على حى الناعطيين وكان جلهم عثمانية ، فسمع بعضهم يقول : والله ما صنع على شيئاً ، ذهب ثم انصرف فى غير شيء . فلما رأوه أبلسوا (١) فقال لأصحابه : من فارقناهم آنفاً خير من هؤلاء ، ثم قال :

---

(١) انقطعوا عن الكلام .

أخوك الذى إن أجرضتك ملمّة من الدهر لم يبرح لبثّك واجما(١)
وليس أخوك بالذى إن تشعبت
عليك الأمور ظل يلحاك لائماً(٢)

ثم مضى يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة ، فلما دخل الكوفة لم يدخل الذين أنكروا التحكيم معه ، بل أتوا حروراء فنزلوا بها ، وسيأتى بيان أمرهم معه .

اجتماع الحكمين واختلافهما :

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى ، وأرسل معهم عبد الله بن عباس ليصلى بهم ويلى أمورهم ، ومعهم أبو موسى الأشعرى ، وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام ، فساروا جميعاً حتى توافوا من دومة الجندل ، وكان عمرو إذا أتاه كتاب من معاوية لا يسأله أحد من أهل الشام عما فيه ، حتى لا يعلم أصحاب على به ، وكان ابن عباس إذا أتاه كتاب من على يسأله خونة أهل العراق عما فيه ، فإذا كتمه عنهم ظنوا به الظنون ، وقد حضر مع الفريقين كثير من وجوه الصحابة ، كعبد الله ابن عمر وغيره ، حتى يكون لهذا الاجتماع أثره فى جمع كلمة المسلمين ، وأثره فى الحكمين وما يقضيان به .

ثم اجتمع أبو موسى وعمرو لأول مرة بعد الاتفاق على تحكيمهما ،

(١) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على هم وحزن ، والبث : أشد الحزن .
(٢) يلحاك : يلومك .

وأبو موسى لا يهمه أمر علي بقدر ما يهم عمرا أمر معاوية ، بل كان أمر علي ومعاوية سواء عنده ، وقد كان رأيه في اعتزال فتنتهما ، وفي إساءة الظن بمن اشترك في هـــذه الفتنة ، وعمرو لا يشاركه في هذا الرأي ، لأنه اشترك في هذه الفتنة وانضم فيها إلى معاوية ، فلا يمكن أن يسيء الظن بمعاوية من جهتها ، وإلا أساء الظن بنفسه أيضا ، وكان عمرو بدهائه وفطنته يعلم ما في نفس أبي موسى من ذلك ، وأبو موسى بطيبة نفسه لا يعلم ما بنفس عمرو ، بل يظنه قد تجرد مما في نفسه بعد تعيينه حكما .

فأراد عمرو أن يستدرج أبا موسى حتى يصرح برأيه في علي ومعاوية وخلعهما معاً ليكون الأمر شورى بين المسلمين ، ثم يأخذه برأيه في علي الذي ناب عنه ، ويستمسك برأيه في معاوية لأنه لا يوافقه فيه ، فلم يزل به يستدرجه في حوار طويل ، وكان مما دبره لذلك ومهد به له أن جعله يبدأ بالكلام لأنه أسن وأقدم صحبة ، فلما استدرجه لذلك أخذ كل منهما يعرض على الآخر أسماء يختارها للخلافة فلا يوافقه عليها ، إلى أن أعيا عمرو أبا موسى وألجأه إلى أن يكتفي بخلع علي ومعاوية وإعادة الخلافة شورى بين المسلمين ليختاروا لها من يشاءون ، فقال له أخيراً . خبرني ما رأيك ؟ فقال : أرى أن نخلع الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . فقال عمرو : الرأي ما رأيت . وهو كلام غامض اختاره عمرو على عمد ، لأنه لم يصرح فيه بأن هذا رأيه فيقول رأيي ما رأيت ، فيعترف بأنه رأيه أيضا صريحاً ، وإنما قال كلاما موجها ابتعد فيه عن نسبة رأيه له ، حتى لا يكون

صريحاً فى موافقته عليه ، وكان على أبى موسى أن يأخذ منه كلاما صريحا بموافقته على رأيه .

ثم خرجا بعد هذا إلى الناس ، وكان على أبى موسى أن يجعل عمرا هو البادىء بالكلام ، لما عرف به من الدهاء والمكر ، ولأنه يشترك هو ومعاوية فى هذه الفتنة ، فيبعد أن يوافق على رأى فى غير مصلحته ، ولكن عمرا كان قد عوّد أبا موسى على أن يكون هو البادىء كما سبق ، ليصل إلى غايته فى استدراجه له، فجرى على عادته وابتدأ بالكلام فقال : إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة . فقال له ابن عباس: ويحك ، إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ، ثم تكلم به بعده . فقال أبو موسى له : إنا قد اتفقنا . ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، ويولى الناس أمرهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه أهلا » .

ثم أقبل عمرو فقال :

« أيها الناس ، إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه.وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولىّ ابن عفان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

فقال أبو موسى لعمرو: لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . فقال له عمرو : إنك مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . ثم هرب أبو موسى حياء من الناس إلى

مكة ، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ، لأن عليا قد خلعه من ناب عنه من خلافته ، وقد فاتهم أن الخلافة لا تؤخذ بالمكر والخديعة ، وإنما يكون هذا ملكا لا خلافة ، وما كان الناس ليبايعوا معاوية بها مع وجود علي وسعد بن أبي وقاص وغيرهما ممن ليس لمعاوية مثل سابقتهم وفضلهم ، ولو أنهم كانوا واثقين من مبايعة المسلمين له بها لرضي عمرو بما رآه أبو موسى من خلع علي ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين ، ولكنه رأى أنه لو خلع معاوية لضيع عليه ما يستغله من المطالبة بدم عثمان ، ولا يكون هناك من يلتفت إليه من المسلمين إلا أهل الشام إن بقوا على ولائهم له ، مع أن ولاءهم له كان لما ينالهم من ماله ، فإذا خرجت إمارة الشام من يده لم يكن هناك ما يجمعهم حوله .

ولم يكن ينتظر لذلك التحكيم الباطل إلا ذلك الفشل الذريع ، وإنما كان باطلا لأنه لم يقم بشورى صحيحة ، لأن عليا أكره على قبوله إكراها ، وأكره على قبول أبي موسى نائبا عنه إكراها ، ولأن كلا من معاوية وعمرو كان يقصد به المكر والخديعة ، ويرمى إلى أحداث الفرقة به في أصحاب علي ، ولأن عمراً لم يكن ليصح دخوله في هذا التحكيم ، لأنه كان خصما لعلي كمعاوية ، ولأنه كان الواجب أن يكون في التحكيم أكثر من رجلين ، حتى يمكن الترجيح بكثرة العدد عند حصول الخلاف في التحكيم ، ولأنه كان يجب تعيين موضوع التحكيم حتى لا يتناول الحكم في خلافة علي ، لأنها كانت خلافة صحيحة باختيار جمهور المسلمين له ، فلا يصح أن تكون موضع نزاع بين الحكمين ، وإنما كان يجب حصر موضوع النزاع في المطالبة بدم عثمان ، ولو أنه حصر فيها لأمكن الاتفاق عليها كما حصل في المطالبة بها من طلحة والزبير وعائشة ، وإن كان معاوية لم يكن مخلصا فيها مثلهم ، وإنما كان يتخذها وسيلة لا غاية كما سبق .

٥ ــ موقف الخوارج

خلطهم بين الدين والسياسة :

سبق أن علياً لما رجع من صِفِّين إلى الكوفة فارقه الذين أنكروا التحكيم من أصحابه ، واعتزلوه بحروراء فى اثنى عشر ألفا ، ونادى مناديهم : أن أمير القتال شبث بن ربعى التميمى ، وأمير الصلاة عبد الله ابن الكوّاء اليشكرى ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان هذا بدء خروجهم عن طاعة على ، ومن أجل هذا سموا بالخوارج ، كما سموا أيضا بالحرورية نسبة إلى أول بلد خرجوا عليه فيها ، وكان بينهم كثير ممن خرج على عثمان عصبية على قريش ، وحسد الظهور أمرها بالإسلام ، وقد ظهروا هنا صريحاً بأمرهم ، فاختاروا عليهم أمراء من قبائلهم ، ونادوا بما نادوا به سترا لأغراضهم .

فلما بلغ علياً أمرهم قامت شيعته فقالوا له : فى أعناقنا بيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت . وكانت بيعتهم الأولى له بالخلافة ، وهذه بيعة ثانية لهم على موالاة من يواليه ، وعلى معاداة من يعاديه ، وهم يقصدون بمن يعاديه أولئك الخوارج الذين كانوا قبل خروجهم إخواناً لهم ، فقال لهم الخوارج حين بايعوه على هذا : أنتم

وأهل الشام إلى الكفر كفرسى رهان ، بايع أهل الشـــام معاوية على ما أحبوا وكرهوا ، وبايعتم أنتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى . فقال لهم زياد بن النضر من أصحاب على : والله مابسط على يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله وسنة نبيه ، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا له نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت ، ونحن كذلك ، وهو على الحق والهدى ومن خالفه ضال مضل .

وكذلك خلط أولئك الخوارج بين السياســـة والدين ، لأن هذه الخلافات التى قامت بين الصحابة كانت خلافات سياسية من أولها إلى آخرها ، ومسائل السياسة ليست من أصول الدين ، وهى محل اجتهاد يصيب فيها من يصيب ويخطىء فيها من يخطىء ، ومن يخطىء فيها قد يعذر فى خطئه إن كان حسن النية ، ويقصد إلى مصلحة عامة ، فإذا لم يكن حسن النية ولم يكن يقصد إلى مصلحة عامة فإنه لا يعذر فى خطئه ، بل يكون آثما فيه ، ولكن أمره لا يصل إلى الكفر ، ولهذا لم يكفر الصحابة بعضهم بعضاً فى كل ماسبق مع وصوله إلى القتال بينهم ، إلى أن ظهر أولئك الخوارج فاستباحوا تكفيرهم وتكفير غيرهم على مخالفتهم لهم ، ولم يكن هذا إلا خلافا فى رأى سياسى .

تكفيرهم لعلى وإقناعه لهم :

وقد جرى على معهم على عادته فى الأخذ بالحسنى ، فبعث عبد الله ابن عباس إليهم وقال له : لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك . فخرج إليهم فأقبلوا يكلمونه فلم يصبر حتى راجعهم فقال لهم : ما نقمتم

من الحكمين؟ وقد قال تعالى (١) (إنْ يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا له : أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزانى مائة جلدة ، وفى السارق القطع ، فليس للعباد أن ينظروا فيه . ثم قالوا له . أعدل عندك عمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ؟ فإن كان عدلا فلسنا بعدول ، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا ، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكم الموادعة ، وقد قطع الله الموادعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية .

فجعلوا فى هذا حكم معاوية كحكم المحاربين من أهل الكتاب وغيرهم ، لأنهم كفار فى نظرهم .

فلما أراد على الخروج إليهم سأل عن أشدهم إطاعة له ، فأخبر بأنهم لم يروا عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس ، فخرج فى الناس حتى دخل إليهم فأتى فسطاطه فصلى فيه ركعتين ، وأمّره على أصبهان والرّى ، ليكون معه فى أخذهم بالسلم ، ويتجنب به سفك الدماء بينه وبينهم ، ولا شك أن هذا حسن سياسة منه ، ثم خرج حتى انتهى إليهم وهم يجادلون ابن عباس ، فقال له : ألم أنهك عن كلامهم ؟ ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ فقالوا : ابن الكوّاء . فقال لهم : فما أخرجكم علينا ؟ فقالوا له : حكومتك يوم صفين . فأجابهم بما كان من رأيه من المضى فى القتال وما كان ممن خالفه فى ذلك حتى صارت فتنة بينهم ، ثم قال لهم : قد اشترطت على

---

(١) ى ٣٥ س ٤

الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف ، وإن أبيا فنحن عن حكمهما برآء . فقالوا له : خبرنا ، أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ فقال لهم : إنا لسنا حكمنا الرجال ، إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . ثم أمرهم أن يدخلوا مصرهم — الكوفة — فدخلوا جميعاً .

خروجهم عليه ثانيا وقتاله لهم بعد قتلهم الأبرياء :

فلما أراد على أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه زرعة بن البرج الطائى وحرقوص بن زهير السعدى من الخوارج فقالا له : لا حكم إلا لله . فقال على : لا حكم إلا لله . وهو يريد بها غير مايريدان على ماسبق ، فقال له حرقوص : تُبْ من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك . وحرقوص هذا هو الذى طلبه أصحاب طلحة والزبير وعائشة لاشتراكه فى التأليب على عثمان فمنعه قومه ، فقال له على : قد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشرطنا شروطاً ، وقد قال الله تعالى [1] (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) فقال له حرقوص : ذلك ذنب ينبغى أن تتوب عنه . فقال له على : ما هو ذنب ولكنه عجز فى الرأى . فقال له زرعة : ياعلى ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك ، أطلب وجه الله تعالى . فقال له على : بؤسا لك ما أشقاك كأنى بك قتيلا تسفى عليك الرياح .

ثم أخذ أولئك الخوارج يشغبون عليه بعد ذلك بهذه السفاهات ، فلما ضاق بهم قال لهم : إن لكم عندنا ثلاثا ماصحبتمونا : لا نمنعكم

---

(١) ى ٩١ س ١٦

مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفىء مادامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا .

فلقى بعضهم بعضا وعرضوا الإمارة عليهم على عبد الله بن وهب الراسبي فقال لهم : هاتوها ، أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا، ولا أدعها فرقاً من الموت. ولو كان هو وإخوانه صادقين فى ذلك لقصدوا بتآمرهم هذا معاوية وأصحابه ، لأنهم هم الذين دبروا هذا التحكيم الذى خرجوا من أجله ، ولم يكن على راضيا به وإنما غاب على أمره فيه ، ولكنهم قوم أعماهم الله عن الحق ، وكانوا أصحاب عبادة وزهد لا يدرون شيئاً من أمور السياسة ، وكان الأجدر بهم أن يتركوها لأهلها ، حتى لا يؤدى جهلهم بها إلى إيثار قتال على والخروج عليه على قتال معاوية ، وإلى ما يأتى من قتل الآمنين من الناس على مخالفتهم لهم فى الرأى .

ثم خرجوا من الكوفة فى خفية حتى اجتمعوا بجسر النهرون، وكاتبوا إخوانهم بالبصرة فساروا إليهم ، وقد تركهم على إلى أن كان من أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ما سبق فى الكلام على التحكيم ، فدعا أصحابه بالكوفة إلى قتال أهل الشام ، وكتب إلى أولئك الخوارج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد ابن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس ، أما بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا القرآن حكما ، فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون ، فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا إلينا ،

فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه » .

فكتبوا إليه :

« أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، وإنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نبذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » .

وإنه لفرق بعيد بين الكتابين : كتاب على ينم عن حكمة وعقل ، ويجرى على أدب الإسلام الذى أخذ به نفسه منذ الصغر ، وكتابهم كتاب أعراب دخلوا الإسلام بأعرابيتهم وخشونتهم ، فظنوا خشونتهم دينا ، وظنوا سماحة على كفراً ، وأخذوا لجهلهم بالدين يدعونه إلى أن يشهد على نفسه بالكفر ، وهذا أسوأ ما يكون من الخلط بين الدين والسياسة ، ولا غرو فهو من قوم يجهلون الدين والسياسة معا .

فلما قرأ على كتابهم أيس منهم ، ورأى أن يدعهم ويمضى لقتال أهل الشام ، فعسى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى الانضمام إلى إخوانهم ، وبلغه أن أناساً من أهل الكوفة يقولون : لو سار بنا أمير المؤمنين إلى قتال هذه الحرورية ، وإذا فرغنا منهم سرنا إلى قتال المحلين . يعنون أهل الشام الذين أحلوا ما حرم الله . فقال لهم : بلغنى أنكم قلتم إن غير هؤلاء الخارجين — أهل الشام — أهم إلينا ، فدعوا ذكرهم — يعنى الحرورية — وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكا ، ويتخذوا عباد الله خولا . فناداه الناس أن سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت .

ولكن أولئك الحرورية زادوا فى بغيهم وعدوانهم على الناس ، وبلغ من أمرهم أن خارجة البصرة لما دنت من النهروان حين بعث إخوانهم فيما سبق اليهم ، رأى عصابة منهم رجلا يسوق بامرأة على حمار ، فدعوه فانتهروه وأفزعوه وقالوا له : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله بن خبَّاب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا له : لا روع عليك ، حدثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعنا به. فقال : حدثنى أبى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ، ويصبح كافراً ، ويصبح كافراً ويمسى مؤمناً . فقالوا : لهذا الحديث سألناك . فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيراً ، فقالوا : ما تقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟ فقال : إنه كان محقاً فى أولها وفى آخرها . فقالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ فقال : إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرة . فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسمائها لا على أفعالها ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً . فأخذوه وكتفوه وأقبلوا به وبامرأته وهى حبلى متمّ حتى نزلوا تحت نخل ، فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم إلى فيه ، فقال له آخر منهم : أخذتها بغير حلها . فألقاها من فيه ، ثم مر بهم خنزير لأهل الذمة ، فضربه واحد منهم بسيفه ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض . فلقى صاحب الخنزير فأرضاه ، فلما رأى هذا منهم عبد الله بن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علىّ منكم من بأس ، إنى مسلم ما أحدثت فى الإسلام حدثاً ، ولقد أمنتمونى قلتم لا روع عليك . فأضجعوه فذبحوه ، وأقبلوا

إلى امرأته فقالت لهم : أنا امرأة، ألا تتقون الله. فبقروا بطنها ، ثم قتلوا بعد هذا ثلاث نسوة من طيء ، وقتلوا أم سنان الصيداوية ، فلما بلغ علياً ما فعلوه من هذا وغيره بعث إليهم الحارث بن مرة العبدى ليأتيهم وينظروا ما بلغه عنهم ، فقتلوه أيضا .

وهذه حرية أولئك الخوارج التى يدعيها لهم بعض أدعياء العلم فى عصرنا ، حرية تستبيح قتل ذلك الرجل الحر الشجاع عبد الله بن خباب ، وقد سألوه رأيه فأبداه لهم بكل حرية وشجاعة ولم يخف جمعهم ، فلم يقدروا هذه الحرية والشجاعة له ، ولم يكن عندهم من المروءة ما يمنعهم من قتله وهو وحيد لا يقدر على دفعهم وحده ، وحرية أيضا تستبيح قتل النساء ، وقتل الحبالى وما فى بطونهن ، وتستبيح قتل رسول على إليهم والرسول لا يقتل ، ألا قبح الله تلك العبادة التى أوقعتهم فى ذلك الغرور والجهل ، وقبح الله ذلك الزهد الذى أوقعهم فى ذلك التنطع الدينى ، وقبح الله قوماً خدعوا فى أنفسهم وظنوا فيها القدرة على الحكم، وليس فيهم شىء من صفات الحكام .

فاجتمع أهل الكوفة بعلى وقالوا له : يا أمير المؤمنين ، علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفونا فى عيالنا وأموالنا ؟ سر بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام . فخرج على بأصحابه حتى وصل إليهم ، ولم يبدأهم بالقتال بل أرسل إليهم أن ادفعوا قتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم . فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم ، فخرج إليهم قيس بن عبادة فقال لهم : عباد الله ، أخرجوا إلينا طلبتنا منكم . وادخلوا فى هذا

الأمر الذى خرجتم منه ، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم . فقال له عبد الله بن شجرة السُّلمى : إن الحق قد أضاء لنا ، فلسنا متابعيكم أو تأتونا بمثل عمر ؟ فقال له قيس : ما نعلمه غير صاحبنا — يعنى عليا — فهل تعلمونكم فيكم؟فقالوا : لا . وما أصدق هذا الجواب منهم ،لأن عمر يبرأ من أفعالهم وإن تمسحوا به هذا التمسح،فقد كان عدلا شجاعا كريما يعف عن تلك الدنايا منهم .

فلما أيس على منهم عبّى جيشه ، وجعل على ميمنته حُجر بن عدى ، وعلى ميسرته شبث بن ربعى ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصارى ، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصارى ، وعلى أهل المدينة وهم سبعمائة أو ثمانمائة قيس بن سعد ، ثم أعطى أبا أيوب راية الأمان ، فنادى الحرورية : من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ، ومن لم يقتل ولم يستعرض ومن انصرف منكم فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم .وكانوا أربعة آلاف،فخرج إلى على نحو مائة،وانصرف أكثرهم إلى الكوفة وغيرها ،وبقى منهم مع عبدالله بن وهب ألف وثمانمائة، فزحفوا إلى على وهو كاف عنهم حتى يكونوا هم البادئين بقتاله ، فلما زحفوا إليه أحاط بهم أصحابه من كل جهة فأتوا عليهم فى ساعة.وكأنما قيل لهم موتوا فماتوا ، ولم يقتل من أصحاب على إلا سبعة .

ولما فرغ على من أولئك الحرورية أراد أن يسير بمن معه إلى قتال أهل الشام ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا ، وكلّت سيوفنا ، فارجع إلى مصرنا — الكوفة — فلنستعد ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا ، فإنه أقوى لنا على عدونا . وكان الأشعث بن قيس

الكندى هو الذى تولى كلامه عنهم ، لأنه كان لايزال مندساً بين أصحاب على ليتم مؤامرته السابقة ، ويثبط أصحاب على عن الخروج إلى أهل الشام ، وقد كان ممن أشار فيما سبق بإيثار قتال الحرورية على قتالهم .

فسار بهم على نحو الكوفة حتى نزل النخيلة قريباً منها ، وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يقلّوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم ، فأقاموا فيه أياما ثم تسللوا من معسكرهم إلا رجالا من وجوه الناس ، فأخذ على يحرضهم ويستحثهم وهم لا يزدادون إلا تثاقلا عن الخروج إلى أهل الشام ، وكان هذا التثاقل سبباً فى جراءة أهل الشام وغيرهم عليهم .

خروجهم بفارس مع علوج ولصوص ومرتدين :

وكان من أولئك الخوارج الخريت بن راشد الناجى ، وكان قد جاء إلى على ومعه ثلثمائة من بنى ناجية ، فشهدوا معه الجمل وصفين ، وأقام معه بالكوفة إلى أن فرغ من الحرورية ورأى ما رأى من تثاقل أصحابه عنه ، فأتاه فى ثلاثين من قومه فقال له : يا على ، والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلى خلفك ، وإنى غدا مفارق لك ، لأنك حكّمت وضعفت عن الحق ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا — قوم معاوية — فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعاً مباين . ثم خرج من عنده منصرفا إلى أهله ، وسار من ليلته هو وأصحابه كما خرج الحرورية من قبلهم ، فأتى زياد ابن خصفة البكرى إلى على فأشار عليه ألاّ يتركهم يعيشون فى الأرض كالحرورية ، فأمره على بأن يسير وراءهم ومعه مائة وثلاثون من قومه

بنى بكر، وكانوا قد ساروا إلى نفـَّر(١) وقتلوا رجلا من دهاقين الفرس كان أسلم، فسار زياد وراءهم حتى أدركهم بجرجرايا، وكان عددهم كعدد أصحابه، فدار قتال شديد بينهم إلى أن أدركهم الليل ولم يفز أحدهما بالآخر، فلما أقبل الليل سار الخريت نحو الأهواز فنزل بجانب منها، وقد كثر أصحابه حتى بلغوا مائتين، إلى علوج(٢) كثير من الفرس أرادوا كسر الخراج الذى عليهم، وكذلك لصوص وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه، فطمع أهل الخراج فى كسره فكسروه، وأخرجوا العامل عليهم من فارس، وكذلك يبلغ فساد أولئك الخوارج الذين يدعون إلى الإصلاح فى زعمهم إلى حد تضييع بعض ما فتحه المسلمون من بلاد الفرس، وإلى حد أن يؤثروا محالفة أولئك العلوج واللصوص على الطاعة لعلى .

فلما وصل أمره إلى ذلك الحد أرسل على إليه معقل بن قيس الرياحى فى ألفين، وكتب إلى ابن عباس بالبصرة أن يبعث رجلا شجاعا معروفاً بالصلاح فى ألفى رجل إلى معقل، فكتب إليه ابن عباس: أنا أكفيك فارس بزياد. وكان فتى من ثقيف له رأى وإقدام، وهو الذى استلحقه معاوية حين صار الأمر إليه بأبيه أبى سفيان، فسار إلى فارس فى جمع كثير وطىء بلادها، فأدَّوا الخراج واستقاموا، ثم أرسل خالد بن معدان الطائى فى ألفين من أهل البصرة مدد المعقل كما طلب منه على، فساروا جميعاً حتى لحقوا الخريت قرب جبل من جبال رامهرمز، فصفَّ معقل

(١) بلدة من أعمال بابل .

(٢) جمع علج وهو الكافر من العجم .

أصحابه وجعل على ميمنته يزيد بن المعقل ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي ، وصف الخريت أصحابه ، فجعل من معه من العرب ميمنة، ومن معه من علوج الفرس والأكراد ميسرة، ودار القتال بين الفريقين ساعة من الزمان ، ثم انهزم الخريت بمن معه بعد أن قتل منهم عدد كثير، فلحق بأسياف البحر وبها جماعة كثيرة من بنى ناجية فانضموا إليه ، وكانوا قد منعوا الصدقة عامين ، وانضم إليه أيضاً من بها من عبد القيس وسائر العرب ، فاجتمع إليه جمع كثير على مذاهب مختلفة ، وكان يحاول أن يرضيهم جميعاً ، فيقول للحرورية منهم : أنا على رأيكم ، وإن علياً لم ينبغ أن يحكم . ويقول للخوارج أصحابه : إن علياً حكم ورضى بخلعه حكمه الذى ارتضاه. وهذا كان رأيه الذى خرج عليه من الكوفة، ويقول سراً للعثمانية : أنا والله على رأيكم ، قد والله قتل عثمان مظلوما . ويقول لمن منع الصدقة : شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وصلوا بها أرحامكم .

وكان فى أسياف البحر نصارى كثير قد أسلموا ، فلما رأوا هذا الاختلاف قالوا : والله لديننا الذى خرجنا منه خير من دين هؤلاء ، لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء . فقال الخريت لهم : ويحكم ، لا ينجيكم من القتل إلا قتل هؤلاء القوم — قوم على — والصبر ، فإن حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يقتل ، ولا يقبلون منه توبة ولا عذرا .

فانزلق الخريت إلى ذلك الحد من النفاق ، وإلى ذلك الحد من تخويف أولئك النصارى أن يقتلهم قوم على لردتهم ، ليستعين بهم مع ردتهم فى قتاله لهم، وهذا كله يبين العوامل الخفية التى دفعته وأمثاله إلى خروجهم، وأنها لم تكن فى شىء من الغيرة على الإسلام وطلب الإصلاح ، وإنما

كانت عنجهيات جاهلية عادت إلى نفوسهم ، ونزعات إلى الفوضى التى آلفوها فى باديتهم .

فتبعه معقل بأسياف البحر حتى لحقه ونصب راية أمان فقال : من أتاها من الناس فهو آمن إلا الخريت وأصحابه الذين حاربونا أول مرة . فتفرق عنه جلّ من كان معه من غير قومه ، ولم يبق معه إلا قومه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الزكاة منهم ، لينحدر بهذا إلى أقصى ما يكون من الفساد ، وهو الذى خرج فى طلب الإصلاح .

فعبّ معقل أصحابه وقال لهم : أيها الناس ، ما تريدون أفضل مما سيق لكم من الأجر العظيم ، إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما . ثم حمل هو ومن معه عليهم وقاتلوا قتالا شديدا وصبروا له حتى قتلوا كثيرا منهم كان الخريت من بينهم ، وذهب الباقون يمينا وشمالا ، وسبى معقل من أدرك من حريمهم وذرياتهم ، وأخذ رجالا كثيرا منهم ، فأما من كان مسلما فخلّاه وأخذ بيعته وترك له عياله ، وأما من كان ارتد فعرض عليهم الإسلام فرجعوا فخلى سبيلهم وسبيل عيالهم وجمع من منع الصدقة فأخذ منهم صدقة عامين .

ثم احتمل النصارى وعيالهم أسارى حتى مر بهم على مصقلة بن هبيرة الشيبانى ، وكان عاملا لعلى على أردشير خرّه ، فبكى نساؤهم وصبيانهم وطلب منه رجالهم أن يشتريهم ويعتقهم ، وكان عددهم خمسمائة ، فقال مصقلة : أقسم بالله لأتصدقن عليكم ، إن الله يجزى المتصدقين . فاشتراهم من معقل بخمسمائة ألف ، فقال له معقل : عجل المال إلى أمير المؤمنين .

فقال : أنا أبعث الآن ببعضه ، ثم كذلك حتى لا يبقى منه شيء . فأقبل معقل إلى على فأخبر بما كان منه فاستحسنه .

ثم بلغه أنه أعتقهم ولم يسألهم أن يعينوه بشيء ، فكتب إليه يطلب منه المال أو يحضر ، فحضر ومعه من المال مائتا ألف ، ثم رأى نفسه عاجزاً عن دفع الباقى ، ورأى أن علياً لا يسامحه فيه لأنه مال المسلمين ، فهرب من الكوفة ولحق بمعاوية ، فقال على حين بلغه هربه : ماله ترّحه الله — أبعده — فعل فعل السيد ، وفر فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ، أما إنه لو أقام فعجز ما زدنا على حبسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه وإلا تركناه . ثم أجاز عتق السبي وقال : أعتقهم مبتاعهم ، وصارت أثمانهم ديناً على معتقهم . وهذا أعدل ما يكون من الحكم .

وقد قال بعض الشعراء فى نصارى بنى ناجية وخروجهم مع الخريت :

سما لكمُ بالخيل قوداً عوابسا   أخو ثقة ما يبرح الدهر غازياً
فصبحكم فى رجـــاله وخيوله   بضرب ترى منه المدجّج هاوياً
فأصبحتم من بعد كبر ونخوة   عبيد العصا لا تمنعون الذراريا

وقال مصقلة بن هبيرة فى شرائه لهم وعتقهم :

لعمرى لئن عاب أهل العراق   علىّ انتعاش بنى ناجيه
لأعظم من عتقهم رقّهم   وكـــفى بعتقهمُ ماليه
وزايدت فيهم لإطلاقهم   وغاليت إن العـــلا غاليه

ثم خرجت خوارج من فلول الحرورية بالنهروان وغيرهم ، وكانوا يقصدون البلاد النائية من بلاد الفرس ، وكان على يبعث إليهم من يقاتلهم حتى يقضى عليهم ، وآخر من خرج منهم وأجرؤهم أبو مريم السعدى

التيمى ، فإنه خرج بشهرزور ومعه مائتا رجل أو أربعمائة ، ولم يكن معه من العرب غير ستة نفر هو أحدهم ، والباقى من موالى الفرس وغيرهم ، فأخذ يعيث بهم فى تلك البلاد ، ثم قصد الكوفة حتى صار منها على خمسة فراسخ ، فبعث إليه علىّ شريح بن هانىء فى سبعمائة ، فحمل الخوارج عليهم حتى انكشفوا وبقى شريح فى مائتين ، فانحاز إلى قرية بجواره فتراجع إليه بعض أصحابه ، وهرب الباقون إلى الكوفة ، وهذا يدل على مقدار ما وصل إليه أهلها من الضعف بعد تلك الحروب المتوالية ، فخرج على بنفسه إلى أولئك الخوارج ، وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السعدى ، فدعاهم جارية إلى الطاعة وحذرهم القتل فلم يجيبوا ، ولحقهم على فدعاهم أيضاً فلم يجيبوا ، فحملوا عليهم وقتلوهم ، ولم يسلم من القتل غير خمسين رجلا استأمنوا ، وكان فيهم أربعون رجلا جرحى فأمر على بإدخالهم الكوفة ومداواتهم ، وكان هؤلاء الخوارج من أشجع من قاتل من الخوارج ، ولجراءتهم قاربوا الكوفة .

خطؤهم فى ترك قتال معاوية :

ويجب أن نقف بعد هذا كله وقفتين : نلاحظ فى أولاهما أن أولئك الخوارج لم يحاولوا الخروج على معاوية وأهل الشام ، ولم يقصدوهم بقتال ، مع أنهم لو كانوا صادقين فى خروجهم لكان الأجدر بهم أن يخرجوا عليهم ، لأنهم إنما خرجوا لرضا علىّ بالتحكيم معهم ، فكان عليهم إذ أبى على إلا أن يمضى فى التحكيم إلى آخره أن يخرجوا هم على معاوية ، ولو أنهم فعلوا هذا لقدر التاريخ لهم هذا أعظم تقدير ، وعدّه لهم شجاعة منقطعة النظير .

رد طعن مرتد يهم على الإسلام بتقاتل أهله :

ووقف فى الثانية عند نصارى بنى ناجية الذين ارتدوا عن الإسلام، وقالوا — والله لديننا الذين خرجنا منه خير من دين هؤلاء ، لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء — لنبين كم جنى المسلمون على دينهم باختلافهم وتفرقهم وتقاتلهم ، حتى ارتد عنه أولئك النصارى وجعلوهم حجة على دينهم ، وهو برىء من اختلافهم وتفرقهم وتقاتلهم ، ولا يعلم إلا الله مقدار ما كان يصل إليه الإسلام من الانتشار لو لم يقطع أهله الطريق عليه ، ويأخذه من لا يعرفه بانحرافهم عنه ، على أن أولئك النصارى لم يكونوا صادقين فى مؤاخذة الإســـلام بسفك بعض أهله دماء بعض، لأنهم انضموا إلى الخوارج فى سفك الدماء ، ولو كانوا صادقين لوقفوا منهم موقف الحياد .

ومع هذا كان المسلمون الذين طعنوا فى دينهم كرماء معهم ، فلم يلبثوا كما سبق أن أطلقوهم من أسرهم .

٦ — تخاذل أصحاب علي

أثر الانقسامات والحروب فيهم :

إذا كان جمهور الأمصار قد بايعوا علياً فإنهم كانوا على ما سبق ذوى آراء مختلفة فيما بينهم ، وإذا كان قد لقى من أهل الكوفة خصوصاً ومن أهل العراق عموما من التأييد ما لم يلقه من غيرهم ، حتى آثرهم بالإقامة بينهم ، وجعل الكوفة قاعدة لخلافته دون المدينة ، فإنهم لم يخلوا أيضاً من طوائف لم تكن مخلصة له ، وقد ظهر أثر هذه الانقسامات أخيرا فيهم ، ولا سيّما بعد هذه الحروب الكثيرة التى ذهب فيها كثير من رجالهم ، حتى عمت كل بيت من بيوتهم ، فمن حرب الجمل ، إلى حرب صفين ، إلى حروب الخوارج من العرب والفرس وغيرهم ، فضعفت نفوسهم أخيراً فى القتال ، وآثروا أن يلزموا أخيرا خطة الدفاع على خطة الهجوم مع أهل الشام ، فأخذ أهل الشام يغيرون عليهم المرة بعد المرة ، ويستولون على أمصارهم المصر بعد المصر ، حتى إنه لم يبق لعلى أخيراً إلا العراق وما إليه من بلاد الفرس ، إلى بعض بلاد العرب القريبة منه ، وعلى يرى هذا كله والأسى قد بلغ منه مبلغه ، لما يراه من تخاذل أصحابه وانصراف بعضهم عنه .

استيلاء معاوية على مصر :

كان على قد ولى قيس بن سعد على مصر كما سبق ، وكان قيس من ذوى

الرأى والبأس ، فأقبل على مصر فى سبعة من أصحابه وجمع أهلها حوله ، إلا قرية خربتا فإن أهلها كانوا عثمانية ، وقد انضم إليهم كل من كان له هوى فى بنى أمية ، وكان عليهم رجل من بنى كنانة يقال له يزيد بن الحارث . فرأى قيس أن يكفّ عنهم ولا يكرههم على البيعة لعلى ، حتى لا يقيم حرباً بينه وبينهم ، وبهذا استقام له أمر مصر ، وجبى خراجها لا ينازعه أحد ، وقد ثقل على معاوية أمره فكتب إليه يستميله إليه فى المطالبة بدم عثمان ، وقد أطمعه فيه مهادنته لأهل خربتا ، وكان فى الكتاب من دهاء معاوية ما فيه ، فكتب إليه قيس كتابا قابله فيه دهاء بدهاء ، وقد أحب بهذا أن يدافعه ولا يبدى له أمره ، ولا يتعجل إلى حربه ، فلما قرأ معاوية كتابه رآه مقاربا مباعدا ، فكتب إليه ثانياً :

« أما بعد ، فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدّك سلماً ، ولا مباعدا فأعدك حربا ، وليس مثلى يصانع المخادع ، وينخدع للمكايد ، ومعه عدد الرجال ، وأعنّة الخيل ، والسلام » .

فكتب إليه قيس كتاباً صارحه فيه بأنه ليس ممن ينخدع بخدعه ، ولا ممن يخاف تهديده ، فأيس معاوية منه وأخذ يعمل على الإفساد بينه وبين على ، ويشيع بين أهل الشام أنه من شيعتهم ، وأنه يكاتبه سراً بذلك ، ويؤيد هذا بمهادنته لأهل خربتا ، حتى وصلت هذه الإشاعات إلى على وأهل الكوفة ، فلم يصدق على هذه الإشاعات فيه ، ولكنه أخذ عليه مهادنته لأهل خربتا ، وكتب إليه يأمره بقتالهم ، فكتب قيس إليه :

« أما بعد ، فقد عجبت لأمرك تأمرنى بقتال قوم كافّين عنك ، مفرّغيك

لعدوك، ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك ، فأطعنى يا أمير المؤمنين، واكفف عنهم ، فإن الرأى تركهم ، والسلام » .

فلما قرأ على كتابه قام بنفسه شيء منه ، وبعث محمد بن أبى بكر إلى مصر ، فقدم على قيس بها فلما رآه قال له : ما بال أمير المؤمنين ؟ أدخل أحد بينى وبينه ؟ فقال له محمد : لا ، وهذا السلطان سلطانك. فقال لمحمد: لا والله لا أقيم . وخرج من مصر إلى المدينة فأقام بها أياماً ، ثم خرج منها إلى الكوفة وشهد مع أهلها صِفّين .

فتولى محمد بن أبى بكر أمر مصر ، ولم يلبث أن بعث إلى أهل خربتا : إما أن تدخلوا فى طاعتنا ، وإما أن تخرجوا عن بلادنا . فأجابوه إنا لا نفعل ، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا ، فلا تعجل لحربنا . فأبى عليهم فامتنعوا وأخذوا حذرهم إلى أن صار الأمر بين على ومعاوية إلى التحكيم ، وحصل من الانقسام بين أصحاب على ما حصل ، فطمعوا فى محمد وأظهروا له المبارزة ، فأرسل إليهم فريقا لمقاتلتهم فهزموه ، ثم أرسل فريقاً آخر فهزموه أيضاً ، وأخذت أمور مصر تفسد عليه ، فلما بلغ ذاك عليا قال : ما لمصر إلا أحد الرجلين : صاحبنا الذى عزلناه — يعنى قيس بن سعد — أو الأشتر . ثم دعا الأشتر وقال له : ليس لها غيرك ، فإنى لو لم أوصك اكتفيت برأيك ، واستعن بالله ، واخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ، وتشدد حين لا يغنى إلا الشدة .

فخرج الأشتر يتجهز إلى مصر ، وأتت معاوية جواسيسه بذلك فعظم عليه ، وكان قد طمع فى مصر ، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه

من محمد بن أبى بكر ، فدسّ عليه من سمه فى طريقه إلى مصر، فمات قبل أن يصل إليها ، فلما بلغ علياً موته قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مالك وما مالك — اسم الأشتر — وهل موجود مثل ذلك ؟ لو كان من حديد لكان قيدا ، أو من حجر لكان صلدا ، على مثله فلتبك البواكى .

فأبقى على محمد بن أبى بكر على مصر كما كان ، وبادر معاوية فأرسل عمرو بن العاص فى ستة آلاف للاستيلاء عليها ، فسار إليها بجيشه حتى بلغها وانضم إليه من بها من العثمانية ، والتقى هو ومحمد بن أبى بكر فلم يلبث أن هزمه وقتله واستولى على مصر لمعاوية ،فجعله أميراً عليها ،وكان قد وعده بها عند انضمامه إليه ، وكان محمد قبل التقائه بعمرو قد طلب مددا من على فدعا أهل الكوفة لذلك فلم يستجب له أحد منهم ، ولم يزل يستحثهم حتى استجاب له ألفان فقط ، ولكن عمرا كان قد استولى على مصر ، فلما ساروا خمسة أيام بلغهم ذلك ، فرجعوا إلى الكوفة وتركوا مصر لعمرو .

استيلاؤه على أمصار أخرى :

وقد ظهر أمر معاوية بعد استيلائه على مصر ، فأخذ يشن على البلاد التابعة لعلى الغارة بعد الغارة ، فمرة يكون الظفر لأصحابه ، ومرة يكون الظفر لأصحاب على ، ثم أرسل بسر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن فاستولى عليهما ، فأرسل إليه على جارية بن قدامة السعدى ، فسار حتى أتى نجران فهرب بسر منه، فسار وراءه حتى أتى مكة وأمر أهلها أن يبايعوا للحسن ابن على، وكان أبوه قد قتل على ما سيأتى ، فبايعوا للحسن خوفاً منه ، ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلى بالناس فهرب منه ، فقال جارية :

لو أدركت أبا سنّور لقتلته . ثم أخذ بيعة أهل المدينة للحسن أيضاً ، وأقام يومه ورجع إلى الكوفة ، فرجع أبو هريرة يصلى بهم كما كان ، ورجعت مكة والمدينة إلى ما كانا عليه .

دعوى هدنة بين على ومعاوية :

ذكر ابن الأثير أنه فى سنة ٤٠ هـ — ٦٦٠ م . جرت مهادنة بين على ومعاوية بعد مكاتبات طويلة على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلى العراق ، ولمعاوية الشام ، لا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة ، وهذه المهادنة غريبة كل الغرابة، لأنها ينقضها هذه الحرب التى كانت بين جارية ابن قدامة من أصحاب على وبسر بن أرطاة من أصحاب معاوية، فقد استمرت كما سبق إلى ما بعد قتل على ، إلا أن تكون هذه الهدنة قد جرت بعد أمر على لجارية بالمسير إلى بسر بن أرطاة .

ولو صحت هذه المهادنة على أن يكون لعلى العراق وما إليه ولمعاوية الشام وما إليه لكان انقسام البلاد الإسلامية إلى دولتين أسبق عهداً من انقسامها فى القرن الثانى إلى دولتى بنى العباس بالمشرق ، ودولة بنى أمية بالأندلس ، ولكان فى رضا على ومعاوية بذلك أكبر دلالة على جواز تعدد الأمراء بالبلاد الإسلامية ، وعلى أنه لا يلزم أن يكون لها جميعاً خليفة واحد أو ملك واحد ، بل يجوز انقسامها إلى دول متهادنة ، لأن الإسلام لا يبغى بين المسلمين إلا الألفة ، ولا يمنع بعد تحققها بينهم أن يكونوا فى دول متعددة .

السياسة الخارجية فى خلافة على

١ ـ المحافظة على هيبة الخلافة فى الشرق

وقفت جيوش المسلمين مدة خلافة على عند تخوم بلاد الفرس ، لا تجاوزها إلى ما وراءها من بلاد الترك وغيرها ، بل تلتزم خطة الدفاع عنها ، ولا تمكن أحدا من اجتيازها ، وكان موقف هذه الجيوش دقيقاً ، لأن المسلمين من ورائهم مختلفون يحارب بعضهم بعضا ، ومثل هذا يوقع الوهن فى نفوس الجيوش ، ولكن نفوس هذه الجيوش لم تهن ولم تضعف ، فأخلصت لدينها كل الإخلاص ، ولم تشغل نفوسها بما كان بين المسلمين من ذلك الخلاف الذى فرق كلمتهم ، بل عملت على المحافظة على ما كسبته من تراث له ، وكان على من ورائها لا ينساها فى حروبه الداخلية ، بل يرسل لها المدد حتى تبقى قوية .

وكان أهل فارس وكرمان قد طمعوا فى كسر الخراج بعد ظهور الخلاف بين على ومن خرج عليه من المسلمين ، وطمع أهل كل ناحية هناك وأخرجوا عاملهم ، فاستشار على أهل الكوفة فى أمرهم ، فقال له جارية بن قدامة السعدى : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأى ، عالم بالسياسة ، كاف لما ولى . فقال له على : من هو ؟ فقال له :

زياد . وهو على ما سبق فى من ثقيف استلحقه معاوية بأبيه أبى سفيان بعد قيامه بالملك ، فبعث على إلى ابن عباس بالبصرة أن يولى زيادا على فارس ، فسيره إليها فى جمع كثير ، فوطىء بهم أهلها ، وكانت قد اضطربت وفسد أمرها ، فلم يزل يبعث إلى رؤوسهم ، يعد من ينصره ويمنيه ويخوف من امتنع عليه ، ويضرب بعضهم ببعض ، حتى دل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة منهم إلى بلاد الترك وغيرها من البلاد ، وأقامت طائفة لا تبرح بلادها ، فحارب بعضهم بعضا ، وقتل بعضهم بعضها ، وبهذه السياسة الحكيمة صفت لزياد بلاد فارس ، ولم يلق منهم جمعا ولا حربا بعد ما كان منهم من الفساد والاضطراب ، ثم سار إلى كرمان بعد أن استقامت له فارس ، ففعل فيها مثل ذلك حتى استقامت له أيضاً ، فلما استقامت له رجع إلى فارس كما كان ، وقد سكن الناس فى كل تلك البلاد واستقرت فيها أمورهم ، وعلموا أن المسلمين لا يزالون فى قوة وإن اختلفوا فيما بينهم ، ثم نزل زياد مدينة إصطخر من بلاد فارس ، وحصن قلعة قريبة منها فتحصن بها ، وكانت تسمى من أجل هذا قلعة زياد .

وقد بقى زياد أميراً على فارس إلى أن قتل على وبويع لابنه الحسن ، فأبقاه أميرا عليها ، فلما ترك الحسن الأمر لمعاوية امتنع زياد بفارس ، فلم يزل معاوية يأخذه بحيلته ودهائه حتى استجاب له ، ثم ألحقه بعد هذا بأبيه أبى سفيان فى قصة مشهورة .

٣ — مهادنة معاوية للروم

الحالة السياسية للروم فى خلافة على :

كان قيصر الروم فى خلافة على هو كنستانس بن قسطنطين بن هرقل، وقد امتد حكمه من سنة ٢٢ هـ : ٦٤٢ م — إلى سنة ٤٨ هـ : ٦٦٨ م : وهو الذى واصل الحروب التى قامت بين المسلمين والروم بعد موت جده هرقل، لأن أباه لم يمكث فى الحكم إلا أشهراً قليلة، والروم ينظرون إليه نظرة إكبار لأنه أمكنه أن يحتفظ لهم بكل ولاية تقريبا كانت لا تزال فى حوزتهم عند موت هرقل، وإذا كان المسلمون قد استولوا فى عهده على ميناءى الإسكندرية وأرواد — وهما الميناءان الأخيران اللذان احتفظ الروم بهما فى مصر والشام — فإن المسلمين لم يتقدموا فى البر أكثر مما تقدموه على عهد هرقل، فقد وقفت دروب الروم فى جبال طوروس ورمال الصحراء الأفريقية فى وجوه المسلمين عدة سنوات، ومع هذا كان الخطر لا يزال محدقاً بالروم من جهة المسلمين، ولم يزل إلا بمقتل عثمان سنة — ٣٥ هـ : ٦٥٥ م — وقيام الحروب الداخلية بسببه بين المسلمين .

خطأ معاوية فى مهادنة الروم على إتاوة لهم :

فهذا ما كانت عليه حالة الروم عند قيام خلافة على، كانوا يلتزمون خطة الدفاع بإزاء المسلمين، وإذا كان الخطر محدقاً بهم من ناحية المسلمين

فإنه كان محدقاً بهم من ناحية الصقالبة والبلغار فى شبه جزيرة البلقان ، ومن ناحية اللمبارد فى إيطاليا ، ولو أن المسلمين ظلوا متحدين لأمكنهم القضاء على دولة الروم فى هذا الخطر المحدق بها من كل ناحية ، ولا سيما بعد أن انتهوا من القضاء على دولة الفرس ، ولم يبق أمامهم إلا دولة الروم وحدها .

ولكن معاوية أعطى بخروجه على خلافة على فرصة عظيمة لدولة الروم ، ولم تكن مواتية لهم لولا هذا الخلاف الذى أحدثه بين المسلمين ، لأن أهل الشام وحدهم لم يمكنهم التغلب على الروم إلا بمساعدة جيوش العراق لهم ، ولم تكن الشام قبل الإسلام إلا ولاية من الولايات العديدة لدولة الروم ، فلا يمكنها أن تقف وحدها بإزائها ، وقد أدرك معاوية بعد مخالفته لعلى هذه الحقيقة ، ولكنها لم تحمله على ترك الخلاف والدخول فى الجماعة ، ليمكنه المحافظة على تخوم البلاد الإسلامية من ناحية الروم ، كما أمكن علياً المحافظة على تخوم خلافته فى بلاد الفرس ، وإنما حملته على السعى فى مهادنة الروم ، وإلى إيثار موقف الضعف معهم على موقف القوة الذى احتفظ المسلمون به منذ اشتباكهم بهم ، وقد كانوا هم البادئين بحرب المسلمين ، وكان عليهم أن يكونوا هم البادئين بمهادنتهم ، ولكنهم استمروا على الحرب مع ضعفهم أمامهم ، إلى أن أتى معاوية فكان هو الساعى إلى مهادنتهم ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى هذه المهادنة بعد ظهور المسلمين عليهم ، لولا إضعافه لنفسه بخروجه وحده على جماعته .

فبادر معاوية حين رأى أنه لا يمكنه الجمع بين محاربة على ومحاربة

الروم إلى مهادنتهم ، ولم يكن صلحاً شريفاً يليق بمسلمين منتصرين إلى ذلك الوقت عليهم ، بل كان صلحاً ذليلا يليق برجل انفرد وحده عن جماعته ، فانقلب حاله من قوة إلى ضعف ، ومن عزة إلى ذلة ، فصالحهم مصالحة الضعيف للقوى ، ورضى بدفع إتاوة لهم كل سنة ما داموا مراعين اشروط الصلح ، ويقال إن قيصر الروم طمع فيه بعد ذلك ، فرد عليه بأنه إن لم يرجع عن طمعه انضم إلى ابن عمه على عليه ، فآثر قيصر الروم أن يلتزم شروط الصلح معه ، ليمكنه من المضى فى تمزيق وحدة المسلمين ، ويحصل لدولته الممزقة على فترة من الهدوء ، وكانت قد مكثت سبعا وعشرين سنة أو أكثر فى حروب مع الفرس والمسلمين ، فيمكنه أن ينظم حالتها الداخلية ، وأن يتفرغ لأعدائه الآخرين ، وهذه غلطة من غلطات معاوية تحسب عليه أيضا ، وما أكبرها غلطة ؟

إنتهاء خلافة على

مؤامرة الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو :

كانت خصومة معاوية لعلى خصومة ندّ لند فى العقل والشرف ، وخصومة ابن عم لابن عم تجمع بينهما أواصر القرابة مع هذه الخصومة، فلم تحدث معاوية نفسه أن يتغلب عليه بقتله غدراً ، بل كان يطمع فى أن يتغلب عليه بدهائه الذى عرف به ، وإن كان لا يتورع فى دهائه عن بعض ما يؤخذ عليه .

وكانت خصومة الخوارج لعلى خصومة حمقاء ، متخبطة ، يبعث عليها تشدد فى الدين أحمق متزمّت ، يبعث الغرور فى نفس صاحبه ، حتى يرى الحسن قبيحاً ، ويرى القبيح حسناً ، فلا يعرف لسابقة على فى الدين ولا لحسن بلائه فيه فضلا ، ولا يعرف لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم حقاً ، فيراه مع هذا كافراً يستباح دمه ، ويحل أخذه بالغيلة والغدر ، ولا يؤثر فى نفسه اعتداله فى خصومته لهم ، وأنه لا يستبيح دماءهم إلا إذا قاتلوه ، وإذا قاتلهم عاملهم فى قتاله كمسلمين بغاة ، ولم يرمهم بالكفر كما يرمونه به .

وكان أن اجتمع ثلاثة نفر منهم : عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، والبُرَك بن عبد الله التميمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التميمى السعدى ،

فذكروا من قتل منهم بالنهروان وغيره ، وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم ، واتفقت كلمتهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، لأنهم يرون أنهم سبب هذه الفتن ، ولما اتفقوا على قتلهم قال عبد الرحمن بن ملجم : أنا أكفيكم علياً . وقال البرك بن عبدالله . أنا أكفكم معاوية . وقال عمرو ابن بكر أنا أكفيكم عمراً . فتعاهدوا ألا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، وأخذوا سيوفهم فسموها ، واتعدوا اسبع عشرة من رمضان سنة أربعين من الهجرة .

ثم قصد كل واحد من الثلاثة الجهة التى يريدها ، فقصد ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه من الخوارج بها وكتمهم أمره ، ثم لقى يوما أصحابا له من تيم الرباب ، فتذكروا قتلى النهروان ، وكان معهم امرأة فائقة الجمال تسمى قطام ، وكان أبوها وأخوها من أولئك القتـــلى ، فخطبها لنفسه فقالت له : لا أتزوجك حتى تشتفى لى . فقال لها : وما تريدين ؟ فقالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على . فقال لها : أما قتل على فما أراك ذكرتيه وأنت تريدينى . فقالت له : بلى ، التمس غرته ، فإن أصبته شفيت نفسك ونفسى ، ونفعك العيش معى ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . فقال لها : والله ما جاءنى إلا قتل على ، فلك ما سألت . فقالت له : سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك . وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته فى ذلك فأجابها إليه ، وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فكلمه فى ذلك أيضا ، فقال له : لو كان غير على كان أهون ، قد عرفت سابقته وفضله وبلاءه فى الإسلام ، وما أجدنى انشرح لقتله . فذكره بقتلى النهروان وقال له : نقتله بمن قتل من أصحابنا فاستجاب له ، وتواعد الثلاثة على الميعاد السابق لقتله .

وكان على يتفرس نية الشر فى ابن ملجم ، فكان إذا رآه قال :

أريد حيـــاته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

ولعل علياً بلغه شىء من مؤامرته لا يصل إلى حد اليقين ، ولم يكن مثله فى سابقته وفضله ليأخذه بالظن ، فكان يعرض له بهذا البيت الذى يؤثر فى الحجر الصلد ، ولكن قلب ذلك الخارجى كان أقسى وأشد .

قتـــل على :

فلما كانت الليلة التى واعد ابن ملجم عليها البرك بن عبد الله وعمرو ابن بكر أخذ سيفه ومعه شبيب ووردان وجلسوا مقابل السدة (١) التى يخرج منها على للصلاة ، فلما خرج لصلاة الفجر ضربه شبيب فوقع سيفه بعضادة الباب ، فضربه ابن ملجم على قرنه بسيفه وقال : الحكم لله لا لك ياعلى ولا لأصحابك . وهرب وردان إلى منزله فأتاه رجل من أهله فأخبره بما كان ، فانصرف عنه ثم رجع إليه بسيفه فقتله به ، وهرب شبيب فى الغلس ولحق به الناس فلم يدركوه ، وأما ابن ملجم فشد عليه الناس فأخذوه .

فتأخر على عن الصلاة وتقدم جعد بن هبيرة ـــ وهو ابن أخته أم هانىء ـــ فصلى بالناس ، ثم قال على : أحضروا الرجل عندى . فأدخلوه عليه فقال له : أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟ فقال : بلى . فقال له : فما حملك على هذا ؟ فقال : شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال له : لا أراك إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر

(١) السدة : باب الدار

خلق الله . وكذلك يقر ذلك الخارجي بإحسان على إليه ، ثم لا يأخذه شيء من الندم على فعله ، بل يصف علياً بأنه شر خلق الله ، ألا قاتله الله ما أجهله وأقسى قلبه !

ثم التفت على إلى قومه بني عبد المطّلب وقال لهم : النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي ، يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون قد قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن إلا قاتلي ، أنظر يا حسن ، إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلن بالرجل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

ثم دخل عليه جندب بن عبد الله فقال له : إن فقدناك — ولا نفقدك — فنبايع الحسن ؟ فقال : ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر . ثم دعا بالحسن والحسين ووصاهما بتقوى الله تعالى وما إليها مما وصاهما به ، ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال له : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ فقال : نعم. فقال له: فإني أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقيرهما. وأوصاهما به ، ثم كتب وصيته ولم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى مات ، وكان موته سنة ـــ ٤٠ هـ ٦٦٠ م .

فبعث الحسن إلى ابن ملجم ليقتله بأبيه ، فعرض عليه أن يدعه ليقتل معاوية ، فإن لم يقتله رجع إليه ليقتله إن بقي ولم يقتل ، فقال له الحسن: لا والله ، حتى تعاين النار . ثم قدمه فقتله كما أوصى أبوه ، ولم يعرض لأحد من الخوارج بسوء .

فأما البُرَك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في تلك الليلة ، فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فوقع في أليته ، فأخذ إلى معاوية فقال له :

إن عندى خبرا أسرك به ، فإن أخبرتك فنافعى ذلك ؟ فقال: نعم . فأخبره بأن علياً قد قتل هذه الليلة ، فقيل إن معاوية قتله بعد إخباره له بذلك ، لأنه كان أعقل من أن يظهر السرور بقتل على ، وقيل إنه أمر فقطعت يده ورجله ، فبقى حياً بعد قطعهما ، ثم بعث معاوية إلى طبيب فقال له : إن ضربتك مسمومة . ثم سقاه شربة فبرىء منها .

وأما عمرو بن بكر فإنه جلس لعمرو بن العاص تلك الليلة ، وكان قد اشتكى بطنه فلم يخرج للصلاة . وأمر خارجة بن أبى حبيبة صاحب شرطته فخرج ليصلى بالناس ، فشد عليه عمرو فضربه فقتله وهو يظن أنه عمرو بن العاص ، فأخذه الناس إليه وسلموا عليه بالإمرة ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : عمرو بن العاص . فقال : من قتلت ؟ فقالوا : خارجة . فنظروا إلى عمرو بن العاص وقال ، يافاسق ، ماظننته غيرك . فقال له : أردتنى وأراد الله خارجة . ثم قدمه فقتله .

وكذلك أراد الله لأولئك الخوارج أن يتم على أيديهم قتل على دون معاوية وعمرو بن العاص ، لينفسح الطريق بجهلهم أمام بنى أمية فيقلبوا الخلافة إلى ملك عضوض لا يأخذهم بالدرة التى كان الخلفاء الراشدون يأخذون بها الناس . وإنما يأخذونهم بالسيف الذى يقطع الرقاب ، عقاباً من الله على بطرهم بخلفائهم ، وانتقاماً منه لقتلهم ثلاثة منهم ، ولم يكن لهم ذنب إلا أنهم تورعوا عن سفك دمائهم ، وآثروا أن تسفك على أن يسفكوا دماً فيهم ، ليكون لهم حسن الذكرى فى الدنيا ، وحسن المثوبة فى الآخرة ، ويكون لمن بطر خلافتهم سوء الذكرى فى الدنيا ، وعقاب الله فى الدنيا والآخرة معا ، لأنه تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقد قال أبو الأسود فى رثاء على :

ألا أبلغ معاوية بن حرب　　فلا قرّت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا　　بخـــير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا　　ورحّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها　　ومن قرأ المثانى والمبينـــا
إذا استقبلت وجه أبى حسين　　رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت　　بأنك خيرها حسباً وديناً

وإنما ذكر أبو الأسود فى هذا معاوية بن أبى سفيان بن حرب ، لأنه رأى ابن ملجم أحقر من أن يذكره فى شعره ، وأن معاوية هو الذى كان سبباً فى قتل على بخروجه عليه ، لأنه هو الذى أدى إلى ما أدى إليه ، إلى أن انتهى بقتل ابن ملجم له .

ترشيح الحسن للخلافة :

ترك على أمر أصحابه شورى بينهم كما تركه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يعهد الخليفة بعده كما عهد أبو بكر لعمر ، ولم يجعل الأمر شورى فى ستة كما جعله عمر حين طعنه أبو لؤلؤة طعنته ، وقد عرض عليه أصحابه أن يبايعوا لابنه الحسن كما سبق ، فقال لهم : لا آمركم ولا أنهاكم . ليتركهم أحراراً يبايعونه بالخلافة أو يبايعون غيره ، وقد رأوا من الوفاء له ولخير المسلمين مبايعته بها ، على ما سيأتى فى الكلام على خلافته ، وهذا يدل على أن علياً لم يزل على رأيه فى أن حقهم فى الخلافة لا يفرض على الناس فرضاً ، وإنما يتم بالشورى والرضا به .

الخليفة الخامس
الحسن بن علي

الحسن وخلافته

التعريف بالحسن :

هو الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو مثل أبيه هاشمي الأب والأم ، ويزيد عليه بأن جده لأمه محمد صلى الله عليه وسلم وكفى بجده جداً ، وكفى بأبيه أباً ، وكفى بأمه أماً .

ولد سنة ثلاث من الهجرة إلى المدينة ، وقيل سنة أربع منها ، وقيل سنة خمس ، والأول أثبت الأقوال في سنة ولادته ، ونشأ في بيت النبوة ، وفي بيت أبويه علي وفاطمة ، في أكرم بيتين في الإسلام ، وأتقى بيتين فيه ، فنشأ على الدين والتقوى فيهما ، وأخذ العلم من منبعه بينهما ، فشب على أحسن الخصال ، وترعرع على أكرم السجايا ، إلى كمال عقل ، وطيب نفس ، وصواب رأي .

ولا غرو فقد كان في شكله أشبه أهله بجده صلى الله عليه وسلم ، وكان أحبهم إليه أيضاً ، روى أن عبد الله بن الزبير دخل على جماعة من أصحابه يتذاكرون من أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهله ؟ فقال لهم : أنا أحدثكم بأشبه أهله به وأحبهم إليه : الحسن بن علي ، رأيته يجيء وهو ساجد فيركب رقبته — أو قال ظهره — فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل ، ولقد رأيته يجيء وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر .

وكان الحسين أخوه أصغر منه ، وكانا كثيراً مايلعبان فى طفولتهما أمام النبى صلى الله عليه وسلم فيفرح بهما ، ويسر لسرورهما ، وقد اصطرعا مرة بين يديه ، وفاطمة بنته معــــه تشهد اصطراعهما ، فجعل يقول : هى حسن ، فتقول فاطمة : هى حسين [1] وإنما خصا الحسن بذلك لأنه أكبر من الحسين فلا ينبغى أن يصرعه وهو أكبر منه ، وهذا منه صلى الله عليه وسلم تقدير لرياضة الأطفال والشبان على المصارعة ونحوها من الألعاب الرياضية .

وكان مما يأخذه به صلى الله عليه وسلم فى صغره تنشئته على عفة النفس، وعلى محاسبتها على الصغيرة قبل الكبيرة ، ومن هذا ما أخرجه أصحاب الصحيح فى رواية عنه أنه قيل له : ماتذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : أخذت تمرة من تمر الصدقة فتركتها فى فمى ، فنزعها بلعابها . والتمرة الواحدة مما لا يعبأ به ، ولكنه إذا تعود أخذ التمرة اعتادها ، ثم أخذ بعد هذا أكثر منها ، وتجرأت نفسه على الحرام بعدها .

فلما نشأ على هذا كله توسم النبى صلى الله عليه وسلم فيه الخير لهذه الأمة ، ورأى أنه سيكون فيه صلاح لها ، ورتق لما يفسد من أمرها ، فروى عنه أنه قال فيه « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » وهو لم يتوسم هذا فيه إلا لما رآه من كمال عقله ، وطهارة قلبه ، وطيب نفسه .

خلافته وتسليمه لمعاوية :

وقد أتاه قيس بن سعد بعد الانتهاء من دفن أبيه فقال له : ابسط يدك

(١) هى اسم فعل أمر بمعنى أسرع فيما أنت فيه .

أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله ، وقتال المحلّين . فقال الحسن : على كتاب الله وسنة رسوله ، فإنهما يأتيان على كل شرط . وأخـــذ الناس يبايعونه بعد قيس بن ســـعد ، فكان يشترط عليهم : أنكم مطيعون تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت . فلما انتهوا من مبايعتهم له أخذوا يفكرون فى اشتراطه ذلك عليهم ، وأخذتهم ريبة فى أنه يريد السلم لا القتال ، فقال بعضهم لبعض : ماهذا لكم بصاحب ، وإنما نريد القتال . ولكنهم آثروا أن ينتظروا ما يكون منه ، وكانوا قوماً قلّبا لايثبتون على رأى ، وقد غلب عليهم الخلاف ، على ماسبق منهم فى خلافة على .

وكان أربعون ألفاً منهم قد بايعوا علياً فى آخر خلافته على الموت ، وبينما كان يتجهز للمسير بهم إلى قتال معاوية طعنه ابن ملجم طعنته ، فلما بايع الناس الحسن بلغه مسير معاوية بأهل الشام إليه ، فتجهز هو والجيش الذى بايع أباه على الموت ، وسار حتى التقى هو وجيش معاوية ، فجعل على مقدمته عبد الله بن عباس ، وجعل فى الطلائع قيس بن سعد ، ولكنه نظر إلى الجيشين حين اجتمعا ، فرآهما أمثال الجبال فى الحديد ، فقال فى نفسه : أضرب هؤلاء بعضهم ببعض فى ملك من ملك الدنيا ؟ لاحاجة لى به .

ثم دعا ابن عمه عبد الله بن جعفر ، فقال له : إنى رأيت رأياً أحب أن تتابعنى عليه . فقال له عبد الله . ماهو ؟ فقال : رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل . فقال له عبد الله : جزاك الله خيراً عن أمة محمد .

ثم بعث إلى أخيه الحسين فذكر له ذلك . فقال له : أنشدك الله ألاّ تصدّق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك . فقال له الحسن : اسكت ، أنا أعلم بالأمر منك .

فراسل معاوية فى الصلح ، وراسله معاوية فى تسليم الأمر إليه ، فجمع الحسن أصحابه ليرى رأيهم فى ذلك ، وقال لهم :

« إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فشيبت السلامة بالعداوة ، والصبر بالجزع ، وكنتم فى مسيركم إلى صفّين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون له ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره ، وأما الباقى نخاذل ، وأما الباكى فثائر ، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبا السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلناه ، وأخذنا لكم الرضا » .

وهى شورى أراد الحسن بها ألاّ يكرهَ الناس على رأيه فى إيثار الصلح ، حتى يجتمعوا بها على رأى واحد ، ولا تتفرق كلمتهم أمام معاوية ، وكفاهم ما سبق من اختلافهم وتفرقهم ، فوافقه من كان معه من الجيش على الصلح ، فاصطلح هو ومعاوية وسلم الأمر له على أن يكون له من بعده ، فلم يمكث فى الخلافة إلا خمسة أشهر ونحو نصف شهر ، وقيل إنه مكث فيها ستة أشهر وشيئاً ، وقيل إنه مكث فيها سبعة أشهر وشيئاً .

وكان قيس بن سعد على طلائع الجيش فلم يحضر المبايعة لمعاوية ، فكتب الحسن إليه يأمره بالدخول فى طاعته ، فقال قيس لمن معه : اختاروا

الدخول فى طاعة إمام ضلالة ، أو القتال مع غير إمام . فقال بعضهم : بل نختار الدخول فى طاعة إمام ضلالة . ولم يختر قيس رأيهم لأنه كان شديد الكراهة لإمارة معاوية ، فاجتمع معه جمع كثير وبايعوه على قتاله ، فأخذه معاوية بالحسنى حتى دخل فى طاعته ، وكانوا يعدّون دهاة الناس حين ثارت الفتنة خمسة ، يقال إنهم ذوو رأى العرب ومكيدتهم : معاوية ، وعمرو ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ، وعبد الله بن بديل الخزاعى . وكان قيس وابن بديل مع على ، وكان المغيرة معتزلا بالطائف .

ابتداء الملوك فى الإسلام بمعاوية :

ولما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه سعد بن أبى وقاص فقال : السلام عليك أيها الملك . فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت أمير المؤمنين . فقال سعد : أتقولها جذلان ضاحكا ، والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به .

وكان سعد بقية الستة الذين جعل عمر الخلافة شورى فيهم بعده ، وما كان أجدره بالخلافة لو لم يأخذ معاوية الأمر بالقوة ، لأن الحسن إنما سلم له مضطراً لا مختاراً ، وقد وضع سعد بهذا أمر معاوية فى نصابه الصحيح ، وكان به أول ملوك بنى أمية ، وكانوا جميعاً ملوكا لا خلفاء إلا عمر بن عبد العزيز .

ملوك بنى أمية إلى خلافة عمر بن عبد العزيز :

وقد توفى الحسن سنة — ٤٩ هـ : ٦٦٩ م — ومعاوية لا يزال قائماً بالملك الذى سلمه له ، فمكث فيه حتى توفى سنة — ٦٠ هـ : ٦٧٩ م —

وكان قد حمل الناس على المبايعة لابنه يزيد بالقوة أيضا ، فلما قام بعده نازعه عبد الله بن الزبير واستولى على الحجاز والعراق وما إليهما ، ولم يلبث يزيد فى الملك إلا قليلا ، ثم توفى سنة — ٦٤ هـ : ٦٨٣ م .

فانتقل أمر بنى أمية بعده إلى مروان بن الحكم ، ولكنه لم يمكث فى الملك إلا قليلا ثم توفى سنة — ٦٥ هـ : ٦٨٤ م — وكان قد بايع قبل وفاته لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بولاية العهد ، فقام عبد الملك بالملك بعده ، وتمكن من التغلب على ابن الزبير وقتله ، فامتد ملكه على المسلمين جميعاً ، وقد مات أخوه عبدالعزيز وهو قائم بالملك ، فبايع لابنه الوليد بولاية العهد ، ثم توفى سنة — ٨٦ هـ : ٧٠٥ م — فقام ابنه الوليد بالملك بعده ، وقد مكث فيه إلى أن توفى سنة ٩٦هـ:٧١٤م — فقام بالملك بعد أخوه سليمان ، وقد مكث فيه حتى توفى سنة — ٩٩ هـ : ٧١٧ م — فقام بالأمر بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، وهو سادس الخلفاء الراشدين .

فكان موت الحسن قبل معاوية سبباً فى قيام دولة بنى أمية ، ولعل معاوية كان يفكر فى قيامها قبل موته ، ولاينوى الوفاء له بما اشترط عليه من تسليم الأمر له بعده ، ولهذا خر الله ساجداً حين بلغه موته ، فقال بعض الشعراء :

أصبح اليوم ابن هند شامتاً ... ظاهر النخوة إذ مات الحسن[1]
يا ابن هند إن تذق كأس الردى ... تكُ فى الدهر كشىء لم يكن
لست بالباقى فلا تشمت به ... كل حىّ للمنايا مرتهن

---

(١) هند : أم معاوية



الخليفة السادس
عمر بن عبد العزيز

عمر بن عبد العزيز وخلافته

التعريف بعمر بن عبد العزيز :

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، روى أن أباه عبد العزيز حين أراد الزواج قال لقيِّمه : إجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى ، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح . فقصد بيت عمر بن الخطاب وتزوج أم عاصم ، وكان بيت عمر بن الخطاب بيت صلاح حقاً ، ومنه اكتسب عمر بن عبد العزيز ما عرف به من الصلاح ، وكان مولد عمر سنة — ٦٣ هـ : ٦٨٢ م — وكان يلقب أشجّ بنى أمية ، لأن دابة من دواب أبيه ضربته فشجته ، وقد ولد بدمشق قاعدة ملك بنى أمية ، فلما شب بعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها ويتفقه على علمائها ، وكتب إلى صالح ابن كيسان يتعاهده ، فتعلم العربية والشعر والفقه وما إليها من العلوم والآداب ، حتى جمع أشرف العلوم فى عصره ، وأرق الآداب فيه ، وكان هناك علوم دونها لا يتعلق بها من صحبه من سراة العلماء ، ففاته العلم بها فى صغره ، ولكنه لما ولى أمر الناس شعر بحاجته إليها ، فتعلمها فى كبره ، وكان يرى الجهل بها نقصاً فى العلم ، ولهذا قال : كنت أصحب من الناس سراتهم ، وأطلب من العلم شريفه ، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفساف العلم ، فتعلموا من العلم جيده ورديّه وسفسافه ، ولعله

يريد به العلم الذى كان الفقهاء والأدباء لايعنون به ، من علوم الثقافة الأجنبية الدخيلة على العرب ، وكان أولئك الفقهاء والأدباء لايرتاحون لها ، وينظرون بعين الازدراء إليها ، فإذا صح هذا يكون عمر من القلة العربية التى جمعت فى عصره بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية ، فامتاز على أقرانه من أمراء بنى أمية بعلم غزير ، إلى فصاحة لسان ، وطيب نفس ، وفضل عقل ، وكمال دين ، وكان هذا سبباً فى اختيار عمه عبد الملك بن مروان له زوجا لابنته فاطمة . فقد دخل عليه يوماً فقال له : قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك . فقال : وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة . فأعجب به عبد الملك ، فقال بعض أولاده غيرة منه : هذا كلام تعلمه فأداه . ثم دخل على عبد الملك يوماً فقال له : ياعمر ، كيف نفقتك ؟ فقال : الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين . فقال : فما هما ؟ فقال (والذينَ إذا أنفقُوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانَ بين ذلك قواماً) (١) فقال عبد الملك لأولاده : من علمه هذا ؟

وقد ولاه الوليد بن عبد الملك على المدينة والحجاز سنة — ٨٧هـ : ٧٠٥م — فقدمها والياً وثقله على ثلاثين بعيراً ، ولما صلى الظهيرة دعا عشرة من أعيان فقهائها وقال لهم : إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، لا أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لى ظلامة ، فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى . فخرجوا فأثنوا عليه

(١) ى ٦٧ س ٢٥

خيراً ، لأنه أعاد بهذا عهد الشورى الذى انقطع منذ انقضاء عهد الخلفاء الراشدين .

ومن آثاره فى المدينة عمارة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الوليد كتب إليه يأمره بإدخال حجر أمهات المؤمنين فيه ، وكذلك ما بنواحيه من الدور ، حتى يكون مائتى ذراع فى مثلها ، وبعث له الفعلة من الشام والروم ، وكان قد كتب إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، فبعث إليه مائة ألف مثقال من الذهب ، وبعث إليه مائة عامل ، وبعث إليه من الفسيفساء(١) بأربعين جملا ، فبعث جميع ذلك إلى عمر ، فبنى المسجد على أحسن ما يكون البناء فى ذلك العصر ، وعلى ما رآه مهرة البنائين من الروم ، وهم أهل فن قديم ورثوه عن اليونان وغيرهم ، ولم يضق عمر بهذا على صلاحه وتقواه ، لأنه كان يأخذ نفسه مع هذا بالتجمل والتنعم فى ملبسه ومأكله ومشربه ، وقد سبق أنه قدم المدينة وثقله على ثلاثين بعيراً .

وكان الحجاز على عهد عمر مأوى الفارين من ظلم الولاة على الأقطار الأخرى ، ولاسيما أهل العراق الذين كانوا ينالون من ظلم الحجاج بن يوسف الثقفى أقسى ظلم ، فلما رأى الحجاج ذلك كتب إلى الوليد : إن من عندى من المراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ، وإن ذلك وهن . فسمع الوليد له وعزل عمر ، وقيل فى سبب عزله غير ذلك . فلما عزل الوليد عمر خرج من المدينة إلى دمشق ، وآثر هذا على أن يسلك فى ولايته مسلك الحجاج وغيره ، ولم يترك المدينة إلا بعد

---

(١) قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره يؤلف بعضها الى بعض على أشكال مختلفة

أن ضرب بولايته عليها مثلا لقومه بنى أمية فى إحياء عهد الشورى، وتقريب بطانة الخير من أهلها ، وأخذ الناس بالرفق والعدل ، ليقلعوا عن سياسة الاستبداد التى أخذوا الناس بها ، حتى ملؤوا بالخوف منهم قلوبهم ، ونزعوا الولاء لهم من نفوسهم .

ولم يضعف عزل الوليد له من عزمه على إصلاح ذلك الفساد بالفعل والقول ، وقد انتهى بولايته على المدينة دور الفعل ، ولم يبق فى وسعه بعده إلا دور القول، فأخذ يقوم به فى اعتدال وحكمة ، حتى لا يحدث فتناً فى الدولة كالتى يحدثها الخارجون عليها بالقوة ، ولم يهب قول الحق عند الملوك الذين عاصرهم من قومه ، وكان أولهم عبد الملك بن مروان ، وآخرهم سليمان بن عبد الملك ، فكتب إلى عبد الملك بن مروان :

« من عمر بن عبد العزيز إلى عبد الملك بن مروان ، أما بعد ، فإنك راع وكل راع مسئول عن رعيته ، حدثنيه أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل راع مسئول عن رعيته (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم لاريبَ فيه ومن أصدقُ منَ الله حديثاً) (١) .

فغضب عبد الملك حين بدأ باسمه قبله وهو عمه وأمير المؤمنين ، فقيل له : إنه كان يفعل ذلك من قبلك . فسكن غضبه عليه .

وكان يقول فى عهد الوليد بن عبد الملك : الوليد بن عبد الملك فى الشام ، والحجاج بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر ، امتلأت الأرض جوراً .

---

(١) ى ٨٧ س ٤

وقد دعاه الوليد بعد هذا فدخل عليه وليس عنده إلا خالد بن الريان قائماً بسيفه ، وكان رئيس حرسه ، وكذلك كان رئيس حرس عبد الملك قبله ، فقال له الوليد : ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ وهو يعنيه بذلك ، فسكت فانتهره وقال له: مالك لا تتكلم ؟ فسكت فعاد لمثلها ، فقال للوليد : أقتل يا أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : لا ، ولكنه يسب الخلفاء . فقال له : فإني أرى أن ينكل فيما انتهك من حرمة الخلفاء . فرع الوليد رأسه إلى ابن الريان وما يظن عمر إلا أنه سيقول له اضربوا رقبته . فقال : إنه فيهم لتائه . ثم دخل إلى أهله ، فقال ابن الريان لعمر : انقلب . فانقلب وما تهب من ورائه ريح إلا ويظنه رسول يرده إليه، والوليد يرى فى هذا أنهم خلفاء ، والحق أنهم كانوا ملوكا ، لأن الخلافة انقطعت بعد الحسن بن على .

وكذلك كان عمر يفعل مع سليمان بن عبد الملك بعد الوليد ، فكان ينهاه عن قتل الحرورية — الخوارج — ونحوهم ، ويقول له : ضمنهم الحبس حتى يحدثوا توبة . فأتى سليمان بحرورى فقال له : إيه . فقال لسليمان : إيه ، نزع الله لحيتك يافاسق بن الفاسق . فقال سليمان : علىّ بعمر بن عبد العزيز : فلما أتاه عاود الحرورى فقال له وعمر يسمع: ماتقول ؟ فقال له: وماذا أقول يافاسق بن الفاسق ؟ فقال سليمان لعمر : يا أبا حفص ، ماذا ترى عليه ؟ فسكت عمر ، فقال له : عزمت عليك لتخبرنى ماذا ترى عليه ؟ فقال عمر : تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك . فقال له سليمان : ليس إلا . فقال عمر : ليس إلا . فلم يأخذ سليمان بقوله ، وأمر بالحرورى فضربت عنقه .

ولما خرج عمر تبعه ابن الريان وقال له : يا أبا حفص ، تقول لأمير المؤمنين ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك ، والله لقد كنت متوقعاً أن يأمرني بضرب عنقك . فقال له عمر : لو أمرك لفعلت ؟ فقال: إني والله لو أمرني لفعلت . فلما صار عمر خليفة قال لخالد : ياخالد ضع هذا السيف عنك ، اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان ، اللهم لا ترفعه أبدا . ثم نظر في وجوه الحرس فدعا بعمرو بن مهاجر الأنصاري فقال له : والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك إلا قرابة الإسلام ، ولكني قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد ، فرأيتك حسن الصلاة ، خذ هذا السيف ، قد وليتك حرسي .

خليفة لا ملك :

سبق أن معاوية بن أبي سفيان كان أول ملوك بني أمية ، وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان مع هذا ملكا لا خليفة ، فقد يبدو لأول النظر أن عمر بن عبد العزيز يكون أولى بأن يكون ملكا من معاوية ، وهذا يرد على من يذهب إلى أن عمر بن عبد العزيز كان خليفة لأنه كان إمام عدل أو إمام هدى ، لأن معاوية في نظر الجمهور إمام عدل وإمام هدى أيضا ، وممن ذهب إلى أن عمر كان خليفة على هذا الأساس سفيان الثوري ، روى عنه أنه كان يقول : أئمة العدل خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز . وفي رواية أخرى : أئمة الهدى خمسة . ولعله أسقط الحسن بن علي لأن مدته كانت قصيرة ، ولم يستقر الأمر فيها له ، ولكنها كانت عندي على قصرها أبرك الأمة

من المدة الطويلة ، لأنه أصلح فيها بين طوائفها المختلفة ، وإذا كان الأمر لم يستقر فيها له فإن أمر المسلمين استقر بها بعد خلافهم نحو أربع سنين ، وهذا فضل كبير يجعل لمدته القصيرة وزناً لا ينساه التاريخ .

ولكنى أذهب إلى أن عمر بن عبد العزيز كان خليفة لا ملكا على أساس آخر غير هذا الأساس ، لأنه أساس لا يصح أن يفرق به بين الخليفة والملك ، فقد يكون الملك إمام عدل وهدى كالخليفة ، وإنما الأساس الصحيح للفرق بينهما أن الخليفة يقوم على الشورى ، فتختاره الأمة لحكمها على أن يكون أمانة فى يده لها ، تستردّه منه بعد انتهاء خلافته لتختار من يقوم بعده ، ولا يستأثر به لنفسه ليورث عنه من ابن أو أخ أو ابن عم أو نحوهم من قرابته ، وقد توكله الأمة فيختار لها من غير ذوى قرابته على أن ترضى بمن يختاره ، كما اختار أبو بكر لها عمر بن الخطاب باختيارها ، والملك بخلاف الخليفة فى جميع ذلك ، فلننظر فى أمر عمر بن عبد العزيز على هذا الأساس ، لأنه هو الذى يبين أن كان خليفة أو ملكا .

روى أن سليمان بن عبد الملك كان بمرج دابق فى غزوة له ، فمرض فيها مرض الموت من حمّى أصابته ، فلما شعر بدنو أجله دعا من كان فى عسكره من العلماء غازيا ونافراً ، ومنهم رجاء بن حَيْوة ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وغيرهما من العلماء وأهل الصلاح ، فكتب عهده وأشهدهم عليه ، وقال لهم : إذا أنا مت فأذنوا — الصلاة جامعة — ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس .

وقيل إن رجاء بن حيوة دخل عليه فقال له : يارجاء ، كيف ترى

فى عمر بن عبد العزيز ؟ فقال : أعلمه والله فاضلا خياراً مسلماً . فقال له: هو والله على ذلك ، ولئن وليته ولم أول أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبداً يلى عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده ، فاجعل يزيد بن عبد الملك بعده . فقال له رجاء : رأيك . فكتب بيده :

« هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى وليته الخلافة بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم » .

ثم ختم الكتاب وأمر صاحب شرطته أن يأمر أهل بيته أن يجتمعوا بجمعهم ، فلما اجتمعوا قال لرجاء : إذهب بكتابى هذا إليهم فأخبرهم أنه كتابى ، ومرهم فليبايعوا من وليت . ففعل رجاء ، فقالوا : سمعنا وأطعنا لمن فيه . وقالوا : ندخل ونسلم على أمير المؤمنين . فأدخلوا عليه فقال لهم: هذا الكتاب — وكان فى يد رجاء — عهدى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب . فبايعوه رجلا رجلا .

فلما فرغوا من دفن سليمان نادوا — الصلاة جامعة — فاجتمع الناس ، وحضر بنو مروان ، واشرأبّوا للملك وتشوفوا نحوه ، فقام رجاء وقيل الزهرى فقال : أيها الناس ، أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته ؟ فقالوا : نعم . فقرأ الكتاب فإذا اسم عمر بن عبد العزيز ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك .

وكان عمر فى أواخر الناس ، فقال حين دعى باسمه : إنا لله وإنا إليه راجعون . مرتين أو ثلاثا ، واضطرب فلم يمكنه أن ينهض

ليبايعوه ، فأتاه قوم فأخذوا بيده وعضديه وذهبوا به إلى المنبر ، فبايعه الناس جميعاً .

ولو اقتصر الأمر على هذا لكان عمر ملكا لا خليفة وإن جعله سليمان في كتابه خليفة ، لأنهم كانوا يتخذون لأنفسهم لقب الخلفـــاء تقليداً لا حقيقة ، ولكان شأنه في هذا كشأن يزيد بن عبد الملك الذى جعل بعده في هذا الكتاب ، ولا يؤثر في هذا مبايعة الناس له ، لأنها كانت مبايعة صورية لمن يفرض عليهم ممن قبله .

وقد أدرك عمر هذا ولم يرض به لنفسه ، لأنه أراد أن يعيدها شورى صحيحة على نحو ما كان في عهد الخلفاء الراشدين قبل دولة بنى أمية ، حتى لا يكون هناك شائبة استبداد في مبايعته ، فقام في الناس بعد مبايعتهم له فقال :

« أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل أمرنا باليمن والبركة . وهذه البيعة الثانية هى البيعة الصحيحة ، وهى البيعة التى يكون عمر بها خليفة لا ملكا ، لأنها قامت بالشورى التى قام بها الخلفاء الراشدون قبله .

وكانت خلافته بركة على الناس وخيراً لهم ، حتى شاع الغنى بينهم وذهب الفقر ، وفى هذا يقول يحيى بن سعيد : كنا نطوف بالصدقات

على الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز فلا نجد من يقبلها ، قد أغنى الناس عمر بن عبد العزيز . ويقول رجل من ولد زيد بن الخطاب : مامات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول — اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء — فما يبرح حتى يرجع بما له ، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده ، فيرجع بماله ، قد أغنى الله الناس على يد عمر بن عبد العزيز ، وهذه هى الاشتراكية الكريمة فى الغنى ، لا اشتراكية أبى ذر السابقة فى الفقر .

السياسة الداخلية فى خلافة عمر

١ — تغيير زى الدولة ورد المظالم

لما فرغ الناس من مبايعة عمر أتى له بمراكب الخلافة ليركبها : البراذين والخيل والبغال ، ولكل دابة سائس ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : مراكب الخلافة . فقال : دابتى أوفق لى . فركب بغلته وصرف تلك المراكب ، ثم أقبل فقيل له : تنزل منزل الخلافة . فقال : فيه عيال أبى أيوب — سليمان — وفى فسطاطى كفاية حتى يتحولوا . فلما أخلوه دخل فأمر بالستور فهتكت ، وبالثياب التى كانت تبسط للملوك فحملت ، وأمر ببيعها وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين ، ثم ذهب يتبوأ تقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال له : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ فقال : أى بنى أقيل . فقال له : تقيل ولا ترد المظالم ! فقال : أى بنى ، إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فقال: أدن منى أى بنى . فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . فخرج عمر ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها . فجعل لايدع شيئاً مما كان فى يد سليمان وغيره من الملوك قبله وأمرائهم من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة ، فأنصف الرعية ورد لها مظالمها جميعاً .

ثم بدأ عمر بامرأته فاطمة بنت عبد الملك، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله ، فقال لها : إختارى : إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت فى بيت واحد . فقالت له : لا ، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى . فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر وقام يزيد بن عبد الملك أخوها بعده قال لها : إن شئت رددته عليك . فقالت : فإنى لا أشاؤه ، طبت عنه نفساً فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبداً . فلما أبت ذلك قسمه بين أهله وولده ، وهذا يدل على أن الأمر صار بعد عمر إلى مثل ما كان عليه قبله.

ومما رده من تلك المظالم أن قوماً من الأعراب خاصموا إليه قوماً من بنى مروان فى أرض أحيوها فأخذها الوليد بن عبد الملك وأعطاها لهم، فقال عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله، من أحيا أرضاً ميتة فهى له » فردها على الأعراب .

ومن ذلك إنصافه لأهل الكوفة مما لحق بهم من المظالم بسبب تشيعهم لعلى بن أبى طالب وأهل بيته ، وقد كتب فى هذا إلى عامله عليهم :

« سلام عليك ، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكامهم ، وسنن خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وإن أقوم الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك أن توطنها لطاعة الله، فإنه لا قليل من الإثم » .

وروى أيضا أن عمر نظر فى مزارعه فخرق سجلات بها غير مزرعتين: خيبر والسويداء . فسأل عن خيبر من أين كانت لأبيه ؟ فقيل له : كانت

فيئاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتركها فيئاً على المسلمين ، حتى كان عثمان بن عفان فأعطاها مروان بن الحكم . وأعطاها مروان عبد العزيز أبا عمر ، وأعطاها عبد العزيز عمر . فخرق سجلها أيضاً وقال: إنما أتركها كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل إنها كانت فدك لا خيبر .

وكان عمر قبل أن تصير الخلافة إليه يتجمل في اللبس والعيش والطيب ، حتى إنه لم يكن أحد من بني مروان في مثل ما كان فيه من ذلك، فلما صارت الخلافة إليه ترك ذلك ، وقد روى أن تاجراً من أهل البصرة كان يعامله وهو وال على المدينة للوليد بن عبد الملك ، فأمره أن يشترى له جبة خز ، فاشترى له جبة بعشرة دنانير ، ثم أتاه بها فمسها وقال : إنى لأستخشنها . فلما ولى الخلافة أمره أن يشترى له جبة صوف بدينار، فأتاه بها فجعل يدخل يده فيها ويقول : ما ألينها ؟ فقال التاجر له : عجباً، تستخشن الخز أمس ، وتستلين الصوف اليوم ! فقال : تلك حال ، وهذه حال .

وروى مالك أن عمر بن عبد العزيز كان معه ذات ليلة مولاه مزاحم ورجل يقال له ابن مافنة ، فدخل عمر بيته ثم قال لمزاحم : ائذن لابن مافنة فأذن له فدخل عليه فإذا بمائدة عليها صحفة مخمّرة بمنديل ، وعمر قائم يركع ، فركع ركعتين ، ثم أقبل لجلس واجتذب المائدة بيده وقال له : كل ، أين عيشنا اليوم من عيشنا إذ كنا بمصر . وكان أبوه عبد العزيز والياً عليها، فقال له : لاشيء يا أمير المؤمنين . فقال : لقد رأيتني وكنا لو ضافنا أهل قرية لوجدت ما يعمهم . ثم قال : أين عيشنا

هذا من عيشنا بالمدينة ؟ ثم استبكى ، فنادى مزاحم ابن مافنة : أن قم . فقام ، فلما كان الغد أخبره أنه إذا أصابه مثل هذا لم يعد إلى طعامه . قال مالك : وهذا يعجبنى من فعل عمر أن يخدم الإنسان نفسه .

وروى سعيد بن عامر أن عمر بن عبد العزيز دخل على امرأته فقال : يافاطمة ، عندك درهم أشترى به عنباً ؟ فقالت : لا . فقال : فعندك ثمنه — يعنى الفلوس — نشترى به عنباً ؟ فأقبلت عليه وقالت : أنت أمير المؤمنين لاتقدر على درهم ولا ثمنه تشترى به عنباً ! فقال : هذا أهون علينا من معالجة الأغلال فى جهنم .

ولما منع عمر قرابته ما كان يجرى عليهم ، وأخذ منهم القطائع التى كانت فى أيديهم ، شكوه إلى عمته أم عمرو ، فدخلت عليه فقالت : إن قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك . فقال : مامنعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم . فقالت : إنى رأيتهم يتكلمون ، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً . فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره . فقامت فخرجت على قرابته وقالت لهم : تزوجون آل عمر — تعنى ابن الخطاب — فإذا نزعوا إلى الشبه جزعتم ، اصبروا له .

وأرسلوا إليه أيضا فى ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنى رسول قومك إليك ، وإن فى أنفسهم ما أكلمك به ، إنهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخلِّ بين من سبقك وبين ماولوا بما عليهم ولهم . فقال له عمر : أرأيت إن أتيت بسجلَّين : أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، بأى السجلين

آخذ ؟ فقال هشام : بالأقدم . فقال عمر : فإنى وجدت كتاب الله الأقدم» فأنا حامل عليه من أتانى فيما تحت يدى وفيما سبقنى .

ثم أخذ يروضهم على ما يروض به نفسه من ذلك ، ومن هذا أنه كان عنده يوماً ناس من بنى مروان ، فحبسهم حتى يحضر الطعام ، وقال لخبازه : إذا دعوت بالطعام فلا تعجل به . فحبسهم حتى تعالى النهار ، وهم قوم لم يعتادوا ذلك ، فمر به الخباز فقال له : ويحك ، ائتنا بطعامك . فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، الآن . فلما أبطأ قال عمر لهم : فهل لكم فى سويق وتمر ؟ ودعا بهما فأكلوا منهما شيئاً إلى أن يحضر الطعام ، فلما فرغوا جاء الخباز بالطعام فنظروا إليه وأمسكوا عنه ، فقال لهم : ألا تأكلون . وكرر ذلك . فأبوا أن يأكلوا ، فقال لهم : ويحكم يا بنى مروان ففيم التقحُّم فى النار ؟ . قال راوى هذا : فبكى والله وأبكى .

وكذلك رد المظالم من كل عامل ظالم كان لبنى أمية ، حتى أنصفه الرعية من كل ظالم ، وشمل عدله الناس جميعاً .

٣ – إرضاء المعارضين لبنى أمية

إرضاء الشيعة :

لقى الشيعة من ملوك بنى أميــــة قبل عمر بن عبد العزيز ما لقوا ، ولا سيما فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فقد اختارا الحجاج ابن يوسف الثقفى واليا على أهل الكوفة ، ليبطش بمن بها وبالعراق من الشيعة ، فنالهم من شدته وعسفه ما نالهم ، فلما ولى عمر الخلافة ولى عليهم عاملا رفيقاً ، وأمره بالإحسان إليهم ورد مظالمهم ، كما سبق فى الكلام على رد المظالم .

ثم أرضاهم أكثر بترك ما كان يفعله بنو أمية من تخطئة على بن أبى طالب وذمه فى خطبهم على المنابر فى الجمع ونحوها ، وكان أبوه عبد العزيز يفعل هذا مكرها فى ولايته لأخيه عبد الملك ، حتى إنه كان إذا خطب وأخذ ينال من على تلجلج ، فقال له ابنه عمر : يا أبت ، إنك تمضى فى خطبتك ، فإذا أتيت على ذكر على عرفت منك تقصــــيرا . فقال له : أو فطنت لذلك ؟ فقال : نعم . فقال له : يا بنى ، إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .

فلما ولى عمر الخلافة أبطل هذه العادة الذميمة ، لأنه لم يكن عنده من الرغبة فى الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجله ، فترك ذلك

وكتب إلى عماله بتركه، وقرأ عوضه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) الآية[1] فحل هذا منه عند الناس محلا حسنا، وأكثروا مدحه بسببه، ومن هذا قول كثير عزة :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف بريا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه من الأود البادى ثقاف المقوم

إرضاء الخوارج :

وكذلك أرضى عمر الخوارج كما أرضى الشيعة، وقد سبق ما كان من إنكاره على من قبله من بنى أمية استحلالهم لسفك دمائهم، وعرضه عليهم أن يحبسوهم بدل ذلك حتى يحدثوا توبة، وقد كانوا يتظاهرون بالمطالبة بعودة عهد أبى بكر وعمر من العمل بالشورى، وقد أعاده عمر بن عبد العزيز لهم، فلم يبق هناك داع إلى خروجهم. فلم يخرج عليه منهم فى عهده إلا شوذب اليشكرى، واسمه بسطام، فخرج عليه بجوخى[2] وكان فى ثمانين رجلا، وهذا عدد لا يذكر مع جموعهم الكثيرة التى كانت تخرج على من قبله، وتقوم بحروب طويلة عنيفة غير منقطعة، ومع هذا عمل عمر على ألا تقوم حرب بينه وبين شوذب، وآثر أن يأخذه بالسياسة الحكيمة بدل الحرب.

---

(١) ى ٩٠ س ١٦

(٢) بلدة من عمل واسط.

فكتب إلى عامله بالكوفة ألاّ يحركهم حتى يسفكوا دما، ويفسدوا في الأرض، فإن فعلوا وجه إليهم رجلا صليبا حازما حكيما في جند، فوجه إليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين، وأمره بما كتب عمر إلى شوذب، فلما وصل إليه قام بإزائه لا يتحرك، وكان عمر قد كتب إليه كتابا كان فيه:

« بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله، ولست أولى بذلك مني، فهلم إليّ أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك ».

فكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. ثم أرسل إليه مولى لبني شيبان حبشيا اسمه عاصم، ورجلا من بني يشكر، فقدما على عمر ودخلا عليه فقال لهما: ما أخرجكما هذا المخرج؟ وما الذي نقمتم؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك، إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر، أعن رضا من الناس ومشورة؟ أم ابتززتم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم، ولا غلبتهم عليها، وعهد إلى رجل كان قبلي، فقمت ولم ينكره علي أحد، ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم.

فقال عاصم والرجل اليشكري: بيننا وبينك أمر واحد. فقال عمر لهما: ما هو؟ فقالا: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم، فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ منهم. فقال عمر لهما:

د علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا ، وقال إبراهيم(١) (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقد قال الله عز وجل(٢) (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلما ، وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها .

ثم قال لليشكرى : فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ فقال اليشكرى : ما أذكر متى لعنته ؟ فقال عمر : أفيسعك ألا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وأشرهم ولا يسعني ألا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟

ثم قال اليشكرى : أرأيت رجلا ولى قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل وتراه قد سلم ؟ فقال عمر : لا . فقال اليشكرى : أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ فقال عمر : إنما ولاه غيرى ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى .. فقال اليشكرى : أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا ؟ فبكى عمر ، وفى بكائه ما يغنى عن جواب سؤاله ، لأنه رأى أن هذه أسئلة يراد منها المغالبة والتعجيز لا الوصول إلى الحق ، وقد ذكر له فيما سبق رأيه فى بنى أمية عامة ، فلا معنى لتعجيزه بإلجائه إلى الطعن فى سليمان بن عبدالملك ، وهو الذى آثره بعهده إليه من بعده على إخوته وغيرهم ، وقدمه فى عهده على أخيه يزيد بن عبد الملك .

---

(١) ى ٣٦ س ١٤ (٢) ى ٩٠ س ٤

وقد رأى عمر بعد ذلك أن يقطع هذه المناظرة حين سأله اليشكري ذلك السؤال الذي أبكاه ، وقال له ولصاحبه عاصم : أنظراني ثلاثا . وهو يريد بهذا أن يتركهما لأنفسهما ليراجعا مناظرته لهما ، ويتبينا في هدوء موقفه منهما وموقفهما منه ، فخرجا من عنده ثم عادا إليه بعد الثلاث ، فقال عاصم له : أشهد أنك على حق . فقال عمر لصاحبه : ماتقول أنت ؟ فقال : ما أحسن ماوصفت! ولكني لا أفتات على المسلمين بامر — يعني إخوانه — أعرض عليهم ما قلت ، وأعلم ما حجتهم ؟ فأما عاصم فأقام عند عمر فأمر له بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوما .

فلما انتهى عمر من أمرهما كان يقول : أهلكني أمر يزيد ، وخصمت فيه[1] فأستغفر الله . فخاف بنو أمية ان يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فيقال إنهم وضعوا عليه من سقاه سما ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا حتى مرض ومات ، فمكث محمد بن جرير البجلي بإزاء أولئك الخوارج لا يتعرض إليهم ولا يتعرضون إليه ، كل منهم ينتظر عود الرسل من عند عمر ، فلبث الفريقان على هذا حتى توفي عمر ولم تقم بينهما حرب .

ابتداء المعارضة العباسية في السر :

وكانت هناك معارضة سرية لبني أمية يقوم بها أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وقد قصد إلى سليمان بن عبد الملك ، فنزل في طريقه إلى الشام بمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، وكان يقيم بالحُميمة بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام ، فأحسن لقاءه وصحبته ، ثم قصد إلى سليمان

(١) خصمت : غلبت ، يعني أنهما غلباه في سؤالهما له عن العهد إليه بعده .

فأكرمه وقضى حوائجه ، ولكنه رأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وأخافه منه ، وكان بنو أمية يتوجسون الشر من أمثاله من أبناء على بن أبى طالب ، فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن ، فلما أحس بالشر قصد محمداً بالحميمة فنزل عليه ، وعهد إليه بأمر دعوته من بعده ، وعرفه ما يعمل مع شيعته من أهل خراسان والعراق ، وكان قد أعلمهم بأن الأمر من بعده له ، فلما مات قصدوا محمداً وبايعوه ، وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم ، ثم نظموا دعوتهم فى هذه البلاد ، فجعلوا عليهم اثنى عشر نقيباً ، واختاروا معهم سبعين رجلا ، وكتب إليهم محمد كتاباً ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون عليها ، فكان هذا ابتداء الدعوة العباسية التى انتشرت فى هذه البلاد حتى أدت أخيراً إلى قيام الدولة العباسية ، وإلى انتهاء الدولة الأموية ، وكان ابتداء هذه الدعوة فى عهد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ : ٧١٨ م

أخذ عمر بالتأنى فى الإصلاح :

وختام الأمر فى السياسة الإصلاحية التى سار فيها عمر أنه أخذ فيها بالتأنى ، وكان ابنه عبد الملك يستعجله فيها فيقول له : يا بنى ، إن قومك شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكابدتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا علىّ فتقاً تكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يهراق فى سببى محجمة من دم ، أو ما ترضى إلاّ يأتىَ على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ، ويحيى فيه سنة ، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الحاكمين .

السياسة الخارجية فى خلافة عمر

---

١ ـــ أثر العدل فى إسلام السند

كانت الفتوحات الإسلامية قد امتدت فى التخوم الشرقية للدولة الأموية إلى بلاد الترك ، وإلى بلاد الهند ، وقامت فى ذلك حروب كثيرة بين ملوك بنى أمية وأهل هذه البلاد ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز آثر السلم مع أهلها على الحرب ، فكتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يظلوا ملوكا على بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت سيرته العادلة وصلت إليهم ، وكان لها حسن أثرها فيهم ، فدخلوا فى الإسلام باختيارهم ، وأسلمت ملوكهم وتسموا بأسماء عربية بدل أسمائهم الهندية ، وعاد الإسلام على عهد عمر إلى سيرته الأولى على عهد الخلفاء الراشدين ، ينتشر بين الناس اختيارا بحسن سيرة أهله وعدلهم ، وبإقامتهم من سيرتهم دليلا يشهد بفضله عند غيرهم ، فالسياسة العادلة تؤلف الناس وتدعوهم إلى التأمل فى الدين ، ومتى تأملوا اختاروا الدين الأحسن ، والسياسة الظالمة تثير فيهم الكراهية والتعصب ، ومتى تعصبوا خفى الحق عليهم ، وآثروا ما هم عليه كراهية لمن يظلمونهم .

وقد مكث أهل السند على إسلامهم إلى أن تولى هشام بن عبد الملك بعد أخيه يزيد ، وكان الملك على السند جيشبة بن زاهر من عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان خالد بن عبد الله القسرى والياً لهشام على العراق ، فاستعمل الجنيد بن عبدالرحمن على السند ، فسار إليها ونزل بشط مهران ، فمنعه جيشبة من عبور النهر ، وقال له : إننا مسلمون ، فقد استعملنى الرجل الصالح — يعنى عمر بن عبد العزيز — ولست آمنك . وكان عمر قد أبقاه ملكا على بلاده وجعل عليه خراجا يؤديه ، فكان يؤديه كل سنة ، ولم يكن هناك داع إلى استعمال الجنيد على بلاده ، لأن هذا يجعله أميراً عليها دونه ، وفى هذا نقض لعهد عمر له .

فلم يسمع الجنيد له بل تجنى عليه ، فأتى الهند وجمع جيشه واستعد للحرب ، وسار إليه فى السفن أيضاً ، فلما رأى جيشبة هذا التجنى عليه ارتد عن الإسلام ، وقابل الحرب بالحرب ، فانتصر الجنيد عليه وقتله ، وقد هرب أخوه صَصَّه إلى العراق ليشكو غدر الجنيد بهم ، فخدعه الجنيد حتى جاء إليه فقتله أيضاً ، والإسلام برىء من هذه السياسة الظالمة التى تحمل الناس على الردة عنه ، وإذا كان للردة إثمها فإن من يحمل الناس عليها يتحمل كثيرا منه بسوء سياسته ، لأنه كان سبباً فى الردة بظلمه ، وفى هذا دليل على أن السيف كان ينفر الناس من قبول دعوة الإسلام ، وكان يحملهم على الردة عنه ، فيكون من أكبر الخطأ دعوى أنه لم ينتشر إلا به .

ومع ذلك كان لعمر حروب دفاعية فى هذه التخوم ، قام بها عامله عمرو

ابن مسلم أخو قتيبة بن مسلم ، وكان عاملا له على بعض ثغور الهند ، وقد سبقه قتيبة بفتوحات عظيمة فى هذه الجهات ، فغزا بعده بعض بلاد الهند وظفر فيها بمن حاربه من أهلها ، وقد أغارت الترك فى عهد عمر على أذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين ، فأرسل حاتم بن النعمان الباهلى إليهم ، فقتلهم ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وقدم على عمر بخمسين أسيراً منهم ، وبهذا تكون حروبه فى هذه التخوم دفاعية كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ، فلم يكن يلجأ إليها إلا دفاعا عن المسلمين .

---

٢ — بين المسلمين والروم

لما سلم الحسن بن على أمر المسلمين لمعاوية رأى أنه صار وحده ملكا عليهم ، وأنه لم يعد يخشى الروم كما كان يخشاهم أيام الخلاف بينه وبين على ، وكان قد عقد هدنة معهم على إتاوة يدفعها إليهم ، فعاد إلى غزوهم ليتخلص من هذه الإتاوة ، وعادت بهذا حالة الحرب بين المسلمين والروم ، وكان الملك عليهم قسطنطين بن كنستانس بن قسطنطين بن هرقل ، ولكن هذه الغزوات انتهت بكارثة على المسلمين فى حصارهم للقسطنطينية ، فانتهت بصلح دفع فيه معاوية غرامة حربية كبيرة ، ووعد بدفع ثلاثة آلاف رطل من الذهب كل عام مدة ثلاثين عاما ، لأنه آثر بعد هذه الكارثة أن يتجه بفتوحاته نحو الشرق ، وأن يسالم الروم مدة هذه الهدنة .

ولما مات قسطنطين ملك بعده ابنه جستنيان ، وهو آخر ملك على الروم من بيت هرقل ، وكان معاصرا لعبد الملك بن مروان ، فلما سك عبد الملك دنانير إسلامية مكتوبا عليها آيات قرآنية ، أراد أن يدفع الإتاوة المفروضة من عهد معاوية بالدينار الإسلامى بدل الدينار الرومى ، فأباها جستنيان وردها على عبد الملك وأعلن عليه الحرب ، فتجهز له عبد الملك بجيش كبير ، ثم سار إليه حتى التقى به عند سيباستبول فى كيليكيا ، فهزمه عبد الملك وأوقع بجيشه خسارة كبيرة ، وأخذ يكتسح كبادوكيا طولا وعرضا ، حتى وصل إلى آخر الحد الآسيوى لدولة الروم .

وقد استمرت الحروب بين المسلمين والروم بعد عبد الملك إلى أن تولى ابنه سليمان . فأرسل أخاه مسلمة للاستيلاء على القسطنطينية ، ووجه إليها جيشاً قصدها من البر ، وجيشاً آخر قصدها من البحر ، فحاصرها الجيشان مدة طويلة ، ولكنها صبرت على الحصار حتى انتهى بكارثة على المسلمين أشد من الكارثة الأولى فى عهد معاوية ، حتى إنها كانت سببا فى ضياع ما استولوا عليه من بلاد الروم بآسيا .

فلما تولى عمر بعد هذه الكارثة بعث إلى مسلمة بن عبد الملك فى بلاد الروم يأمره بالقفول مع جيشه منها ، وأرسل إليه خيلا عتاقاً ، وطعاما كثيراً ، وحث الناس على معونته حتى يرجع بجيشه، ثم أمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية ، وكانت طرندة واغلة فى البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل ، فأخربها وأمر المسلمين بالقفول عنها خوفا عليهم من عدوهم، ومع هذا لم يترك غزو الصائفة إلى بلادالروم، ليحافظ على ما استقر عنده المسلمون من تلك التخوم .

وبهذا استمرت حالة الحرب بين المسلمين والروم من عهد النبوة إلى خلافة عمر بن عبد العزيز ، إلا ما تخللها من الهدنة فى عهد معاوية إلى عبد الملك بن مروان ، فقد هادنهم معاوية هدنتين : إحداهما كانت أثناء الخلاف بينه وبين على ، والثانية كانت بعد كارثة القسطنطينية ، وكان هو الذى سعى إلى المهادنة فى المرتين ، على عكس ما كان يفعله الروم من مضيهم فى الحرب مع هزائمهم ، فإذا دل هذا على شىء فإنه يدل على أن المسلمين كانوا أقرب إلى المهادنة منهم ، وعلى أن الحقد السياسى لم يبلغ فى نفوس المسلمين مبلغه فى نفوسهم .

انتهاء خلافة عمر

مرض عمر وموته :

اشتكى عمر لهلال رجب سنة إحدى ومائة ، وكانت شكواه عشرين يوماً ، وقد اختلف فى سبب موته ، فروى أن محمد بن عبد الملك بن مروان سأل فاطمة امرأة عمر : ما ترين بدأ مرض عمر الذى مات فيه؟ فقالت : أرى جُلّ ذلك أو بدأه الخوف . وقال عبدالحميد بن سهيل : رأيت الطبيب الذى خرج من عند عمر بن عبدالعزيز فقلت : رأيت بوله اليوم ؟ فقال : ما ببوله بأس ، إلا الهم بأمر الناس .

وقيل إنه سقى السم من بنى أمية حين خافوا أن يخلع يزيد بن عبدالملك ويجعل أمر المسلمين شورى بينهم ، على ما سبق فى الكلام على إرضاء المعارضين لبنى أمية ، ومن يذهب إلى هذا يروى عن أبى زيد الدمشقى أنه قال : لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب ، فلما نظر إليه قال : الرجل قد سقى السم ، ولا آمن عليه الموت ، فرفع عمر بصره فقال : ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم . قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قد عرفت حين وقع فى بطنى . قال : فتعالج يا أمير المؤمنين ؟ فإنى أخاف أن تذهب نفسك . فقال : ربى خير مذهوب إليه ، والله لو علمت شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى إلى

أذنى فتناولته ، اللهم خر لعمر فى لقائك . قال : فلم يلبث أياماً حتى مات (١٠١ هـ — ٧١٩ م) وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر .

وكان مسلمة بن عبد الملك يعوده فى مرضه ، وكان يرتاح إليه أكثر من غيره من بنى مروان ، فدخل عليه فى اليوم الذى مات فيه وفاطمة امرأته جالسة عند رأسه ، فلما رأته تحولت وجلست عند رجليه ، وجلس هو عند رأسه ، فإذا عليه قميص وسخ ممزق الجيب ، فقال لها : لو أبدلتم هذا القميص . فسكتت ، ثم أعاد عليها القول مرارا حتى أغلظ عليها ، فقالت : والله ماله قميص غيره .

ثم قال له مسلمة : يا أمير المؤمنين ، ألا توصى ؟ فقال لمسلمة : وهل من مال أوصى فيه ؟ فقال مسلمة : مائة ألف أبعث بها إليك ، فهى لك فأوص فيها . فقال : فهلا غير ذلك يا مسلمة . فقال مسلمة : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : تردها من حيث أخذتها . فبكى مسلمة وقال: رحمك الله ، لقد لينت منا قلوباً كانت قاسية ، وزرعت فى قلوب الناس لنا مودة ، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكرا .

وصيته إلى يزيد بن عبد الملك قبل موته :

ولما احتضر عمر قيل له : أكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة . فقال : بماذا أوصيه ؟ إنه من بنى عبدالملك . يعنى أنه لايعمل بوصيته ، ولكنه كتب إليه :

« أما بعد ، فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة ، حين لا تقال العثرة ، ولا تقدر على الرجعة ، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك ، وتصير إلى من لا يعذرك ، والسلام » .

ولم يكن عمر يملك غير هذه الوصية له ، لأن سليمان بن عبد الملك جعل له الأمر من بعده ، ولم يكن بنو أمية يرضون أن يخرج الأمر من أيديهم ، وقد روى عنه أنه قال : لو كان لى أن أعهد ماعدوت أحد رجلين : صاحب الأعوص ، أو أعمش بنى تيم . يريد بصاحب الأعوص إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص من بنى أمية ، وكان يسكن الأعوص فى شرقى المدينة على بضعة عشر ميلا ، وكان صاحب فضل كبير بين أهل عصره ، ويريد بأعمش بنى تيم القاسم بن محمد بن أبى بكر ، وكان صاحب فضل كبير أيضاً ، ولكن الأمر لم يكن له على ما سبق ، فلم يمكنه العهد لأحدهما كما أراد ، وكان مدة خلافته قصيرة لم تتسع لما يريد .

خاتمـــة

دفع اتهام أجناس جولد تسيهر للاسلام بإيثار الحرب على السلم :

لا يفوتنى فى ختام هذا الكتاب أن أدفع هذا الاتهام من أجناس جولد تسيهر للاسلام ، لأنى بنيت السياسة الخارجية فى هذا الكتاب وفى كتاب « السياسة الإسلامية فى عهد النبوة » على أساس إيثار الإسلام للسلم على الحرب ، وقد جاء هذا الاتهام منه فى كتابه — العقيدة والشريعة فى الإسلام ص٢٨ بمطبعة دار الكاتب المصرى — واستند فيه على قوله تعالى فى الآية — ٣٥ — من سورة محمد (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلونَ والله معكم) الآية ، وهذا الاتهام عندى ليس إلا صدى لما كان مشهورا بيننا أن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن آيات السلم فيه منسوخة بآيات الحرب ، كما قال الزجاج فى هذه الآية : منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا . وكما ذهب بعضهم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى فى الآية — ٦١ — من سورة الأنفال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) الآية ، ولكن هذا ليس محل اتفاق بينهم ، لأن بعضهم ذهب إلى أن آية سورة الأنفال هى الناسخة ، وفى هذا كفاية للجواب عن ذلك الاتهام ، ولكنى لا أكتفى به ، وبعضهم ذهب إلى أنه لا داعى إلى القول بالنسخ فيهما ، لأن الله نهى المسلمين فى آية سورة محمد عن الدعوة للسلم ابتداء ، ولم ينه عن قبول السلم إذا

جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى النسخ .

وعندى أنه ليس فى آية محمد ما يفيد نهى المسلمين عن الدعوة إلى السلم ابتداء ، لأن الإسلام أكرم من أن ينهاهم عن ذلك ، وإنما معنى قوله (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) لا تضعفوا وتدعوا الكفار إلى الصلح عن خور ، فإن ذلك إعطاء الدنية ، كما جاء فى تفسير أبى السعود ، وكان المسلمون فى قلة والمشركون فى كثرة ، وكان بين المسلمين منافقون يثبطونهم عن القتال ، ويخوفونهم من كثرة أعدائهم ، فنهاهم الله تعالى أن يستسلموا للخوف ويجبنوا عن قتال أعدائهم ، وجعلهم الأعلون بقوة عقيدتهم وإن كانوا أقل عددا منهم ، لأنه معهم بتأييده لهم ، وبما أعده لهم من الثواب فى الآخرة .

وسياسة السلم خلاف سياسة الاستسلام ، لأن الدعوة إلى السلم إنما تكون مفيدة مع قوة الداعى إليه ، لأنه إذا دعا إليه مع قوته يسمع له ، وتكون نتيجته إيثار السلم على الحرب ، أما إذا دعا إليه عن ضعف واستسلام فإنه لا يسمع له ، بل تكون نتيجته زيادة طمع عدوه فيه ، فيمضى فى حربه ولا يركن إلى السلم .

وحاشا لله تعالى أن يأمر بالدعوة إلى السلم ثم ينسخها أو ينهى عن الدعوة إليه ابتداء ، وكم فى آيات القرآن من معان دقيقة لمن يتدبرها ، ويحاول الوصول إلى أسرارها ، حتى لا يكون هناك مجال لمثل ذلك الاتهام من أعداء الإسلام ، وحتى لا يكون هناك أدنى نقص فى مثله السياسية العليا ، والحمد لله أولا وآخرا ؟

٢١ من رمضان سنة ١٣٨١ هـ

٨ من مارس سنة ١٩٦٠ م

موضوعات الكتاب

صفحة

تصحيحات

صواب	س	ص	صواب	س	ص
بل لقوة	١	١١	يرون	٦	١٦٩
ذادة	٦	٢٨	فى هذا	٨	١٧٨
لم يخف	١٤	٢٨	ظاهرة لا يمكن	٥	١٨٨
بطن بنت خارجة	١٣	٣٨	ماذهب إليه	١٢	٢١٠
س ٨٥	١١	٥٤	يدل	١٣	٢١٠
من اصر	٢	٦١	الذين	١٤	٢٢٨
بن حبيب	١١	٦١	خروج أصحاب	١١	٢٣٩
جاوزوا	١٨	٧٩	إن	٩	٢٤٢
اختلفت	١٠	٨٩	فقال	١٦	٢٥٤
رد رأى	١٥	٩٤	يباغتون	٢٠	٢٧٠
أبى بكر	١٨	٩٩	برأيه فضمه	٣	٢٨٠
وهو خليفة	٧	١١٧	وينظر	٤	٣٠٢
يقصد به	٥	١٢٨	تعلمونه	٤	٣٠٢
صفوان	١	١٢٩	فنظر	١١	٣٢٥
شىء	١٦	١٣٨	الخليفة	١٤	٣٢٦
ينتظر	١	١٦٠	لعبد الملك	١٢	٣٦٠

دار الثقافة العربية للطباعة
شارع قولة - الدربالة عابدين



ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

دار الثقافة العربية للطباعة

شارع ترعة الرياشة - عابدين

الثمن ٣٠ قرشاً